



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر  
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com  
www. **Ghaemiyeh** .org  
www. **Ghaemiyeh** .net  
www. **Ghaemiyeh** .ir

الدكتور محمد حسين علي الصغير

المبادئ العامة

للتفسير

القرآن الكريم

دراسة مقارنة

١٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# المبادئ العامة لتفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين علي الصغير

نشرت في الطباعة:

دارالمورخ العربي

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٩	المبادئ العامة لتفسير القرآن
٩	اشارة
٩	الباب الأول التفسير فى المستوى النظرى
٩	اشارة
٩	الفصل الأول «معالم التفسير»
٩	اشارة
١٠	التفسير فى اللغة:
١١	التفسير فى الاصطلاح:
١٣	الفرق بين التفسير و التأويل:
١٥	أهمية التفسير:
١٧	أقسام التفسير:
٢١	الفصل الثانى آداب التفسير
٢٢	اشارة
٢٢	الآداب الموضوعية:
٢٤	الآداب النفسية:
٢٤	اشارة
٢٤	أ- صحة الاعتقاد:
٢٥	ب- الإخلاص و التفويض:
٢٦	ج- التدبر و التفكير:
٢٨	د- علم الموهبة:
٢٩	الآداب الفتيه:
٣٤	الفصل الثالث مصادر التفسير

- ٣٤ ..... اشارة
- ٣٤ ..... ١- المصدر النقلى:
- ٤٠ ..... ٢- المصدر العقلى:
- ٤٤ ..... ٣- المصدر اللغوى:
- ٤٩ ..... الفصل الرابع مناهج التفسير
- ٤٩ ..... اشارة
- ٤٩ ..... تعدد المناهج:
- ٤٩ ..... اشارة
- ٥١ ..... ١- المنهج القرآنى:
- ٥٢ ..... ٢- المنهج الأثرى:
- ٥٦ ..... ٣- منهج الرأى:
- ٥٩ ..... ٤- المنهج اللغوى:
- ٦٢ ..... ٥- المنهج البيانى:
- ٦٤ ..... ٦- المنهج الصوفى أو الباطنى:
- ٦٧ ..... ٧- المنهج العلمى:
- ٦٩ ..... ٨- المنهج التاريخى:
- ٧١ ..... ٩- المنهج الموضوعى:
- ٧٢ ..... ١٠- مناهج أخرى:
- ٧٤ ..... الفصل الخامس مراحل التفسير
- ٧٤ ..... اشارة
- ٧٤ ..... ١- مرحلة التكوين:
- ٧٨ ..... ٢- مرحلة التأصيل:
- ٨١ ..... ٣- مرحلة التجديد:
- ٨١ ..... اشارة

٨١	الاتجاه الأول:
٨١	الاتجاه الثاني:
٨٤	الباب الثاني التفسير فى المستوى التطبيقى
٨٤	اشارة
٨٥	الفصل الأول «التفسير التسلسلى الموضوعى»
٨٥	«تفسير سورة الزخرف»
٨٥	اشارة
٨٥	موضوعية هذه السورة:
٨٦	حم و الحروف المقطعة
٩١	«القرآن الكريم»
٩٤	«إرسال الأنبياء»
٩٥	«آلاء الرحمن»
١٠٠	«محااجة المشركين و تقرير أخطائهم»
١٠٣	«إبراهيم و قومه و التوحيد»
١٠٣	«مقارنة بين القيم المقابلة»
١٠٦	«عاقبة المعرضين و وظيفة الرسول الأعظم»
١٠٩	«موسى و فرعون و قومه»
١١٢	«عيسى و ضرب المثل و البيئات»
١١٥	«من مشاهد القيامة»
١١٧	«تنزيه البارى و مسك الختام»
١٢٠	الفصل الثاني «التفسير التسلسلى التفصيلى»
١٢٠	تفسير فاتحة الكتاب
١٢٠	اشارة
١٢١	تمهيد:

- ١٢١ ..... بعد تاريخي: .....
- ١٢٣ ..... عرض تفسيرى: .....
- ١٢٨ ..... بحث لغوى: .....
- ١٣٦ ..... لمحات فنية: .....
- ١٣٨ ..... إشارات بلاغية: .....
- ١٤٠ ..... الصياغة الدالية: .....
- ١٤١ ..... من فقه القرآن: .....
- ١٤٣ ..... بين الزمان و المكان: .....
- ١٤٤ ..... إحصاء ببلغرافى: .....
- ١٤٥ ..... أضواء تربوية: .....
- ١٤٨ ..... «بحوث روائية»: .....
- ١٤٨ ..... اشارة .....
- ١٤٩ ..... (١) جزئية البسملة: .....
- ١٥٠ ..... (٢) أهمية البسملة: .....
- ١٥١ ..... (٣) فضل الفاتحة: .....
- ١٥٣ ..... (٤) شذرات تفسيرية: .....
- ١٥٥ ..... خاتمة المطاف (١) خلاصة و نتائج: .....
- ١٥٦ ..... المصادر و المراجع .....
- ١٥٧ ..... أ- المصادر القديمة: .....
- ١٥٩ ..... ب- المراجع الحديثة: .....
- ١٦١ ..... تعريف مركز القائمية باصفهان للتمريات الكمبيوترية .....



## المبادئ العامة لتفسير القرآن

### إشارة

سرشناسه : صغير، محمد حسين علي، ١٩٣٩ - م.  
 عنوان و نام پديد آور : المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق  
 نويسنده: محمد حسين علي الصغير  
 مشخصات نشر : بيروت: دارالمورخ العربي، ٢٠٠٠م. = ١٤٢٠ق. = ١٣٧٩.  
 مشخصات ظاهري : ٣٠٣ ص.  
 فروست : موسوعة الدراسات القرآنية؛ ١  
 يادداشت : عربي  
 يادداشت : كتابنامه: ص. ٢٩١ - ٢٩٩  
 موضوع : تفسير.  
 رده بندي كنگره : BP٩١ /ص ٢٧٢ ١٣٧٩  
 شماره كتابشناسي ملي : ١٠٣٨٠٨٧  
 موضوع: روشها و گرايشهاى تفسيرى  
 تاريخ وفات مؤلف: معاصر  
 زبان: عربى  
 تعداد جلد: ١  
 ناشر: دار المؤرخ العربى  
 مكان چاپ: بيروت  
 سال چاپ: ١٤٢٠ / ٢٠٠٠  
 نوبت چاپ: اول

## الباب الأول التفسير فى المستوى النظرى

### إشارة

الفصل الأول: معالم التفسير الفصل الثانى: آداب التفسير الفصل الثالث: مصادر التفسير الفصل الرابع: مناهج التفسير الفصل الخامس:  
 مراحل التفسير  
 المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣

## الفصل الأول «معالم التفسير»

### إشارة

١- التفسير فى اللغة ٢- التفسير فى الاصطلاح ٣- الفرق بين التفسير و التأويل ٤- أهمية التفسير ٥- أقسام التفسير

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

### التفسير في اللغة:

التفسير تفعيل، مأخوذ من الفسر، أو مشتق من السفر، و هو بهذا يخضع إلى طائفتين من الآراء.

الأولى: وتعنى باللفظ نفسه، و كون جذره الفسر، و تنفرع عن هذا ثلاثة أقوال:

أ- الفسر مصدر، و هو الإبانة و كشف المغطى، و الفعل منه كضرب و نصر، فتقول: فسر الشيء يفسره بالكسر، و يفسره بالضم فسرا بمعنى:

أبانه «١».

و هذا ما يراه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥ هـ) و التفسير عنده من الفسر و هو البيان: بيان و تفصيل الكتاب «٢».

ب- و يرى ابن الأنباري (ت: ٥٧٧ هـ) أن الكلمة من قول العرب:

فسرت الدابة و فسرتها إذا ركضتها محصورة لينطلق حصرها و هو يؤول في الكشف «٣».

إلا أن هذا الكشف حسى أخذ إلى المعنوى.

ج- و يرى الزركشى (ت: ٧٩٤ هـ) و تابعه السيوطي (ت: ٩١١ هـ) أن الفسر مأخوذ من التفسر، و هى القليل من الماء الذى ينظر فيه الأطباء،

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٦/ ٣٦١+ الفيروز آبادي، القاموس: ٢/ ١١٠.

(٢) الخليل، كتاب العين: ٧/ ٢٤٧+ مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٣.

(٣) الزركشى، البرهان في علوم القرآن: ٢/ ١٤٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦

فيكتشفون به المرض، فكما أن الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علة المريض، فكذلك يكشف المفسر عن شأن الآية و قصصها و معناها «١».

و هذا رأى ترجمة حرفية لما أبداه الخليل منذ عهد مبكر إذ قال:

«و التفسر: اسم للبول الذى ينظر فيه الأطباء، يستدل به على مرض البدن، و كل شيء يعرف به تفسير الشيء فهو التفسر» «٢».

فالدلالة عند هؤلاء تنحصر فى اللفظ نفسه دون اشتقاق عن جذر آخر، و هو إما من الفسر، و هو البيان، أو من الفسر للدابة إذا أطلقت حصرها فى كشف الأمر الحسى للدلالة على أمر معنوى، أو من التفسر، و هى الكشف و المعرفة بالشيء.

و كل هذه المعانى تدور حول البيان و الاظهار و الكشف، و هى معان متقاربة.

الثانية: و ترى أن التفسير تفعيل مقلوب الجذر عن «السفر» فيقال سفرت المرأة سفورا، إذا ألت حمارها عن وجهها فهى سافرة «٣».

و تقول: أسفر الصبح إذا أضاء «٤».

و السفر كشط الشيء عن الشيء، كما تسفر الريح الغيم عن وجه السماء فتسفر «٥».

و يضع الراغب الأصبهاني (ت: ٥٠٢ هـ) مقارنة سليمة بين السفر و الفسر فيستعمل الفسر للمعنى العقلى و السفر للمعنى الحسى، فيقوم الأول بتصوير العمل ذهنى، و الثانى يتكفل بإبراز التشخيص الحسى فيقول:

«الفسر و السفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لاطهار المعنى المعقول ... و جعل السفر لابراز الاعيان للأبصار،

فقبل:

(١) المصدر نفسه: ٢/ ١٤٧ + السيوطي، الاتقان: ٤/ ١٦٧.

(٢) الخليل، كتاب العين: ٧/ ٢٤٨.

(٣) الزركشي، البرهان: ٢/ ١٤٧.

(٤) السيوطي، الاتقان: ٤/ ١٦٧.

(٥) مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧

سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح «١».

و يرى أمين الخولي صحة هذا الرأي، و يؤكد أن المادتين تلتقيان في معنى الكشف، ثم يرى السفر الكشف المادي و الظاهري، و الفسر الكشف المعنوي و الباطن «٢».

و هذا القلب مستعمل و مطرد في اللغة و الاشتقاق، فقلب اللفظ من فسر إلى سفر بتقديم الفاء على السين شائع فهو كما يقولون: جذب و جذب، و صب و بص، و نحوها «٣».

و سواء أ كان اللفظ على سلامته أم كان مقلوبا، فالدلالة فيه واحدة في اللغة، تعنى كشف المغلق، و تيسير البيان، و الاظهار من الخفي إلى الجلي، و من المجمل إلى المبين.

و هنا نشير إلى أن ابن عباس (ت: ٦٨ هـ) قد انفرد وحده بإرادة التفصيل من التفسير «٤».

و هذا أيضا ترجع عائديته إلى البيان، إذ تفصيل المجمل يعنى تبينه و إظهاره كما هو واضح.

### التفسير في الاصطلاح:

أما التفسير في الاصطلاح فيتوسع به بعضهم فيجعله متناولا لكل علوم القرآن، و يقتصر به بعض على الدلالة الموضوعية لألفاظ القرآن و مدلولاتها و أحكامها، أفرادا و تركيبا، و قسم ثالث يعود به إلى جملة ما في القرآن من مراد الله تعالى.

الرأى الأول: و يمثله الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) و يتابعه عليه الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) و يفصله السيوطي (ت: ٩١١ هـ) فالتفسير عند الطوسي علم معانى القرآن، و فنون أغراضه من القراءة، و المعانى،

(١) الزركشي، البرهان: ٢/ ١٤٨ + الراغب، المفردات، مادة: سفر.

(٢) أمين الخولي، دائرة المعارف الاسلامية، مادة تفسير: ٥/ ٣٤٨.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٣.

(٤) ظ: ابن فارس، الصحابي في اللغة: ١٦٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨

و الاعراب، و الكلام على المتشابه، و الجواب عن مطاعن الملحدين فيه، و أنواع المبطلين «١».

فما أبان المعنى، و كشف المراد، و تحدث عن الأغراض و تناول مباحث القراءة و المعانى و الاعراب، و المتشابه، و أجاب عن شبهات المبطلين، يعتبر تفسيراً عند الطوسي.

و أما عند الزركشي فالتفسير في الاصطلاح: «هو علم نزول الآيه و سورتها و أقاصيصها، و الأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها و

مدنيها، و محكمها و متشابهها، و ناسخها و منسوخها، و خاصها و عامها، و مطلقها و مقيدها، و مجملها و مفسرها، و زاد قوم: علم حلالها و حرامها و وعداها و وعيدها، و أمرها و نهياها، و عبرها و أمثالها» (٢). و تابعة في هذا المعنى السيوطي في الاتقان (٣) و نقل عنه قوله: «التفسير علم تفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حكمه، و استمداد ذلك من علم اللغة و النحو و التصريف و علم البيان، و أصول الفقه و القراءات، و يحتاج إلى معرفة أسباب النزول و النسخ و المنسوخ» (٤).

فالزركشي هنا و من تابعه قد حمل آداب المفسر و شروطه في التفسير، و سعة معارفه و إدراكه على الحد الاصطلاحي، بل تجاوز إلى مصادر التفسير في اللغة و النحو، و جعل التفسير شاملا لجملة من علوم القرآن، و الاحكام و الشريعة، فهو يتكلم عن التفسير و يريد لوازمه من الاحاطة و التخصص، و معرفة طائفة من العلوم التي يعرف بها التفسير و ليست هي التفسير.

الرأى الثانى: و يلخصه أبو حيان الأندلسى (ت: ٧٤٥ هـ) بقوله:

«التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن و مدلولاتها و أحكامها الافراضية و التركيبية و معانيها التي تحمل عليها حالة التركيب و تتمالك لذلك» (٥).

(١) ظ: الطوسى، التبيان في تفسير القرآن: ١/ ٢-٣.

(٢) الزركشى، البرهان: في علوم القرآن: ٢/ ١٤٨.

(٣) السيوطى، الاتقان: في علوم القرآن: ٤/ ١٦٩.

(٤) المصدر نفسه: ٤/ ١٦٩.

(٥) ظ: الزركشى، البرهان: ٢/ ١٤٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩

فأبو حيان ذهب إلى متعلقات علم التفسير التي يتوصل فيها إليه، فأشار إلى علم القراءات، و علم اللغة، و التصريف، و علوم البلاغة، في المعانى و البيان و البديع، و حالة التركيب في الحقيقة و المجاز، و تمت ذلك في معرفة النسخ و المنسوخ و أسباب النزول.

الرأى الثالث: و يمثله كل من الطبرسى و الفنارى من القدامى، و يختاره من المتأخرين محمد عبد العظيم الزرقانى.

أما الطبرسى فقد أجمل القول من التفسير بقوله: «التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل» (١).

و أما الفنارى فقال: «التفسير هو معرفة أحوال كلام الله تعالى من حيث القرآنية، و من حيث دلالاته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية» (٢).

و أما وجهة نظر المحدثين فعلى القدامى فيما حرره الزرقانى بقوله: «التفسير فى الاصطلاح: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية» (٣) إن ما أبداه الطبرسى، و حققه الفنارى، و اختاره الزرقانى، قد يكون أقرب تعريف إلى طبيعة الدلالة الاصطلاحية للتفسير، ففيه تحديد لمفهوم المصطلح العلمى للتفسير، و حصر إرادته الفنية عليه، و تقييده: بقدر الطاقة البشرية، لا يخلو من دقة علمية، و فيه بعد نظر و أصابة.

ولدى مقارنة أقوال المفسرين فى مختلف العصور، تبدو الحصيلى العلمية واحدة من التفسير، و إن عبر عنها بشكل أو بآخر، و هى بيان مراد الله عز و جل من قوله فى كتابه الكريم، و هنا يلتقى المعنى الاصطلاحى للتفسير بالمعنى اللغوى، و هو إرادة الكشف و البيان، و هذا يعنى أن المفهوم الاصطلاحى للتفسير منحدر- فيما يبدو- عن الأصل اللغوى له، و هو ما أرجحه و أميل إليه.

(١) الطبرسى، مجمع البيان: ١/ ١٣.

(٢) أحمد رضا، كلمة في التفسير، مقدمة لمجمع البيان للطبرسي: ٢ / ١.

(٣) الزرقاني، مناهل العرفان: ١ / ٤٧١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠.

على أن هذا الكشف والبيان عن مراد الله تعالى قولاً يختص في وجه من الوجوه بالتفسير وحده، وقد يشاركه فيه التأويل على رأي، فترجح إذن جلاء الفروق المميزة بين التفسير والتأويل.

### الفرق بين التفسير والتأويل:

في وجوه الافتراق والاتقاء بين التفسير والتأويل عدة مذاهب للعلماء يمكن حصرها بما يأتي:

١- إن التفسير والتأويل بمعنى واحد، وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وجماعة من العلماء «١».

وقال أبو العباس المبرد التفسير والتأويل بمعنى واحد «٢» وقد أنكر هذا قوم حتى قال ابن حبيب النيسابوري: «قد نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتمدوا إليه» «٣».

وهذا يعني أن فروقا واقعه بينهما، لذا نسب الجهل لمن قصر في فهم ذلك.

٢- إن التفسير أهم من التأويل، وإليه ذهب الراغب الأصبهاني بقوله: «التفسير أهم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني» «٤».

٣- إن إبانة حكم اللفظ هو التفسير، وأن تحميل اللفظ ما هو يحتمله من المعنى هو التأويل «٥».

٤- إن التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، وهو رأي الطبرسي «٦».

(١) السيوطي، الاتقان: ١٦٧ / ٤.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ١٣ / ١.

(٣) السيوطي، الاتقان: ١٦٧ / ٤.

(٤) الزركشي، البرهان: ١٤٩ / ٢.

(٥) مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٣.

(٦) الطبرسي: مجمع البيان: ١٣ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١.

٥- إن التفسير يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة والوصيلة. وإن التأويل أكثره في الجمل ويستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، وهو رأي أبي مسلم محمد بن بحر الأصبهاني (ت: ٣٧٧ هـ) «١».

٦- إن التفسير هو القطع بالمراد، وإن التأويل هو المحتمل غير المقطوع به، وهو ما ذهب إليه الماتريدي: أبو منصور محمد بن محمد بن محمد (ت: ٣٢٣ هـ) بقوله: «التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهى عنه. والتأويل ترجيح أحد الاحتمالات بدون القطع والشهادة على الله» «٢».

٧- إن المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ «٣».

و معنى هذا أن المراد بالتأويل حمل اللفظ على المعنى المجازي أو الاستعمال الكنائي، بينما التفسير قصر اللفظ على معناه الحقيقي.

٨- أن التفسير كشف المغطى، والتأويل انتهاء الشيء وقصيره وما يؤول إليه أمره «٤».

٩- إن التفسير بيان وضع اللفظ حقيقة أو مجازاً، وأن التأويل تفسير باطن اللفظ، وإلى هذا يذهب أبو طالب التغلبي فيما رواه السيوطي:

التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً كتفسير الصراط بالطريق، والغيث بالمطر، والتأويل: تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد. لأن اللفظ يكشف المراد، والكاشف دليل «٥».

١٠- اختصاص التفسير بالرواية، واختصاص التأويل بالدراية، وإلى

(١) الزركشى، البرهان: ١٤٩ / ٢.

(٢) السيوطي، الاتقان: ١٦٧ / ٤.

(٣) ابن منظور، لسان العرب: ٣٤ / ١٣.

(٤) الطبرسي، مجمع البيان: ١٣ / ١.

(٥) السيوطي، الاتقان: ١٦٧ / ٤ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢

هذا يميل البجلي بقوله: «التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية» «١».

١١- اختصاص أحدهما بالظاهر والآخر بالسماع، وفيه رأيان متقابلان:

الأول: أن التفسير ظاهر معنى الآية، والتأويل يقع على مراد الله، ولا يوقف عليه إلا بالسماع.

الثاني: ضده، أن التأويل ظاهر معنى الآية، والتفسير يقع على مراد الله، ولا يوقف عليه إلا بالسماع «٢».

١٢- إن التفسير هو تبيين وتعين السنّة، وأن التأويل هو ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب، وهذا ما لخصه السيوطي: «وقال قوم:

ما وقع مبيناً في كتاب الله ومعيناً في صحيح السنّة سمي تفسيراً، لأن معناه قد ظهر ووضح، وليس لأحد أن يتعرض إليه اجتهاداً ولا غيره، بل يحمله على المعنى الذي ورد ولا يتعداه، والتأويل ما استنبطه العلماء العاملون لمعاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم» «٣».

وهذا مواقف لمذهب أبي نصر القشيري (ت: ٥١٤هـ) الذي يعتبر التفسير مقصوراً على الاتباع والسماع. والاستنباط مما يتعلق بالتأويل «٤».

وإليه يميل الزركشى ويلخص أسباب التفريق بين التفسير والتأويل بقوله: «وكان السبب في اصطلاح بعضهم على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحمل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط» «٥».

ورجحه من المتأخرين عبد العزيز السيد الأهل، واعتبر دلالة التفسير

(١) الزركشى، البرهان: ١٥٠ / ٢.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن: ١٧٣.

(٣) السيوطي، الاتقان: ١٦٨ / ٤ و ما بعدها.

(٤) الزركشى، البرهان: ١٥٠ / ٢ + السيوطي، الاتقان: ١٦٨ / ٤.

(٥) الزركشى، البرهان: ١٧٢ / ٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣

قطعية، ودلالة التأويل ظنية، لأن الأولى قائمة على النص المأثور، والثانية على الاجتهاد الظني، قال: «إن التفسير نصوص قالها الرسول،

و إن التأويل هو كل ما تطرح إليه الظن» (١).

هذه هي مذاهب القوم و زبدتها في كشف الفروق المميزة للتفسير عن التأويل، و الذي أميل إليه، و الله العالم. أن التفسير هو ما ورد من تعليل الظواهر، و كشف الألفاظ، مأثورا عن المعصوم بحيث يطمئن بصحته، و يحقق دلالة لفظ القرآن على المعنى المراد، فإن لم يؤثر به شيء عن المعصوم، فما دلت عليه اللغة و أيدته موافقات الشرع الشريف. و أما التأويل فهو ما لم يكن مقطوعا به، و كان مرددا بين عدة وجوه محتملة، فيؤخذ بأقواها حجة، أبرمها دليلا، فيوجه على المعنى على أساس الفهم، و اللغة، و أعمال الفكر. و على هذا، فيكون التفسير أدلّ على المعنى الحقيقي من التأويل، لأن التفسير لا يميل إلى الاحتمال المرجح من عدة وجوه، بينما التأويل يسيغ توجيه اللفظ إلى معنى مردد بين عدة معانٍ مختلفة يستنبط بما توافر من الأدلة، قد يدل على المراد من قوله تعالى و قد لا يبدل، و لكنه أمر محتمل.

و يبدو من خلال هذه المقارنة: أن التفسير ما كانت دلالاته قطعية، و أن التأويل ما كانت دلالاته ظنية. و هنا ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمة في الموضوع هي: أن التأويل إذا كان صادرا عن المعصوم فيعود التأويل تفسيرا لأنه يكشف عن مراد الله تعالى في كتابه، و تكون دلالاته في هذا الملحظ بالذات دلالة قطعية.

### أهمية التفسير:

القرآن باعتباره كتاب هداية و تشريع دولة، له ملامح خاصة به،

(١) عبد العزيز السيد الأهل، من إشارات العلوم في القرآن الكريم: ٦٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤

و سمات متعددة يتميز بها، يمكن الإشارة إلى بعضها بالمعالم الآتية:

- ١- إنه كتاب إلهي صادر عن الغيب.
- ٢- إنه معجزة تحدى بها الله الأمم و الشعوب و القبائل بما جاءت به من حسن النظم و التأليف، و بلاغة الفن القولي، و كشف الغيب من المجهول، و إبانة الشرائع و الاحكام، و سرد قصص و أحاديث الماضين، و إنبائه عما وقع و سيقع من الأحداث.
- ٣- إن العمل به يمتد منذ نزوله إلى يوم القيامة دون ريب أو تردد، فحلال محمد صلى الله عليه و آله و سلم حلال إلى يوم القيامة، و حرامه حرام إلى يوم القيامة، فليس لأحد أن يضيف له ما ليس فيه، أو يحذف منه ما هو فيه.
- ٤- إنه و إن كان عربي النص، إلا- أنه عالمي الدلالة، و لا يختص بأمة دون أخرى، و لا بزمن دون الأزمان، فتعدى بذلك حدود الزمان و المكان، و تخطى المناخ و التاريخي و الاقليمي بحياة الإنسانية ليستوعبها كلها.
- ٥- إنه نزل بلغة يحتمل لفظها الواحد، أو أكثر ألفاظها، أكثر من معنى، و أشمل من تفسير، مما فتح حياة متميزة في العقلية اللغوية، اتسعت لكثير من الاجتهادات و الدرايات و المعارف.
- ٦- إنه تميز بذائقة اسلوبية ارتفعت به عن مستوى النشر و الشعر، فلا هو نثر على ما تعارفت عليه أصول النثر، و إن اشتمل على أفضلها صياغة، و لا هو شعر على ما تحتمه ضرورات الشعر، و إن استوعب جميع أوزان الشعر العربي، بل هو فن قائم بذاته سمي بالقرآن، فهو قرآن و كفى.

٧- إن هذا القرآن قد تمخض عن أصول قد تمخض عن أصول تعبيرية جديدة أقامت البيان العربي على مخزون جديد من الفن القولي، و أثر في جملة من الأحاديث و المخاطبات و الفنون، فكان مصدرا جديدا للتراث في اللغة و البيان، فنهل العرب من روافده، و

وقف الناس حيارى أمام جودته، و لم يخضع بمفهومه لمقاييس النقد الأدبي عند العرب، من حيث إصدار الأحكام، و تحديد الخصائص، و توجيه الاتهامات، لأنه نسيج وحده.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥

٨- و فضلا على ما تقدم يجد الباحث في القرآن العظيم ثقافة موسوعية على نحو خاص من العرض و المعالجة و التشريع. فقد تحدث عن الأحوال الشخصية: في الزواج و الطلاق و النفقة و الموارث، و أحكام الأولاد، و الوصايا و الحدود و الديات و الجروح و القصاص بما لا عهد فيه لأعرق الأمم تاريخا، و أعمقها تفقها، ثم تكفل ببيان فروض و واجبات و طقوس منظمة ضمن الحياة اليومية كالصلاة، و في بعض الشهور كالصوم و الحج و العمرة، و في خلال السنة كالزكاة و الخمس في المحاصيل و الغنائم، و كانت السنة الشريفة مبينة لمجملها، و متكفلة بتفصيلها.

فإذا تركنا هذا الجانب و درسنا القرآن موضوعيا و تاريخيا وجدناه قد اشتمل على المتشابه من الألفاظ، و المحكم من التشريع، و الناسخ و المنسوخ، و المجمل و المفصل، و المبهم و المبين، و العام و الخاص، و المطلق و المقيد، و الظاهر و ما وراء الظاهر، فيد الله و عينه و وجهه و عرشه و كرسيه و استوائه و مجيئه، و الحروف الهجائية المقطعة في فواتح بعض سوره، كل أولئك بحاجة إلى الكشف و الايضاح. و الألفاظ المتلاحقة كالحميا و الفخار و التراب و الطين اللالزب في الأصل التكويني للإنسان مما يدعو إلى التفسير و البيان. و آية النجوى و ناسخها، و القتال و مراحلها و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و شرائطهما، و الجهاد في سبيل الله و أضراب ذلك مما ينبغي الإبانة عنه و الإظهار له. فإذا دعنا هذا و استقبلنا الإشارات البلاغية التي لا يستطيع استخراج كنوزها إلا من أوتي نصيبا و افرا من العلم، يكشف به و الحدس الاستعاري، و الاستعمال المجازي، و التفنن البياني، و البعد الرمزي، و الحس التشبيهي، تأكدت لنا أهمية التفسير و مدى الحاجة إليه. لهذا كانت مهمة التفسير مهمة شاقه و مضيئة، إذ لا بد للمفسر من الاحاطة بشتى الفنون، و الخوض بجمله من المعارف، و التروذ بمختلف الثقافات.

و قد أعار الأقدمون التفسير أهميته، و أعربوا عن ذلك بكثير من المأثور بأقوالهم، و في طليعه من أشار إلى ذلك بجوامع كلمه سيدنا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقد روى عنه أنه قال: «أعربوا القرآن و التمسوا غرائب» (١).

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ١٣/١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦

و قد قال أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام: «القرآن ظاهرة أنيق، و باطنه عميق، لا تفنى عجائبه، و لا تنقضى غرائب» (١). و إنما يكشف عن باطن القرآن بتفسيره، و إنما تلمس غرائبه و عجائبه بيانه و إيضاحه و تيسيره. و عن ابن عباس «الذي يقرأ القرآن و لا يحسن تفسيره كالأعرابي يهد الشعر هذا» (٢).

و روى عن سعيد بن جبیر أنه قال: «من قرأ القرآن و لم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابي» (٣) لأن قراءة القرآن مشروطة بالتدبر، و التدبر لا يتأتى إلا بمعرفة معانيه على حقيقتها، و معرفة ذلك إنما تتم بالتفسير. لهذا كان علم التفسير كما قال عنها الأصهباني:

«أشرف صناعة يتعاطاها الانسان» (٤) و العلوم إنما تتميز أهميتها بشرف موضوعها، و جهة غرضها، و شدة الحاجة إليها، و إذا عرف ذلك فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث. أما من جهة الموضوع: فإن موضوع القرآن كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، و معدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، و لا تنقضى عجائبه، و أما من جهة الغرض: فلأن الغرض منه هو الاعتصاب بالعروة الوثقى، و الوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى. و أما من جهة شدة الحاجة إليه: فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو أجلي مفتقر إلى العلوم الشرعية، و المعارف الدينية، و هي متوقفة



على العلم بكتاب الله تعالى «٥».

و هناك ناحية مهمة تكشف عن أهمية التفسير اليوم و الحاجة إليه، هي: أن القرآن حينما نزل على النبي صلى الله عليه و آله و سلم كانت سليقة العرب متسقة، و مداركهم متفتحة، و كان أمر إدراك القرآن لا يحتاج إلى كثير عناء،

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٩/١.

(٢) السيوطي، الاتقان: في علوم القرآن: ١٧٢/٤.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن: ١٩٣.

(٤) السيوطي، الاتقان: ١٧٣/٤.

(٥) المصدر نفسه، الجزء و الصفحة.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧

فيستدلون عليه بالسؤال و التلقى، و يعرفون جزءا منه بقرائن الأحوال، و يتوصلون لمعرفة ألفاظه و كشف معانيه و تحليل مضامينه بيسر، نظرا لقربهم من النبي صلى الله عليه و آله و سلم و من الأئمة عليهم السلام و من الصحابة و التابعين (رض) أضف له سلاسة اللغة و وحدة العرب، أما بعد أن اختلط العرب بغيرهم، و تقادم الزمان بهم، و دخل فيهم من ليس منهم، ففقدت ملكة البيان، و تلكأت مهارات العربي، و ضاعت مميزات العروبة، لهذا فقد تضاعفت أهمية التفسير، و ذلك لاعادة مناخ الفهم الفطري، و إشاعة حياة اللغة، و ضرورة التبصر بالدقائق.

إلا أن الظاهرة الجديرة بالتأمل هي: إن القرآن الكريم قد تنازعت في التفسير عدة مذاهب و مشارب، و امتدت له يد التطور التي مرّ بها المجتمع العربي، فتناولته بالبحث مدارس متفاوت دقة و إخلاصا، و تأثر هذا التناول بثقافة جملة من المفسرين أضفى كل منهم لون ثقافته، و نهج دراسته، على الكتاب الكريم، فأصبح القرآن مجالا رحبا لمختلف الاتجاهات و الفنون و العقائد بما ابتعد به بعضهم عن النهج الموضوعي للتفسير، على أننا لا نفسر ذلك من أغلبهم إلا بسلامة القصد، و حسن النية، و إنما الأعمال بالنيات.

و مع هذا التشعب في التفسير، و التجوز بمذاهبه و مناهجه، فأهميته تقتضي أن تتضافر الجهود البناءة في نخل أعمال القدامى، و برامجهم التفسيرية، و الاتجاه بها و جهة جديدة في التفسير تملئها حاجة فهم القرآن إلى المزيد من الدراسات الأسلوبية و الأدبية و النقدية في ضوء المفاهيم الحديثة لتفسير النصوص الراقية، فقد تحدث الأقدمون عن اللفظ باعتباره ظاهرة لغوية، و عن المعنى باعتباره ظاهرة فكرية، إلا- أنهم طالما أغفلوا العلاقة بين اللفظ و المعنى في كشف العمق الموضوعي و الفن الجمالي في النصوص القرآنية، بينما التطلع بهذه الذائقة للنصوص يعني بتحليلها تكامليا، و يتسم بمزية الشمول و الاحاطة و الاستقصاء، و هو ما ندعو إليه بهذه الدراسة.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨

### أقسام التفسير:

و المراد بها معاني القرآن القابلة للتفسير، أو الراضة له، أو المتوافقة عنده، و ليس المراد بها أنواعه أو مناهجه، بل هي تبين لمواطن الآيات التي تفسر، و الآيات التي لا يعلمها إلا الله، فهي أقرب إلى الوجوه منها إلى الأقسام. و قد حددها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) بثلاثة أقسام هي: ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان رسول الله، و ما لا يعلم تأويله إلا بالله، و ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن «١».

و الطبري في هذا عيال على ابن عباس في تقسيمه لها يقول ابن عباس (ت: ٦٨ هـ) «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من

كلامها، و تفسير لا يعذر أحد بجهالته، و تفسير يعلمه العلماء خاصة، و تفسير لا يعلمه إلا الله» (٢).  
 و قد تعقب بدر الدين الزركشى (ت: ٧٩٤هـ) هذا التقسيم فاعتبره صحيحا، و أرجع الذى تعرفه العرب فى لسانها إلى اللغة و الأعراب،  
 فما كان من التفسير راجعا إلى هذا القسم فسييل المفسر التوقف فيه على ما ورد فى لسان العرب.  
 و الثانى: ما لا يعذر أحد بجهله، و هو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام، و دلائل التوحيد، و كل  
 لفظ أفاد معنى واحدا جليا لا سواه يعلم أنه مراد الله تعالى.  
 الثالث: و هو الرابع فى تقسيم ابن عباس- لا يعلمه إلا الله تعالى.  
 فهو ما يجرى الغيوب، كالأى المتضمنة قيام الساعة، و نزول الغيث، و ما فى الأرحام، و تفسير الروح، و الحروف المتقطعة على وجه، و  
 كل متشابه فى القرآن عند أهل الحق فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره.  
 و الرابع: و هو الثالث فى تقسيم ابن عباس، ما يرجع إلى اجتهاد

(١) الطبرى، جامع البيان: ٧٤-٧٥.

(٢) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ١٦٤/٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩

العلماء، و هو الذى يغلب على إطلاق التأويل، و هو صرف اللفظ إلى ما يؤول إليه، فالمفسر نقل، و المؤول مستنبط، و ذلك كاستنباط  
 الأحكام، و بيان المجمل، و تخصيص العموم «١».

و نحن نوافق الزركشى على هذا التعليل كما سيأتى بيان ذلك لدى التعقيب على تقسيم الشيخ الطوسى هذا، يقول الطوسى (ت: ٤٦٠  
 هـ) و الذى نقول به: أن معانى القرآن على أربعة أقسام:

أحدها: ما اختص به الله تعالى بالعلم، فلا- يجوز لأحد تكليف القول فيه، و لا- تعاطى معرفته ...، مثل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ  
 السَّاعَةِ «٢».

و ثانيها: ما كان مطابقا لمعناه، فكل من عرف اللغة التى خوطب بها عرف معناه، مثل قوله تعالى: وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا  
 بِالْحَقِّ «٣».

و ثالثها: ما هو مجمل لا يبنى ظاهره عن المراد به مفصلا، مثل قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ «٤».

و مثل قوله تعالى: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا «٥».

و قوله تعالى: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ «٦».

و قوله تعالى: فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ «٧».

فإن تفصيل أعداد الصلاة، و عدد ركعاتها، و تفصيل مناسك الحج و شروحه، و مقادير النصاب فى الزكاة، لا يمكن استخراجها إلا  
 ببيان النبى صلى الله عليه و آله و سلم و وحى من جهة الله تعالى، فتكلف القول فى ذلك خطأ ممنوع

(١) ظ: الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ١٦٤/٢-١٦٦.

(٢) لقمان: ٣٤.

(٣) الانعام: ١٥١.

(٤) البقرة: ٤٣.

(٥) آل عمران: ٩٧.

(٦) الانعام: ١٤١.

(٧) المعارج: ٢٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٠

منه، يمكن أن تكون الأخبار متناولة له.

ورابعها: ما كان اللفظ مشتركاً بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن أن يكون كل واحد منهما مراداً، فإنه لا ينبغي أن يقدم أحد فيقول أن مراد الله فيه بعض ما يحتمل إلا بقول نبي، أو إمام معصوم، ومتى كان اللفظ مشتركاً بين شيئين أو ما زاد عليهما، و دل الدليل أنه لا يجوز أن يريد إلا وجهاً واحداً، أجاز أن يقال أنه هو المراد «١».

والحق أن تقسيم وجوه المعاني المفسرة عند الشيخ الطوسي فيه كثير من الضبط والدقة، إذا أبان الوجوه التي يمكن أن تفسر، والوجوه التي لا تفسر، مع موارد الحيطة والتوقف.

وقد حدد بضوابط ما اختص به الله تعالى بالعلم، فلا يجوز لأحد التمثل فيه، أو الخوض بغماره، كالنفخ بالصور، وتحديد الأعمار، و علم ما في الأرحام، و نزول الغيث، و تبديل الأرض و السماء، و تكوير الشمس، و انتشار الكواكب، و دك الأرض، و تفجير البحار و تسجيرها، و أمثال ذلك مما هو مختص بعلم الغيب، أو هو في اللوح المحفوظ. مما لم يطلع الله عليه أحداً من عباده، فالخوض بهذا الجانب مشكل شرعاً، و لا يدعمه مستند نصي أو شرعي أو تاريخي.

و ما تداول بين أهل اللغة و المعرفة و البيان إدراك أسرارهم، و مطابقتهم لفظه لمعناه، فلا مانع من التعرض لتفسيره، و به تبدو براعة المفسر، و دقة إشارته، فيدرك به من أعيان المسميات ما يدل على حقائق الأشياء، و يستنبط من دلائل الألفاظ ما يصل به إلى المعنى المراد.

و أما ما ورد في القرآن إجماله، فتبينه مختص بالسنة القولية أو العملية أو التقريرية، و ليس لأحد أن يضيف إلى ذلك ما ليس منه لأنها مسائل توقيفية غير خاضعة للاجتهاد و لا قابلة للتأويل.

و أما ما كان اللفظ فيه مشتركاً بين عدة معان، فيجب التريث عنده لاكتشاف المعنى المراد، و استقراء المجهول، و ذلك باستجلاء الدلائل

(١) الطوسي، التبيان: ١ / ٦٠٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣١

الحالية و المقالية المؤكدة له، و لا يجوز تخصيصه بمعنى دون آخر، إلا بنص من معصوم، بل المفروض بحث جميع الوجوه المحتملة حتى يندمج الأمر المراد في جملة هذه الوجوه، إلا ما دل عليه الدليل أنه المراد بعينه، فيختص به وحده.

و فيما قسم القدامى نلمس وجوه التفسير المحتملة و المتيقنة التي تواضعوا عليها و على تسميتها، بينما نجد المحدثين يميلون إلى تقسيم آخر، يدور حول مرونة التفسير حيناً، و آداب المفسر حيناً آخر. فالدكتور بكرى شيخ أمين يقسم التفسير إلى نوعين:

الأول: تفسير جاف لا يتجاوز حد الألفاظ، و إعراب و بيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية، و إشارات فنية، و هذا التفسير أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير و بيان مراد الله من هداياته.

الثاني: تفسير يجاوز هذه الحدود، و يجعل هدفه الأعلى تجلية هدايات القرآن و تعاليمه، و حكم الله فيما شرع للناس في القرآن على وجه يجتذب الأرواح، و يفتح القلوب، و يدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله، و هذا هو الخلق باسم التفسير «١».

و يبدو من هذا التقسيم تحليل الكاتب لنوعية التفسير بقدر ما يتعلق الأمر بيسره أو جفافه، دون النظر إلى ما يفسر منه، و ما يترك تفسيره، و يوكل أمره إلى الله كالمشابه، بينما نجد الأستاذ الشيخ محمد عبده يتجه اتجاهاً آخر يقسم بموجبه التفسير إلى مرتبتين:

عليا و دنيا.

فالمرتبة العليا لا تتم عنده إلا بأمر:

١- فهم حقائق الألفاظ المفردة.

٢- معرفة الأساليب الرفيعة.

٣- علم أحوال البشر.

٤- العلم بوجه هداية القرآن للبشرية.

(١) بكرى أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٠١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٢

٥- العلم بسيرة النبي و أصحابه.

و أما المرتبة الدنيا: فهي أن يبين بالاجمال ما يشرب قلبه من عظمة الله و تنزيهه، و بصرف النفس عن الشر «١».

و الشيخ محمد عبده بهذا يتكلم عن شروط المفسر و آدابه لا عن أقسام التفسير التي تحدث عنها القدامى.

و هناك تقسيم آخر للآيات القابلة للتفسير، أو الراضة له، أو المتوقفة عنده، و هذا التقسيم يدور حول أقسام القرآن، فقد ذكر الشيخ

الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) أن جميع أقسام القرآن لا يخلو من ستة: محكم، و متشابه، و ناسخ، و منسوخ، و خاص، و عام.

فالمحكم ما أنبأ لفظه عن معناه من غير اعتبار أمر ينضم إليه سواء كان اللفظ لغويا أو عرفيا، و لا يحتاج إلى ضروب من التأويل،

كقوله تعالى: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا «٢» و قوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ «١» «٣».

و قوله تعالى: وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٥٦» «٤».

و المتشابه ما كان المراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج إلى دليل، فهو يحتمل أكثر من أمر و معنى، و إنما سمي متشابها لاشتباه المراد

منه بما ليس بمراد كقوله تعالى: يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ «٥».

و قوله تعالى: وَ السَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ «٦» و أمثال ذلك مما لا يحمل على ظاهره.

و الناسخ هو الحكم الثابت بالنص الشرعي بزوال أمر الحكم المنسوخ «٧».

(١) ظ: تفسير المنار بتصرف و اختصار.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) الاخلاص: ١.

(٤) الذاريات: ٥٦.

(٥) الزمر: ٥٦.

(٦) الزمر: ٦٧.

(٧) ظ: الطوسي، التبيان: ١/ ٩-١٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٣

و المنسوخ هو الحكم المرفوع بعد نزوله، و يمثل لهما معا يأتي النجوى، فقد نزل حكم الصدقة عند مناجاة النبي صلى الله عليه و آله

و سلم و عمل بذلك الامام على عليه السلام كما هو ثابت في التواتر، و رفع هذا الحكم، فالآية الأولى منسوخة بالآية الثانية قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)

(١).

فقد ذهب أكثر العلماء إلى نسخها بقوله تعالى: أَسْفَقْتُمْ أَنْ تُتَدَمُّوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) «٢».

و أما العام، فهو كل لفظ يستغرق أفراده من غير حصر و أدواته كثيرة، و أبرزها كل كما في قوله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) «٣».

و من ألفاظ العموم: الذى، التى، و تثنيهما و جمعهما، و أى، ما، من، شرطا و استفهاما موصولا، و الجمع المضاف، و اسم الجنس المضاف، و المعرف بأل، و النكرة فى سياق النفي و النهى «٤».

و أما الخاص، فما خصص فيه العام، إذ ما من عام إلا و قد خص، و مخصصه إما متصل و إما منفصل.

فالم متصل خمسة: الاستثناء كقوله كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ (٥) و الوصف كقوله تعالى وَ رَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ (٦).

و الشرط كقوله تعالى:

(١) المجادلة: ١٢.

(٢) المجادلة: ١٣.

(٣) الرحمن: ٢٦.

(٤) ظ: السيوطى، الاتقان: ٣/ ٤٣.

(٥) القصص: ٨٨.

(٦) النساء: ٢٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٤

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ (١) و الغاية، كقوله تعالى: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ (٢) و يدل البعض من الكل كقوله: وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٣).

و المخصص المنفصل كآية الأخرى تخصص فى محل آخر، أو كتخصيص الكتاب بالسنة «٤».

و الحق أن هذه الأقسام ترجع إلى القرآن، و لا ترجع إلى التفسير، ففى القرآن محكم و متشابه، و ليس فى التفسير محكم و متشابه، و فى القرآن ناسخ و منسوخ، و ليس فى التفسير ناسخ و منسوخ، فما تقدم عبارة عن أقسام القرآن إذا فسر، فيجب الالتفات إلى هذه التقسيمات، و لا علاقة لهذا بتقسيم التفسير، و إنما ذكرناه لرفع الإبهام و الالتباس بين القسمين، فلا يخلط بين أقسام القرآن و أقسام التفسير، و الله المستعان.

(١) البقرة: ١٨٠.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) آل عمران: ٩٧.

(٤) ظ: الطوسى، التبيان فى علوم القرآن: ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٥

## إشارة

١- الآداب الموضوعية.

٢- الآداب النفسية.

٣- الآداب الفنية.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٧

## الآداب الموضوعية:

حينما يحاول المفسر تناول القرآن الكريم بالبحث و التمحيص يرى نفسه أمام كتاب مقدس فريد، جاء لوحده الأمة، و جمع المسلمين، و لم الشعث، و رأب الصدع، و توحيد الكلمة، و هى مفردات حيوية قام على أساسها القرآن، و تفتحت بها آياته، فهو إذن أمام أمانة يأبى حملها إلا- المخلصون ممن شرحوا بالقرآن صدرا، و تفتحوا للاسلام مناخا، و هو بإزاء حياة جديدة تتسع لألوان الاحاطة و الشمول، و تضيق بخلفية الجمود و التخلف، فالهموم الصغيرة و الأوهام العالقة لا يجدان مسارا صالحا فى بيئة القرآن الكريم لتفرغ على تفسيره، و يصب حميمها فى رافده، و حينما ينظر المفسر إلى حالة المسلمين اليوم فى التفكك و التواكل و الانقسام يجد لزاما عليه أن يعير هذه المسألة أهميتها الخاصة، فلا يصلح آخر المسلمين إلا بما صلح به أولهم، و هو السير بهدى القرآن العظيم، و حينما يرصد الكاشف عن أسرار القرآن: الحياة المادية المحضه و يتعرف الصراع الاقتصادى المرير، يدرك جيدا أن نفحة من الأثر الروحى قد تشق طريقها باطمئنان رتيب إلى هذا الأفق و الخائق لتتقذه من الانجراف، و تتداركه من الانحراف، كل هذه العوالم و العوامل و غيرها مما لم يذكر أدلة مقنعة تقضى بتكليف الجهد الذهنى و صرف النظر العقلى إلى بلوغ العمق الموضوعى للقرآن. و العمق الموضوعى لا- يقاربه إلا الباحث الموضوعى، و الباحث الموضوعى لا يكون كذلك حتى يتخلى عن مؤثرات البيئة، و شوائب العاطفة، و حتى يتحلى بالنزاهة من مخلفات التعقيد و الجنوح و الهوى، ل يتم له السير برتابه و اتزان عظيمين يصارعان التزق و إلحاح

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٨

النفس، فإذا تحقق هذا التوجه الخالص تحققت الآداب الموضوعية للتفسير، و برزت الحقائق العلمية مجردة عن التعصب، و بعيدة عن الاتجاه الأنانى الفردى، و بذلك يكون أداء الأمانة و النهوض بثقلها، و حينئذ يفتح الله على عبده مغاليق الأمور، و يستنزل شآبيب المعرفة، و يحيط الباحث بما لم يحط به غيره خبرا.

إن الموضوعية فى تفسير القرآن شرط أساسى و ليس شرطا احترازيا، فهو أساسى لتلقى معانى القرآن كما أرادها الله تعالى، و هو احترازى من النزوع إلى الهوى، و الاغراق فى الخيال، و التعرض لشطحات الميول، فالمتلقى يريد معرفة هذا النص على حقيقته و الغوص إلى أعماقه، و المفسر الحق هو الباحث الذى يحقق هذه الرغبة الملحة، و ينهض بهذه المهمة الصعبة، متطلعا إلى الأسرار القرآنية ناصعة أنيقة، ليحوز رضا الله تعالى، و يظفر بإقبال الناس، و يبلغ هدفه الأسنى.

أما التعدى على جمال القرآن و وحدته الفنية، بالايعال فى النزاعات التقليدية، و الأصحاح بمتاهات الخصومات اللامحدودة، فأمر ترفضه عقلية المثقف العصرى، و تلفظه روحية البحث الموضوعى، و حسبك فى كتب الكلام و مصنفات الاحتجاج و صنوف المقالات غنية عن ذلك، و كفاية لا فريد عليها.

و قد يبدو هذا الملحظ- أول الأمر- تعجيزيا و ليس الأمر كذلك، فإن قيل ما السبيل فى تفسير الآيات التى يستفيد منها أهل المذاهب أدلتهم و أصول عقائدهم فيجاب: إن سرد ذلك مجردا عن نزعة التعصب لا يعتبر من هذا الباب، و عرض جميع ذلك باعتباره منبعا ثرا من منابع التشريع الإسلامى، لا يعنى جرّ القرآن إلى ما ليس منه، بل هو أمر يدعو إلى الاعتزاز بكونه ثروة علمية تضاف إلى التراث، و لكن الأمر يختلف جذريا إذا سردت الصفحات و سودت الأوراق على أن المراد هذا دون ذاك تنكيلا بمذهب، أو اعتدادا برأى

دون برهان، فهذا ما لا يسمح به أدبيا و موضوعيا في تفسير القرآن العظيم، لأن هذا الملحظ كشف عن مراد نفسه، و تفسير القرآن كشف عن مراد الله تعالى، و هذا لا يمانع أن يختار رأيا يمثل و جهة نظره بعد التمحيص و إعمال الفكر و الاجتهاد، يؤكد فيه ما يستفيده بالذات

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٣٩

دون قطع على الله أن هذا هو المراد دون غيره من كلام الله، و إذا تخرج المفسر في هذا الاطار، و التخرج هنا ضرورة قائمة كان ما يتوصل إليه من التفسير دليلا على الكشف و العرض و البيان، و ليس مجالا للهوى و المذهبية، و بذلك فلا يعدّ متعديا لحدود التفسير الموضوعي، و إنما يعتبر عارضا لبعض الوجوه المحتملة دون قطع بأحدها، إذ قد يكون المراد الحقيقي غيرها، إلا أنه قد اجتهد ضمن الضوابط و الموازين العقلية أو الفنية أو اللغوية باختيار الأفضل، أو بإثبات الأظهر.

و قد تكون هذه المهمة عسيرة لا تتهيا، و أداؤها صعبا لا يركب، و قد يكون الأمر كذلك، و لكن نظرة فاحصية إلى ما أصاب المسلمين من الخور و الانهيار تدعو إلى ضرورة تعبيد هذا المنهج، و تخفف من وطأة مشاقه و متاعبه، فقد شجعت لغة الاختلاف المتعمد و الهوى المتبع ألسنة المستشرقين و أعداء الاسلام للنيل من كرامة الاسلام و عظمة القرآن، و كان الطريق أمامهم سهلا و يسرا، إذ استغلوا هذا الخلاف لنفث سمومهم، و نشر دعاوهم الباطلة ضد الاسلام و المسلمين من جهة، و ضد القرآن الكريم من جهة ثانية حتى تجرأ بعضهم فذهب إلى القول بتحريف القرآن نتيجة نقطة الضعف هذه في عدم الموضوعية الفكرية للتفسير، و على هذا فالالتزام بالموضوعية تنفي هذه الشبه من جهة، و تجعل المفسر خالص العمل لوجهه تعالى من جهة أخرى، و تخلص تفسير القرآن من التبعية من جهة ثالثة، و عند ذاك يجزم المتلقى للتفسير بسلامة قصد المفسر و نبل غايته، فيستقبل ذلك استقبالا تلقائيا يحجب إلى ذاتقته القرآن، و يعينه على الاستجابة الهادفة لأغراضه و مراميه.

إن لغة التهجم و الاتهام التي نلمسها في كثير من أقوال المفسرين مع القطع بأنها لا تجدى نفعاً، و لا تغير معتقدا، و لا تثنى إنسانا عن رأى يتبناه: فإنها لا تمثل القرآن، و أخلاق القرآن، و لغة القرآن، بل القرآن نفسه يشن حربا شعواء على هذا النوع من الاسفاف و اللامبالاة بشعور الآخرين مخطئين كانوا أو مصيبين، فضلا عن كونه يدفع بالشباب إلى الهروب من حضيرة الدين، و التنكر لمبادئ القرآن، فتحترضه البدع، و تتلاقفه الضلالات.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٠

إذن هذا المنهج المرفوض عالميا و قرانيا و أخلاقيا قد ساعد مساعده فاعله على الابتعاد عن الصواب، و التوقف عند طريق موصده، و هو بخلاف لين الجانب و لغة الرفق و سيما التوجيه النابعة من صميم مبادئ القرآن، و كلها إشارات موحية يألفها النهج الموضوعي للتفسير، و يدعو إليها الدين و الخلق الرصين.

و هناك ملحظ آخر جدير بالأهمية و الاعتداد، و قد يتعلق هامشيا بهذا النهج الموضوعي، و قد يلتصق به جذريا في مجالات شتى، إلا و هو الحفاظ على سلامة اللغة العربية من التدهور و التشويه و الضياع، فهي لغة كتاب مقدس، و الحفاظ عليها يرتبط بالحفاظ على هذا الكتاب تاريخيا، و هذا التاريخ المشترك يشكل مظهرا اجتماعيا متلامزا، فالتقصير في جانب يطبع أثره على الجانب الآخر، و قد مرت اللغة العربية بظروف و بيئات مختلفة، خضعت معها إلى عوامل اللهجات المتباينة، و امتزجت بها ثقافة اللغات الأخرى، و تطور من مفرداتها ما تطور، و بقي ما بقي، و هذه عوامل مترامية الأطراف كان من الممكن أن تخضع اللغة فيها لكثير من مظاهر التبدل و التغيير و أن تتعرض مفرداتها لشيء من النسخ أو التجوز، و مع هذا فقد بقيت هذه اللغة سليمة لم تتأثر بعوامل الانحطاط و الضعف، و لم تتلصق مسيرتها التاريخية بوهن أو خور، و سبب هذا البقاء و السيورة يرجع في أغلب خطوطه إلى بقاء القرآن، و الدفاع عن القرآن، و صيانته لغة القرآن، ففي الوقت الذي تتجاوز به هذه اللغة موطنها الأصلي في جزيرة العرب، و تتخطى حدودها الجغرافية فيمتد سلطانها إلى أرجاء فسيحة من شرق الدنيا و غربها فإنها تبقى متميزة بمناخ الصحراء لهجة، و بطابع البداوة مصدرا لأنها اللغة الرسمية

للقرآن، و هو لا- يتهاون في قدسية لغته، و لا- يجد عنها منصرفا فارتبط وجودها بوجوده و رسخ استمرار رقيها باستمراره، و لم يداهما الفناء أو الاضمحلال أو التقلب، في حين تنطوى بهذا و ذاك الأمم و لغاتها، و تتلاشى الشعوب و تراثها، بينما تطوى العربية أمدتها الطويل سليمة متناسفة، و هي تتسم مدارج الخلود فتناطح هجمات الدهر، و لما كان القرآن الكريم معجزة محمد صلى الله عليه و آله و سلم الخالدة و هو مرقوم بهذه اللغة الشريفة فالخلود ملازم لهما رغم عادية الزمن، و هذا أمر يدعو إلى المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤١

الاطمئنان على سلامة اللغة، و أصالة منبتها، و هنا يتجلى أثر تيسير القرآن و فهمه موضوعيا بالكشف عن أسرار العربية و كنوزها، فهو يشد الباحث إليه شدا، و يجزه إلى التعلق به جرا، دون عناء و مشقة، بعيدا عن الحرج و الاستهجان. و مزية التفسير الموضوعي: أن يلتقى الهدف الديني بالهدف الفني، ففي الوقت الذي نحافظ فيه على جوهر القرآن من التمثل، نحافظ أيضا على حقيقة اللغة من الضياع، فتتجمع من هذا و ذاك قوة متجانسة ترعى القرآن و اللغة معا، و تحوطهما بسياج من التحرز و الحفاظ.

لقد سبق في علم الله تعالى شرف اللغة العربية، فشرّف بها نزول القرآن بلغتها، فبقاء العربية منوط ببقاء القرآن، و بقاء القرآن منوط بسلامة تفسيره، و سلامة تفسيره مقترنة بأداب المفسر، و آداب المفسر كما تقتضى الاحاطة و الحذر و اليقظة و العلم، فكذلك تقتضى الموضوعية، و الموضوعية أساس التفسير، و ما سوى ذلك فأهواء تتبع، و مذاهب تبتدع. إن الموضوعية- باختصار- إدراك المسئولية الكبرى التي يضطلع بها المفسر، فلا يحيد عنها، جاعلا الله نصب عينيه، فلا ينحو بكتابه منحى استحسانيا، و لا يذهب به مذهبا ذاتيا، و إنما يكشف به مراد الله قدر المستطاع ليس غير.

## الأداب النفسية:

### إشارة

و المراد بالأداب النفسية مجموعة الصفات و الملكات التي يتنامى بها الكمال الذاتي في تهذيب النفس و صيانتها عن الزيغ و الانحراف بحيث يطمئن معها إلى الجانب الروحي عند الانسان فضلا عما يتمتع به من حيطة و حذر، و ما يناسب ذلك إصلاح السريرة، و لزوم الطاعة و نقاء الضمير، مما يهيئ للنفس التدبير في القرآن، و التفكير في أسرارها، من صحة في الاعتقاد، و إخلاص في النية، و تفويض الأمور إلى الله، و طلب العون منه في مجال المعرفة و الكشف و الاستزادة العلمية. إن ما يكون بهذا السبيل يمكن إجمال معالمه بالمؤشرات الآتية على سبيل المثال و النموذج لا الحصر و الاستقصاء.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٢

## أ- صحة الاعتقاد:

قال أبو طالب الطبري متحدثا عن جزء من شروط التفسير: «اعلم أن من شروطه صحة الاعتقاد أولا و لزوم سنة الدين، فإن من كان مغموضا عليه في دينه لا- يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين، ثم لا- يؤتمن من الدين على الأخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الأخبار عن أسرار الله تعالى، و لأنه لا يؤمن إن كان متهما بالالحاد أن يبغى الفتنة، و يغوى الناس بليته و خداعه» (١).

و هذا أمر ضروري تمليه طبيعة الإيمان بأن القرآن هو الكتاب المنزل على نبيه المرسل دون زيادة أو نقصان، و النظر إليه بمنظور مقدس، ليكون الباحث في مضامينه مفسرا جادا، تنبعث عقيدته من داخل النفس الإنسانية فيصبح ما يخطه يمينه نابعا من صميم ضميره، حقيقة لا تقبل جدلا، و عقيدة لا يداخلها ريب، يعمل بهديها و يستضاء بألقها. أما الغوغائية في التفسير و التي لا تمت إلى



العقيدة بصله الوعى الهادف فهى نوع من الهذر و الثرثرة يعبر بهما عن ثقافة سطحية تعتمد التحريف تارة، و التضليل تارة أخرى، و يكون همها خلط الحابل بالنابل، و هدفها إلقاء الحبل على الغارب، دون أداء أمانة أو تحمل مسئولية، و هنا يكمن الخطر الهدام الذى يهدد تراث الأمة و يستهدف مجدها الشامخ، لهذا يجب مراعاة ذلك بل مجابته بالتحرز من كيد المنحرفين، و جملة من شبهات المستشرقين، و كثير من حملات ذوى العاهات النفسية و الفكرية ممن يديفون السم بالعسل، فلا تنجلي الرغوة إلا عن الجفاء، فلا الحقائق سليمة، و لا الوقائع مصونة، بل التشويه و التحريف هو المؤلف و هو الرائج، و القرآن كتاب دين و لا يؤخذ هذا الدين عن أعدائه، و لا يستضاء بمعرفته بمنظار خصومه، ففاقد الشئ لا يعطيه، و الغارق فى الضلال لا ينقذ منه، و الهداية أساس هذا الاعتقاد، و الركون إلى الله طريق تلك الهداية، و لا يهب ذلك إلا من تمتع بخصال تقربه من الله زلفى، و تقربه إليه وسيلة، أما إذا كان الأساس خاويًا لا يستند إلى حصانه، فسيكون النموذج القائم قابلاً للانهار، و الأمور تقاس

(١) السيوطى، الاتقان: ١٧٤ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٣

بأشباها و نظائرها. و من خصائص القرآن أنه أساس الاعتقاد الصالح، و طريق الهداية اللاب، فالتمسك به يؤمن معه من الضلال، و الوقوف عنده سبيل النجاة، و قد أشار أمير المؤمنين الامام على عليه السلام إلى هذه الحقيقة منذ عهد مبكر فقال: «و عليكم بكتاب الله، فإنه الحبل المتين، و النور المبين، و الشفاء النافع، و الرى النافع، و العصمة للمتمسك، و النجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، و لا يزيغ فيستعتب، لا تخلقه كثرة الرد، و ولوج السمع، من قال به صدق، و من عمل به سبق» (١). و من أجدر من المفسر أخذًا بهذه الحقيقة.

### ب- الإخلاص و التفويض:

و إذا كان الاعتقاد خالصًا من كل شائبة، جاء إخلاص النية مكملًا للنفس الانسانية من كل نقيصة، لا سيما إذا اقترن الاخلاص بالتوكل على الله و التفويض إليه، بتخليص النفس من الآفات و الدواعى، و ليتسم العمل بصحة خاطر و الفطرة، و نقاء القلب و السريرة، و أبرز مظاهر ذلك الحريجة فى الدين، و الورع عن المعاصى، و الزهد فى الدنيا، و التوجه نحو الله فى السراء و الضراء و هذا ما يهب الانسان من المواهب معينًا لا ينضب، فقد ورد فى الأثر: «العلم نور يقذفه الله فى قلب من يشاء» على أن يكون هذا القلب مجانبا لهواه، متبعا لأمر مولاه، متفقا فى الكتاب لله، يعمل بعلمه، و يعلمه غيره، فعن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «من تعلم العلم، و عمل به، و علم لله: دعى فى ملكوت السماوات عظيما، فليل: تعلم لله و عمل لله و علم لله» (٢). و قد روى عن الشافعى قوله: شكوت إلى و كيع سوء حفظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى و أخبرنى بأن العلم نور و نور الله لا يهدى لعاص و قد أورد السيوطى عن بعض الأكابر قوله: «و إنما يخلص له القصد

(١) ابن أبى الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٠٣ / ٩.

(٢) الكلينى، الكافى: ٣٥ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٤

إذ زهد في الدنيا، لأنه إذا رغب فيها لم يؤمن إن يتوسل به إلى عرض يصده عن صواب قصده، و يفسد عليه صحه عمله» (١) و الذي يؤيد هذا النحو و يعلى من شأنه حديث

روى عن الامام جعفر الصادق عن أبيه عن جده عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم ألا أن من زهد في الدنيا، و قصر فيها أمله، أعطاه الله علما بغير تعلم، و هديا بغير هداية، و من رغب في الدنيا و طال فيها أمله: أعمى الله قلبه على قدر رغبته فيها» (٢)

و الزهد من الضروريات للمفسر إذ يكون عازفا عن زخارف الدنيا بعيدا عن التلوث بأوضارها المادية و دوافعها الاجتماعية، و إنما يكون همه التوصل إلى الحق، و مراقبة النفس من الزلل، و إعطاء كل ذى حقه ضمن مقياس واقعى لا زيغ معه و لا انحراف به، و فى هذا الضوء نلمس أصالة

قول الامام الباقر عليه السلام: «إن الفقيه حق الفقيه، الزاهد فى الدنيا، الراغب فى الآخرة، المتمسك بسنة النبى صلى الله عليه وآله و سلم» (٣).

و لا بد من الاشارة أن أبا عمرو عثمان المازنى كان من أوائل العلماء الذين أكدوا على جانبين فى الخصال التى اشترطها فى المفسر، و هذان الجانبان هما الاخلاص و التفويض، بل اشترط على المفسر أن يكون عالما بمدخلهما فقال: «أن يكون عالما بأبواب السر من الاخلاص و التوكل و التفويض و الأذكار الباطنة التى افترضها الله على عباده، و بالالهام و الوسومة، و ما يصلح الأعمال و ما يفسدها، و بآفات الدنيا، و معائب النفس و سبيل التوقى من فسادهما، و أن يكون مفوضا أمره إلى الله تعالى، متضرعا إليه أن يلهمه الرشده و التوفيق، و يحذر الاعجاب بنفسه، و الاتكال على عقله و جودة قريحته، فإن المعجب مخذول» (٤).

و ليس فى هذا التأكيد على الاخلاص و التفويض كثير غرابه، فهما يفتحان على المفسر باب البيان، و يعينان على التدبر و التفكير بالقرآن، و هما باب التفسير.

(١) السيوطى، الاتقان: ١٧٥ / ٤.

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن: ١٧٥.

(٣) الكلينى: الكافى: ٧٠ / ١.

(٤) مقدمتان فى علوم القرآن: ١٧٤ - ١٧٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٥

و حسبك فى كتاب الله غنية بذلك فهو الأصل المتبع قال تعالى:

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (١).

و قال تعالى: وَ أَفْوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢).

و قال تعالى: رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٣).

### ج- التدبر و التفكير:

التدبر فى آيات القرآن، و التفكير بمعانيه و مرامييه، من أبرز سمات المفسر الهادف، فكل آيات القرآن تدعو إلى التدبر، و كل معانيه تستأهل التفكير، و بهما يستعصم المفسر من الخطأ فى التفسير، و يتحرز عن الاسفاف فى التقرير، فتكون أحكامه عن بصيرة، و تصدر آراؤه عن دراية، إذ طبيعة التدبر الواعى و التفكير الجاد مصاحبة التأمل و اليقظة و الترصد، و كل أولئك مؤشرات دقيقة تستفرع

الجهد، و تتحكم في الاجتهاد، و إذا استفرغ المفسر جهده، و أقام على الاجتهاد حقائق ما يتوصل إليه، كانت النتائج أكثر أصالة، و الآراء أسد تصويبا، و وصل التفسير إلى الكشف عن مراد الله.

قال الزركشى (ت: ٧٩٤هـ): أصل الوقوف على معانى القرآن: التدبر و التفكير، و اعلم أنه لا يحصل للناظر معانى الوحي حقيقة، و لا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة، و فى قلبه بدعة أو إصرار على ذنب، أو فى قلبه بدعة كبر أو هوى أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدا على قول مفسر ليس عنده إلا- علم بظاهر، أو يكون راجعا إلى معقوله، و هذه كلها حجب و موانع، و بعضها أوكد من بعض» (٤).

و الزركشى بهذا الحديث يتكأ على التدبر و التفكير فى بيان آداب

(١) الطلاق: ٣.

(٢) المؤمن: ٤٤.

(٣) الممتحنة: ٤.

(٤) الزركشى، البرهان: ٢ / ١٨٠ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٦

المفسر فى نفى البدع، و الاصرار على الذنب، و محاربة الكبر و الهوى و حب الدنيا، و كان عليه أن يضع هذا فى الباب السابق، و الأخرى به هنا أن يتناول مجالات التدبر، و مصادر التفكير من ذهن متفتق، و ذكاء قادر، و محاكمة عقلية، و طول الأناة، و حسن التأتى. و دعوة القرآن صريحة إلى التأمل و التدبر و التفكير، تلمسا لهديته، و تعلقا بمداليه، و حثا على تفهمه العميق. قال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ «١» و قال تعالى فيما اقتص من خبر إنزاله مباركا على نبيه صلى الله عليه و آله و سلم: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ «٢» ثم لينظر هذا المفسر بعد تدبره متفكرا إلى تحدى القرآن للامم عامة و للعرب خاصة وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) «٣» و لننظر بعد هذا إلى لغة القطع الصارمة فى عدم الآتيان بمثله أنى كانت الأسباب قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) «٤».

إن تلبث هذا التحدى الإعجازى لما يشحذ الفكر فى التدبر بمعانى القرآن، و يخرج معه المتأمل بثروة فكرية هائلة، يصل معها إلى طريقة القرآن فى تناوله لتأليف الكلام، و تأنقه فى تركيب الجمل، و دقته فى تخير الألفاظ، و إذا تمرس المفسر هذا المناخ: اكتشف أسلوب القرآن فى العرض و المعالجة و التأليف، و اعتمد منهجه فى النسخ و الصياغة و التصوير، و هذا ما يوقفه على الاحاطة بروائع القرآن الأفرادية و التركيبية، و يبصره بخصائصه الفنية فى التناسق و الايقاع.

إن استجلاء جمال القرآن، و استقراء خفايا مكنوناته، إنما يتأتى فى التدبر القائم على النظر التمحيصى، و فى التفكير الدال على المناظرة

(١) النساء: ٨٢.

(٢) ص: ٢٩.

(٣) البقرة: ٢٣.

(٤) الاسراء: ٨٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٧

الموجهة، فأنت- والحالة هذه- من القرآن في صورة نابضة بجسد لك المعاني محسوسة، وتهيئ لك الألفاظ شاخصة، فتفجر الحكمة من مكنونها، و يفلت الابداع من مخبئه، و يتحقق بذلك التفسير مقترنا بالذائقة الفنية يسرا و دقة و أداء.

#### د- علم الموهبة:

و قد رجح السيوطي (ت: ٩١١هـ) أن يتمتع المفسر نفسيا بعلم الموهبة، و هو ليس من العلوم المكتسبة، و لا- من الفنون التعليمية المحصلة، و إنما المراد به الفيض الرباني و العلم اللدني استنادا إلى قوله تعالى: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» (١) و إليه الإشارة بحديث: «من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم» (٢) و هو بهذا علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم. قال السيوطي: «و لعلك تستشكل علم الموهبة و تقول: هذا شيء ليس في قدرة الانسان، و ليس كما طنتت من الأشكال، و الطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل و الزهد» (٣). و السيوطي هنا يدفع الأشكال في كون هذا العلم ليس بمقدور الانسان، أو من سنخ استطاعته، و يرى تحصيله ممكنا بركوب الدرب، و ذلك باستخلاص الكمالات النفسية من علم يطابق عملا، و زهد يقترن بورع، و تواضع متسم برفق، فهو يشير إلى ترويض الذات على التهذيب، و هذا منطلق شرعي صرح به القرآن الكريم في مجال التواضع و درء التجبر و التكبر، و صرف علوم القرآن و فهمه عن عنهم بقوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (٤). و لعل المراد بعلم الموهبة: الايحاءات التي تعترض خاطر الانسان و تحتشد في ذهنه، فيصيبها في تفسيره دون تلقيها من أحد، أو اكتسابها من

(١) الكهف: ٦٥.

(٢) السيوطي: الاتقان: ١٨٨ / ٤.

(٣) المصدر نفسه: الجزء و الصفحة.

(٤) الاعراف: ١٤٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٨

جهة، بل هي انقداح بالفكر، و بدهاه من الفطرة تشق طريقها إلى النفس استثناسا بشفافيتها و نقائها، و يكون مصدر ذلك حينئذ هو الله تعالى بالموهبة و الايحاء، لا- بالكسب و المعرفة، و لا- يتأتى ذلك لكل فرد، و لا يفوز به إلا الصفوة المختارة في كل جيل، و ملاك ذلك هو الصفاء الروحي و التوجه نحو الله.

هؤلاء أئمة أهل البيت عليهم السلام، و هم معدن العلم، و مهبط الوحي، احتاج الناس إلى علمهم، و ما احتاجوا إلى أحد، و قد ملئوا الدنيا فقها و علما و حديثا، أجابوا عن كل مسألة، و حلوا كل مشكله، و وقفوا كالجبل الأشم ينشرون المعارف، و يتقفون المواهب، كالبحر الذي لا تدرك أعماقه، و لا تبدو سواحله، و ما علمهم هذا إلا عصارة إلهية، و منحة ربانية، و خلاصة سماوية، و هو نوع من العلم اللدني، أو هو من الباب الذي علمه رسول الله عليا عليه السلام فعلمه أبناءه الطاهرين، و كلاهما موهبة الله و إيحاء السماء، و هكذا دواليك بالنسبة للفقهاء و المحدثين و المجتهدين من بعدهم، فتحت لهم كنوز العلم فغاصوا بجواهرها، و نشرها على العالم ألبية المعرفة خفاقة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

و لا تحسبن في هذا العرض مبالغه أو مغالاة، و إنما هو الواقع الثابت، فما احتاج الأئمة عليهم السلام أحدا في مسألة، و لا غنى لأحد عنهم في مسألة، أخذ عنهم الناس، و لم يأخذوا عن أحد، و احتياج الكل إليهم، و استغناؤهم عن الكل، يشكّل في المنطق البديهي حقيقة العلم اللدني الموهوب، و ليسوا هم بأقل منزلة من صاحب موسى عليه السلام، و قد ألهم العلم اللدني، و هم كذلك لا شك

فى ذلك.

## الآداب الفنية:

و هى مجموعة الفنون و العلوم و الطاقات التى يتذرع بها المفسر لخوض لجاج التفسير، فهى أدواته و آلاته، و هى قدراته و ملكاته. و قد أورد السيوطى إختلاف الناس فى تفسير القرآن، فهل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟ قال قوم: لا يجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شىء من القرآن، و إن كان عالما أديبا متسعا فى معرفة الأدلة و الفقه و النحو و الأخبار و الآثار، و ليس

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٤٩

له إلا أن ينتهى إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك،. و منهم من قال: يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التى يحتاج إليها المفسر «١».

و الرأى الأول يقضى بأن يكون التفسير توقيفيا يختص بالنقل عن الأثر النبوى، و هذا يعنى حجب الفكر، و إيقاف عملية الاستنباط، و هو معارض بالأثر نفسه، قال ابن مسعود: «من أراد علم الأولين و الآخرين فليثور القرآن» «٢».

و تثوير القرآن يعنى التدبر فيه و التنقير عن معارفه، و فى هذا دعوة إلى الجد و الاجتهاد و إعمال الفكر، و جميعها من غير المأثور، و قد ورد عن أبى الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها» «٣».

و بديهى أن استخراج وجوه القرآن لا يتوقف على الأثر وحده بل يشاركه فيه العلم و الاستنباط مشاركة ظاهرة. و فى قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ «٤» دلالة أكيدة على أصالة المذهب فيما نص عليه صاحب الرسالة، أو ما أقره و هو المعمول به فلا تجوز معارضته و مناقشته إذ لا اجتهاد فى مقابل النص، و ما لم يرد به بيان أو إشارة عنه أو عن أهل بيته، و هم عدل القرآن، ففيه الاجتهاد و إحالة النظر، و حسن التفكير و هو مضمار العلماء مع تكامل أداة التفسير، و لهذا فإننا نميل إلى الرأى القائل بجواز تفسيره لمن أحاط بجملة من العلوم العامة التى تمهد السبيل أمام التفسير.

الرأى الثانى: و هو القائل بجواز تفسير القرآن مع ملكة الفنون، و قد ذهب إليه جملة من الأوائل. قال الزركشى «الذى يجب على المفسر البدء به: العلوم اللفظية، و أول ما يجب البدء به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معانى المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه» «٥».

(١) ظ: السيوطى، الاتقان: ١٨٥ / ٤.

(٢) ابن الاثير، النهاية: ٢٢٩ / ١.

(٣) السيوطى، الاتقان: ١٩٧ / ٤.

(٤) النحل: ٤٤.

(٥) الزركشى، البرهان: ١٧٣ / ٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٠

و هذا التقرير سليم فى معرفة هيئة التركيب، و دلالة اللفظ، و هو اشتراط ضمنى للتوسع فى اللغة، و الاحاطة بوجوه النظم و التأليف، و تعلق ذلك بعلم اللغة و التصريف و الاشتقاق من حيث معرفة المفردات صيغة و جذرا و دلالة، و رد الفروع إلى الأصول، و وجه النظم إلى الأعراب. فإذا استقامت معرفة الألفاظ على هذا النحو، و تألفت الجمل، أريد بيان موقعها لأداء أصل المعنى فاحتيج إلى علم النحو. و إلى مطابقته لمقتضى الحال و مناسبة المقال فاحتيج إلى علم المعانى، و إلى وضوح اللفظ فى دلالاته على الحقيقة، أو مع القرينة الصارخة له عن ذلك فيتنقل فى وجوه المجاز و الاستعارة و التمثيل و التشبيه و الكناية و التعريض، فاحتيج إلى علم البيان.

و يعقب الزركشى على ما قرره من جهة الأفراد و التركيب، و هو أصل قويم فى تيسير عملية التفسير فيشترط بعد ذلك الحيطه و التحرز فى التفسير ليطابق المفسر فيقول: «و يجب أن يتحرى فى التفسير مطابقه المفسر، و أن يتحرز فى ذلك من نقص المفسر عما يحتاج إليه من إيضاح المعنى المفسر، أو أن يكون فى ذلك المعنى زيادة لا تليق بالغرض، أو أن يكون فى المفسر زيغ عن المعنى المفسر، و عدول عن طريقه حتى يكون غير مناسب له، و لو من بعض أنحاءه، بل يجتهد فى أن يكون وفقه من جميع الانحاء، و عليه بمراعاة الوضع الحقيقى و المجازى، و مراعاة التأليف، و أن يوافق بين المفردات و تلميح الوقائع، فعند ذلك تنفجر له ينابيع الفوائد» (١).

و يميل الزركشى فيما تقدم إلى الاقتصار على علم التفسير دون التجوز فيه إلى غيره، و إلى تلافى الزيادة و النقصان، فيتخذ المفسر حدا وسطا بين الأطناب و الايجاز، و يؤكد على النظم و علم البلاغه، و هذا يعنى الاحاطة الشاملة بلغة العرب، و طرق النحو، و مسائل المعانى و البيان.

و قد أورد السيوطى اشتراط جملة من العلوم على المفسر، فمن فسّر القرآن بدونها كان مفسرا بالرأى المنهى عنه، و إذا فسرها مع حصولها لم يكن كذلك، و هذه العلوم هى: اللغة، النحو، التصريف، الاشتقاق، المعانى، البيان، البديع، القراءات، أصول الدين، أصول الفقه، أسباب

(١) الزركشى، البرهان: ١٧٦ / ٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥١

النزول و القصص، الناسخ، المنسوخ، الفقه، الاحاديث المبينة لتفسير المجمل و المبهم (١).

و ما اشترطه يجب أن يقترن بالذائقة الفنية، و جودة الاختيار، و حسن التأمل و التتبع، و نفاذ البصيرة و القريحة، فيتصرف تصرف الناقد الخبير عند تدافع الاشكالات و تزامم الايرادات، و توهم التداخل فى النصوص، أو ادعاء التناقض فى الآيات كما يزعم ذلك جملة من المبشرين و حفنة من المستشرقين، فينظر النص فى دلالة سياقه، و الجملة و ما يتصل بها من شرط أو خبر أو جزاء، و ظاهرة التجوز و النقل عن المعانى الأولية إلى المعانى الثانوية، و رد الألفاظ إلى ضدها أو نظيرها أو مرادفها للاستعانة على كشف معانيها، و سبر النص فى منطوقه و مفهومه، و وجه الخطاب فى لحنه و فحواه، و كل أولئك إمكانات و لفتات لا بد من توافرها ليكون عطاء المفسر خصبا، و حديثه مرنا، بعيدا عن الجمود و القوقعة، و الاستقلال فى الاستنباط.

و هذه العلوم يجب أن تشق طريقها فى التفسير مبينة له دون طغيانها عليه، فلا ضرورة لذلك، بل و لا ينبغى أن يكون التفسير مشحونا بها بمناسبة و غير مناسبة، فيعود مضمارا لها، و يتجنى من خلالها على التفسير، و إنما المفروض أن تكون دلائل و أمارات يتوصل معها إلى فهم القرآن، لا- أن تكون كل شىء فى تفسير القرآن، و هذا ما تبّه إليه أبو حيان الأندلسى بقوله: «كثيرا ما يشحن المفسرون تفاسيرهم عند ذكر الأعراب بعلل النحو، و دلائل أصول الفقه، و دلائل أصول الدين، و كل ذلك مقرر فى تأليف هذه العلوم و إنما يؤخذ ذلك مسلما فى علم التفسير دون استدلال عليه، و كذلك أيضا ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول، و أحاديث فى الفضائل، و حكايات لا تناسب، و تواريخ إسرائيلية، و لا ينبغى ذكر هذا فى علم التفسير» (٢).

و الملاحظ تقارب آراء العلماء فى هذا الجانب حتى نقل الخلف عن

(١) ظ: السيوطى، الاتقان: ١٨٥ / ٤ و ما بعدها.

(٢) السيوطى، الاتقان: ٢٠٠ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٢

السلف؛ فالشروط الفنية تكاد تكون واحدة عند الجميع، إلا أنها تتفاوت تأكيداً واستحساناً. بقى أن نقف مع اللغة و البلاغة وقفة متأنية، لأنهما العلمان اللذان يفتقان ما فى القرآن من خصائص و مميزات و إشارات، و لأنهما يقربان المنهج الموضوعى بعيداً عن التأثير الجانبى.

اللغة لم تكن هملاً دون ضوابط، و قيمتها الجمالية ليست مجهولة المعالم، و قد جاء القرآن فكان حدثاً جديداً فى تطوير هذه اللغة، يخطط لمستقبلها، و يدعو إلى نموها و صقلها و الحفاظ عليها، و من هنا اتجهت آراء العلماء إلى جعلها لغة علمية يحددها الضبط، و كان النص القرآنى حافزاً لهذا الاتجاه فنشأت مدرستان عن ذلك:

الأولى: تقول أن اللغة و فروعها إنما اتسعت للحيطه على القرآن من الألحان فيه، و الاحتراز من الوقوع فى الخطأ اللفظى أو المعنوى عند تبينه، فىكون عمل اللغة ضابطاً وقائماً للعرب عن اللحن و الخطأ، و لغير العرب عن التبديل و التحريف.

و الثانية: تقول أن التحقيق فى اللغة و الضبط لها قد عاد ضرورة لا للاحتراز عن اللحن و الخطأ بل لفهم القرآن فهماً أصيلاً بعد أن دخل غير العرب فى الاسلام فتكون اللغة هدفاً أساسياً و تعليمياً فى وقا واحد لفهم النصوص القرآنية «١».

و فى كلا الأمرين يبدو للباحث أثر القرآن الكريم فى حفظ اللغة، و أثر اللغة فى ضبط القرآن، و تحيل النحو الصدارة فى هذا المقام من بين علوم اللغة فارتبط بالقرآن من حيث صحة القراءة و شذوذها، و اتصل بعلم القراءات المختلفه و وجوه تصحيحها و رفضها، فكان دوره المهم فى بيان موقع مفردات القرآن، مضاهياً بل متفوقاً على دور اللغة فى التأصيل و الاشتقاق، و قد حققا معا علاقات النظم القرآنى و أصول التأليف فى ربط ما تقدم من الآيات بما تأخر و بالعكس، و اتحدا فى إنجاز معرفة الجذور الأولية للألفاظ و كيفية محلها من الجمل و التراكيب، فاقترنت الظواهر اللغوية بالظواهر الفنية، و اتسع الملحظ النصى لشمول الملحظ الجمالى،

(١) ظ: فى هذا الشأن/ د. عبده الراجحى / دروس فى كتب النحو: ٩- ١٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٣

و قد شارك هذا فى تيسير قراءة القرآن و ضبطها على الوجه الأصح و الأوضح، و ساعد فى الكشف عن طاقاته و تأثيرها فى النفس الانسانية، فكان شأن النحاة كشأن المعجميين و اللغويين من الواعين بهذا إلى تفسير القرآن فى حدود اللغة، و قد سبق كل من النحاة و أهل اللغة فى وضع البرامج المحكمه لتفسير القرآن، فكتب الفراء و أبو عبيدة و أبو جعفر الرؤاسى و ابن قتيبة، و أبو إسحاق الزجاج، و أبو جعفر النحاس و أضرابهم أوائل التفاسير اللغوية كما سنشير إلى هذا فيما بعد «١». فكونوا الحركة الأولى للتفسير بهذا المنهج بعد التفسير بالمأثور، و نشأ عن ذلك المنهج التحليلى فى تفسير نصوص القرآن بمنأى عن التأثير الاعتقادى الذى لا يوحى به ظاهر اللغة أو دلالة الألفاظ. و قد كان هذا الاتجاه جديراً باتساع دائرة التفسير، و الخروج به عن ضروب المأثور فحسب، لهذا نجد فى التأكيد على اللغة و ما سايرها من حركات فى التطوير مجالاً مقبولاً لفهم النص القرآنى، و منهجا فى الكشف عن قدراته، و تلقى المعنى موافقاً للوجدان الانسانى بحيث يقتنع بمضامينه، و يميل إلى الأخذ به فى الدلالة على الوجه المراد من القرآن. و هنا يتجلى دور البلاغة العربية فى الاستعانة على فهم ذلك لمعرفة الفصيح من الأوضح، و ما يقتضيه الاعجاز من أساليب فى وضح الدلالة و جلائها، و موافقة اللفظ للمعنى، و المعنى للنفس، و الوقوف على دقة النظم و حسن تأليفه، و عجب التركيب و جودة الصياغة، و مزج ذلك بالحس النقدى الذى يلائم بين المفردات و الجمل، و الجمل و العبارات، و العبارات و الآيات، و الآيات و السور، فيتكون من مجموع ذلك الإدراك الفنى لطبيعة المعنى المراد من النص القرآنى، أما فروع علمى اللغة و البلاغة و ما يتداخل بموازينهما، فمرده إلى كتب هذين العلمين، و ما يتعلق بهما من تفرعات و تقسيمات. و إذا أتقن العازم على تفسير كتاب الله هذه المقدمات و الأصول، و تمرس هذه الفنون و العلوم، تحتم عليه المعرفة الرصينة بعلوم القرآن فى المستويات التى أثارها القرآن، و هى مجموعة العلوم التى يتم بتحصيلها، و الوقوف عندها، و التأمل بمضامينها الوصول إلى التفسير فى دلالته، و التأكيد على

(١) ظ: تفصيل ذلك في المنهج اللغوي من هذا البحث.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٤

حقيقته المعنى المراد من ألفاظ القرآن و عباراته.

و أول من أشار إلى هذه العلوم هو أمير المؤمنين الامام على بن أبي طالب عليه السلام،

فقد تحدث عما خلفه النبي صلى الله عليه وآله و سلم فقال: «و خَلَّفَ فيكم ما خلفت الأنبياء في أممهم- إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، و لا عمل قائم- كتاب ربكم، مينا حلاله و حرامه، و فرائضه و فضائله، و ناسخه و منسوخه، و رخصه و عزائمه، و خاصه و عامه، و عبره و أمثاله، و مرسله و محدودده، و محكمه و متشابهه، مفسراً مجمله، و مينا غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، و موسع على العباد في جهله، و بين مثبت في الكتاب فرضه، و معلوم في السنه نسخه، و واجب في السنه أخذه، و مرخص في الكتاب تركه، و بين واجب بوقته، و زائل في مستقبله، و مبين بين محارمه، من كبير أوعد عليه نيرانه، أو صغير أُرصد له غفرانه، و بين مقبول في أدناه، و موسع في أقصاه» (١).

و هذا التقسيم عجيب في أدائه، فقد بين به سنن القرآن و فرائضه، و علوم القرآن و معارفه، و رخص القرآن و عزائمه، بما لم يسبق إليه من ذي قبل، و قد أشار إليها أرباب الصناعة بعد زمان، و كان هو الواضع لأسسها، و المبتكر لاصطلاحاتها، و حسبك في ذلك غنيه عن تمحل الأقوال، و طلب المعارف إلى غير أهلها، فكان بذلك علماً لائحاً، و مناراً شامخاً، و دليلاً قائماً، و مثلاً شاخصاً، لا يدرك ساحله، و لا يسبر غوره، و لله درّه من متمرس بعلوم القرآن فهو مدون مصطلحاتها منذ عهد مبكر، و مبرمج صنوفها حين استعصى على غيره تمييزها و تفعيدها، و هذه المصطلحات عند الامام:

١- الحلال و الحرام، و الحلال ما أباحه الله لعباده كالبيع، و الحرام ما حضره عليهم كالربا، و قد جمعا في قوله تعالى: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبَا (٢).

٢- فضائله و فرائضه، فالفضائل حينما جعلها في قبال الفرائض يستدل بها على إرادة النوافل، كالرواتب اليومية لصلاة الصبح و الظهر

(١) نهج البلاغه: ١١٦ / ١.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٥

و العصر و المغرب العشاء، و كصلاة الليل و بقيه المستحبات، و الفرائض كالصلوات الخمس، و صلاة الطواف و بقيه الواجبات.

٣- ناسخه و منسوخه، و المراد به إحلال حكم مكان حكم لمصلحه معلومه أو مجهولة يقررها الشارع المقدس، فالناسخ هو المتأخر نزولاً في القرآن و المنسوخ هو المتقدم نزولاً في القرآن، مثال الناسخ قوله تعالى:

أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣ (١).

و المنسوخ و هو الحكم المتقدم كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صِدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢ (٢).

و قد أجمعت الأمة أن هذه الآية لم يعمل بها إلا على عليه السلام فقد كان له دينار صرفه إلى عشرة دراهم، و سأل النبي صلى الله عليه وآله و سلم عشرة أسئلة، يتصدق أمام كل سؤال بدرهم، ثم نسخت.

٤- رخصه و عزائمه، فالرخص ما أباحه عند الضرورة كقوله تعالى:



فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾.

و العزائم كقوله تعالى: فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿٤﴾.

٥- خاصه و عامه، فالخاص كقوله تعالى: وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنَّ وَهَبْتُ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴿٥﴾ فهذا خاص بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم. و العام ما يتوجه إلى الأمة بسائر أفرادها، و تستعمل فيه أدوات العموم، كقوله تعالى: وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ٦.

(١) المجادلة: ١٣.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) محمد: ١٩.

(٥) الاحزاب: ٥٠.

(٦) البقرة: ٤٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٦

٦- عبره و أمثاله، فالمراد بالعبر ما يعتبر به الانسان كقصص الغابرين، و أحداث الماضين التي تقص عذاب الاستئصال النازل بالأمم الكافرة، كحديث الطوفان، و عذاب آل فرعون، و أصحاب الفيل، و قوم عاد و ثمود و ضربابهم.

و الأمثال ما أورد القرآن من أمثاله كافه، ليقاس عليها و يعتبر بها، ابتداء من المثل الأول في القرآن و هو قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٧ ﴿١﴾.

و انتهاء بآخر مثل في القرآن و الذي يبدأ بقوله تعالى: وَ مَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴿٢﴾.

٧- مرسله و محدوده، و المرسل عبارة عن المطلق كقوله تعالى:

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴿٣﴾ و المحدود عبارة عن المقيّد كقوله تعالى: فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾.

٨- محكمه و متشابهه، و المحكم غير قابل للتأويل كقوله تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ ﴿٥﴾ و المتشابه- عند قوم- كقوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥ ﴿٦﴾.

٩- و ما لا يسع أحدا جهله كقوله تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿٧﴾

(١) البقرة: ١٧.

(٢) المدثر: ٣١.

(٣) النساء: ٩٢.

(٤) النساء: ٩٢.

(٥) الاخلاص: ١.

(٦) طه: ٥.

(٧) البقرة: ٢٥٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٧

ومن ما يسع الناس جهله فيرد أمره إلى الله والراسخين في العلم كالحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية.  
١٠- ما حكمه مذكور في الكتاب منسوخ بالسنة، كالاتي يأتين الفاحشة، فالقرآن يقول: فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ  
(١) فإنه نسخ بالسنة في رجم الزاني والزانية المحصنين.

و ما حكمه مذكور في السنة منسوخ بالكتاب كالتوجه بالصلاة إلى بيت المقدس، فإنه نسخ بقوله تعالى: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي  
السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (٢).  
فهذه جملة من علوم القرآن مما أبانه الامام على عليه السلام وهي مما يجب ضبطه و التمرس فيه بعناية و تأمل من قبل مفسر القرآن  
العظيم.

و مما تقدم يبدو لنا مدى حاجة المفسر إلى الدراسات التخصصية الدقيقة، و الفنون العلمية المتشعبة التي تمهد له الطريق ليكون عمله  
في التفسير متمسما بالدقة، و جهوده مقارنة للسداد، فلا- تغيب عنه شاردة بالأعراض، و لا يفتر منه موروث بالتلكؤ، لتلتقى عنده اللغة  
بالأسلوب، و الفكر بالخصائص، و الفن بقرائن الأحوال.

و في هذا الضوء تتحدد مسئولية المفسر العلمية في ضوء موسوعيته الفنية، فمن لم تتوافر له الامكانيات المتعددة في جملة العلوم  
الاسلامية و العربية و ما هو بإطارها و في سياقها، فإقدامه على التفسير عملية انتحارية لا مسوغ لها فنا، كما لا مبرر لها شرعا، فالعدة و  
الأداة مثلا زمان لتفسير القرآن العظيم، العدة في العلوم المتعددة، و الأداة في الذائقة الفنية التي تضع التأويل موضعه المناسب دون  
تجوّز أو تزديد، فلا يدخل فيه ما ليس منه إلا ضرورة، و لا يخرج منه شيء حتى مع الضرورة، لهذا و سواه فالأمر صعب مستصعب، و  
خوضه إقدام جرىء، و قد يقصر المفسر حينئذ، و لكنه مأجور إن عمل بعلمه المتشعب، و استخدمه بحسب طاقته في التفسير.

(١) النساء: ١٥.

(٢) البقرة: ١٤٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٥٩

## الفصل الثالث مصادر التفسير

### إشارة

١- المصدر النقلى ٢- المصدر العقلى ٣- المصدر اللغوى

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦١

### ١- المصدر النقلى:

و المراد به تفسير القرآن الكريم بالمنقول من المأثور، سواء أ كان هذا المأثور دراية قطعية متواترة كالقرآن، أم رواية تتقلب بين الظن  
و القطع فتكون قابلة للنفي و الاثبات بحسب موازين تقييم الروايات المتواترة، و المشهورة، و أخبار الآحاد.  
فالأول: هو تفسير القرآن بالقرآن، و ذلك عن طريق مجابهة الآيات بعضها لبعض، و عرض الآيات بعضها على بعض، و يستخرج-  
حينئذ- من مقابلتها معنى اللفظ أو الجملة أو الآية، فيرجع إلى المحكم في تفسير المتشابه، و إلى المبين في معرفة المجمل، و إلى  
المسهب في تعريف الموجز، و إلى المعلن في استجلاء المبهم، و إلى الواضح في استنباط الخفى، و هكذا.

و الثاني: تفسير القرآن بالرواية، و طريقه: إما أن يكون الروايات الصادرة عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بما ورد تفسيره عنه، كأن يقرر القرآن أصلاً و يكون التفریع عليه بالسنة، أو يجمع أمراً يكون تبينه في السنة قولاً أو فعلاً أو تقريراً. و إما أن يكون مصدر ذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام، أو صحابة النبي (رض) فلكل منهما حكم في الموضوع.

أما أهل البيت فعند بعض المسلمين لا سيما الامامية منهم أن روايتهم هي رواية النبي صلى الله عليه و آله و سلم و هم أدري بالقرآن من غيرهم، و إنما عدل القرآن تواتراً،

فما أخرجه الترمذی و أورده ابن الأثير عن جابر بن عبد الله الانصاري أنه قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في حجة الوداع يوم عرفه و هو

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٢

على ناقته القصواء يخطب فسمعتة يقول: «إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله و عترتي أهل بيتي» «١».

و رواية زيد بن أرقم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر، و هو كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، و عترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما» «٢».

و أما الصحابة فقد اختلف في حجية تفسيرهم، إلا أن تفسير الصحابي عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبي على رأى الحاكم في التفسير «٣». و قد نازعه فيه ابن الصلاح و غيره من المتأخرين: بأن ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه. بل لقد صرح الحاكم نفسه بذلك فقال: «و من الموقوفات تفسير الصحابة، و أما من يقول أن تفسير الصحابة مسند، فإنما يقوله فيما فيه سبب النزول» «٤».

و في الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، و اختيار ابن عقيل المنع، لكل عمل المفسرين على خلافه، و قد حكوا في كتبهم أقوالهم «٥».

و الوقوف على هذا المصدر يقتضى البحث عن دلائله من جهة، و يستدعى تمحيص الآراء فيه ليخلص إلى النتيجة كما سيأتى القول في تحقيق ذلك.

أما تفسير القرآن بالقرآن: فهو أرقى مصادر التفسير، و قد بحثنا حجيته مفصلاً في منهج هذا التفسير، و ليس هذا موضعه، و القول فيه هنا يكون قولاً فيه كثير من التجوز.

و أما المصادر المأثورة فكونها مصدراً من مصادر التفسير شيء، و كونها طريقاً يأخذه المفسر في تفسيره منهجاً له فشيء آخر. و هنا نتحدث

(١) ابن الأثير، جامع الاصول: ١ / ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه الجزء و الصفحة.

(٣) الزركشى، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٥٧.

(٤) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ٤ / ١٨١.

(٥) الزركشى، البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٥٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٣

عنها باعتبارها مصدراً للتفسير أخذ بها أو لم يؤخذ. أما منهجية ذلك فموضعه غير هذا.

قال الخوئي: «و أما القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يعلم إلا بأن يسمع من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و ذلك تعذر إلا في آيات قليلة» «١».

و هذا هو الطراز الأول، لكن يجب الحذر من الضعيف فيه، و الموضوع فإنه كثير «٢».

و الذى صحّ عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلّم من تفسير القرآن قليل جدا بحسب الروايات فى جميع كتب التفسير، بل أصل المرفوع إليه منه فى الغالب من القلة بمكان، و قد جمع السيوطى ذلك فى صفحات معدودة من الاتقان «٣». نعم زاد عليه فى جملة العرض و الروايات البحرانى فى الرهان «٤»، و الحكمة فيه أن الله تعالى أراد أن يتفكر عباده فى كتابه فلم يأمر نبيه بالتنصيص على المراد فى جميع آياته «٥». بل هناك ما هو أولى بالقول، فإنه صلى الله عليه و آله و سلّم قد أعدّ لذلك من أهله لتحمل رسالة التفسير و القيام بها من بعده خير قيام، و هنا يتجلى دور أهل البيت عليهم السلام بما لا مزيد عليه، و يؤيد

قول الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، و خير ما بعدكم، و فضل ما بينكم، و نحن نعلمه» «٦». و عند غض النظر عن هذا الملحظ الدقيق وجدنا علماء علوم القرآن يبحثون عن مصادر مكتملة لهذا المصدر أو سائره بخطه فى الأقل، متناسين المقام الاسمى للأئمة عليهم السلام، بل حشرهم حشرا فى جملة الصحابة تارة، و فى جملة التابعين و تابعى التابعين تارة أخرى.

قال الزركشى: «و اعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره فى

(١) السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن: ١٧١ / ٤.

(٢) الزركشى، البرهان: ١٥٦ / ٢.

(٣) ظ: السيوطى، الاتقان: ٢١٤ - ٢٥٨.

(٤) ظ: البحرانى، تفسير البرهان.

(٥) ظ: السيوطى، الاتقان: ١٧١ / ٤.

(٦) الكلينى، أصول الكافى: ٦١ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٤

النقل عن من يعتبر تفسيره، و قسم لم يرد، و الأول ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبى صلى الله عليه و آله و سلّم أو عن الصحابة، أو عن رءوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، و الثانى ينظر فى تفسير الصحابى، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلا شك فى اعتمادهم، و إن فسره بما شاهد من الأسباب و القرائن فلا شك فيه ... و أما الثالث فهم رءوس التابعين إذا لم يرفعوه إلى النبى و لا إلى أحد الصحابة (رض) فحيث جاز التقليد فيما سبق، هكذا هنا و إلا وجب الاجتهاد «١».

فكان المصدر النقلى التشريعى عند الزركشى ينحصر فى ثلاثة فقاء:

النبى صلى الله عليه و آله و سلّم و الصحابة و رءوس التابعين، فما لا شك معه يجب أن يبحث فيه عن سنده فقط، و هو ليس قول النبى و ما ورد من الشرع، و أما قول الصحابى فتفسيره من حيث اللغة مقبول و كذلك فى الاستناد إلى مشاهدات قرائن الأحوال، و أما قول التابعى إذا لم يرفعه، فقد جوز به التقليد تارة، و الاجتهاد بمنأى عنه تارة أخرى.

و قد اعتبر الزركشى الامام عليا عليه السلام ضمن الصحابة و لم يفرد له حديثا إلا أنه اعتبره مقدما فى الصناعة ثم ابن عباس، و هو تجرد لهذا الشأن، و المحفوظ عنه أكثر من المحفوظ عن على، إلا أن ابن عباس كان قد أخذ عن على عليه السلام «٢».

و على هذا يكون الامام على عليه السلام مصدر ابن عباس فى التفسير فهذا أولى بالرجوع إليه فى هذا الفن.

قال السيوطى: «أما الخلفاء فأكثر من روى عنه فهو على بن أبى طالب

فعن أبى الطفيل قال: شهدت عليا يخطب و هو يقول: «سلونى، فو الله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم، و سلونى عن كتاب الله، فو الله ما من آية إلا و أنا أعلم، أبليل نزلت أم فى نهار، أم فى سهل أو جبل» «٣».

و أخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود، قال: إن القرآن أنزل

(١) الزركشي، البرهان: ١٧٣/٢.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٧/٢.

(٣) السيوطي، الاتقان: ٢٠٤/٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٥

على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا وله ظهر و بطن، و إن على بن أبي طالب عنده منه الظاهر و الباطن «١».

و أخرج عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي عليه السلام: و الله ما نزلت آية إلا و قد علمت فيم أنزلت، و أنى أنزلت، إن ربي و هب لي قلبا عقولا و لسانا سؤلا «١».

و مما يؤيد هذا ما قاله ابن أبي حمزة عن علي عليه السلام أنه قال: «لو شئت أن أوفر سبعين بعيرا من تفسير أم القرآن لفعلت» «١».

و قد علل محمد عبد العظيم الزرقاني، كثرة التفسير عن الامام علي عليه السلام، و اشتهاه به دون من سبقه من الخلفاء بما يأتي:

«الامام علي عليه السلام قد عاش بعدهم حتى كثرت حاجة الناس في زمانه إلى من يفسر لهم القرآن، و ذلك من اتساع رقعة الاسلام، و دخول عجم في هذا الدين الجديد، كادت تذوب بهم خصائص العروبة، و نشأة جيل من أبناء الصحابة، كان في حاجة إلى علم الصحابة، فلا جرم كان ما نقل عن علي أكثر مما نقل عن غيره، أضف إلى ذلك ما امتاز به الامام من خصوبة الفكر، و غزارة العلم و إشراق القلب، ثم أضف أيضا اشتغالهم بمهام الخلافة و تصريف الحكم دونه» «٤».

و مع صحته ما ذكره الزرقاني، فإن عليا عليه السلام قد أعدّ إعدادا خاصا من قبل النبي صلى الله عليه و آله و سلم في التفسير و القضاء و الفقه و أصول الدين و عوالم العلم كافة، و قد تواترت في ذلك أحاديث جمّة في عدة مناسبات من أبرزها:

قول النبي: «أنا مدينة العلم و عليّ بابها»

و هو مجمع عليه في الصحاح فإذا قارنا بين هذا و بين

قول النبي صلى الله عليه و آله و سلم: «العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنّة قائمة، و ما خلاهن فهو فضل» «٥».

خرجنا بنتيجة إحاطة الامام علي عليه السلام بمحكمات الكتاب، و معالم

(١) السيوطي، الاتقان: ٢٠٤/٤.

(٤) الزرقاني، مناهل العرفان: ٤٨٢/١ و ما بعدها.

(٥) الكليني، أصول الكافي: ٣٢/١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٦

القرآن لأن فيه الآيات المحكمة و الفريضة العادلة و السنّة القائمية، أضف إليه روايات الإمامية أنه عدل القرآن بما يوافقهم عليه جملة من الجمهور و المعتزلة.

و قد أشار الامام علي نفسه إلى حقيقة كونه عدلا للقرآن، فكثيرا ما يتحدث عن أهل البيت و يريد نفسه

قال: «و كيف تعمهون؟ و بينكم عتره نبيكم، و هم أزمّة الحق، و أعلام الدين و ألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن» «١».

و هذا التصريح منه صريح بدعوة الناس في الرجوع إليه و هو يؤكد ذلك في عدة مواطن لعل من أوضحها

ما رواه المدائني قال: «خطب علي عليه السلام فقال: «لو كسرت لي الوسادة لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، و بين أهل الإنجيل بإنجيلهم، و بين أهل الفرقان بفرقانهم، و ما من آية في كتاب الله: أنزلت في سهل أو جبل إلّا و أنا عالم متى أنزلت، و فيمن أنزلت»

«٢».

وقد حصر الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) المصدر النقلى بعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأهل البيت فى مقدمة تفسيره فقال: «وقد روى عن النبى رواية لا يدفعها أحد أنه قال: «إنى مخلف الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله، وعترتى أهل بيتى» «٣».

وجه الاستدلال بالحديث يقضى بأن أهل البيت و القرآن متلازمان، وأن أحدهما متمم للآخر، وإن استخلاف النبى للقرآن و العترة يعنى معرفة العترة بما فى القرآن، و أن الضلال إنما يدفع تأييدا بالتمسك بهما.

و الطوسي يوضح هذه الفكرة و يشرحها، و يضيف إليها ما يحدد به المصدر التشريعى لتفسير القرآن فيقول: «و لا ينبغي لأحد أن ينظر فى تفسير آية لا ينبى ظاهرها عن المراد تفصيلا، أو يقلد أحدا من المفسرين، إلا أن يكون التأويل مجمعا عليه، فيجب اتباعه، لمكان الاجماع، بل ينبغي

(١) ابن أبى الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦/ ٣٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ٦/ ١٣٦.

(٣) الطوسي، التبيان فى تفسير القرآن: ١/ ٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٧

أن يرجع إلى الأدلة الصحيحة، إما العقلية أو الشرعية مع إجماع عليه، أو نقل متواتر به عن من يجب إتباع قوله، و لا يقبل فى ذلك خبر واحد» «١».

و يشترط السيد الخوئى الرجوع إلى النبى و أهل البيت فإنهم المراجع فى الدين «٢».

وقد أكد هذه الحقيقة منذ عهد مبكر الامام على

بقوله: «ذلك القرآن فاستنطقوه، و لن ينطق بكم، أخبركم عنه، إن فيه علم ما مضى، و علم ما يأتى إلى يوم القيامة، و حكم ما بينكم، و بيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلمتكم» «٣».

و من المهم عند السيوطى معرفة التفاسير الواردة عن الصحابة بحسب قراءة مخصوصة، و ذلك أنه قدير و عنهم تفسيران فى الآية الواحدة مختلفان، فيظن اختلافا و ليس باختلاف، و إنما كل تفسير على قراءة «٤».

بينما يدفع ذلك ابن تيمية فيقول: «يجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بين لأصحابه كل ما فى القرآن كما بين لهم ألفاظه» «٥» إلا- أن هذا المصدر عن الصحابة يجب أن يرصد بكثير من الحيطة و الحذر، لما دسّ عن طريقهم فى القرآن من قبل اليهود و النصرى، و ما كثر فى ذلك من الإسرائيليات و الانحرافات، و ما زور من الأحاديث التى وضعت فى العصرين الأموى و العباسى، و ترويجا لمبدأ، أو دعما لفكرة، مما لم تصح نسبته، و لم يثبت صدوره.

و لقد كانت حاجة الصحابة إلى معرفة الاحكام تلجؤهم إلى الاستعانة بأهل الكتاب أحيانا ممن يثقون به، و يعتمدون حسن سيرته، فيسألون، فيجاب بما لم ينزل الله به سلطانا، فيحرف الكلم عن مواضعه، و لا يبلغ الحق نصابه، و قد حصل من هذا و ذاك خلط كبير، و تضييع لكثير من

(١) الطوسي، التبيان: ١/ ٦.

(٢) الخوئى، البيان: ٤٢١-٤٢٢.

(٣) الكليني، الكافي: ١/ ٦١.

(٤) السيوطى، الاتقان: ٤/ ١٩٣.

(٥) المصدر نفسه: ١٧٥ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٨

الحقائق، صدر قسم منها جهلا، و القسم الآخر عنادا و تزويرا حتى عادت المسألة ذات بال عند المسلمين، فتخرج قوم، و تجوز آخرون، حتى أورد السيوطي بأن ما نقل عن أهل الكتاب ككعب و وهب، وقف عن تصديقه و تكذيبه لما يروى أنه قال صلى الله عليه و آله و سلم: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم و لا تكذبوهم» (١). و يبدو أن هذا الحديث على فرض صحته لم يعمل به، و لم يوضع موضع التنفيذ، لأننا نشاهد بالعيان كتب التفسير قد ملئت غثاء و هراء بأقوال أهل الكتاب و أحاديثهم المدعاة، فقد يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه، و قد يحملونه ما لم يرد فيه، من تعيين أسماء و حوادث، و التنصيص على أماكن و بقاع، و التأكيد على خصائص و صفات لا مسوغ للخوض فيها، بعد أن طوى عنها القرآن كشحا، و ضرب عنها صفحا.

و مما تقدم يمكن إجمال القول عن هذا المصدر بما يأتي: إن المصدر النقلي، و لك أن تسميه الشرعي، مصدر له أهميته الخاصة في تفسير القرآن الكريم لأنه يصدر عن صاحب الرسالة و آله و أصحابه، فما توافرت لدينا الأدلة على صحة سنده في طريقه إلى النبي، كأن يكون متواترا، أو مجمعا عليه مثلا، و جب قبوله، و هو حجة علينا لا يجوز إغفاله، و ما لم تصح نسبته من جهة السند أو التعارض الذي تطرح به الروايتان، أو لمخالفته سيرة المتشرعة، و العقل السوي السديد، و ظواهر الكتاب، و مصادر اللغة، و طبيعة الفهم الموضوعي أو نسبة روايه للضعف أو الجهل أو الكذب أو الفسق أو السهو أو النسيان و نحو ذلك مما يلزم التجريح بالراوي، و جب رده، و عدم العمل به، و اعتباره لا يمثل المراد من كلام الله تعالى.

و هذا المصدر يقتضى جهدا مخصوصا من المفسر للاضطلاع به، و التمرس على تحمل مسؤوليته، كأن يكون محيطا بأصول الدين، و مجريات كلام العرب في الحقيقة و المجاز و التمثيل، و خيرا بالصفات المتعلقة بذات الله لثلا يقع في التجسيم، و ضليعا بأصول الفقه ليستطيع الاستدلال على

(١) السيوطي، الاتقان: ١٧٨ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٦٩

الأحكام من الطرق التفصيلية، و عارفا بالناسخ و المنسوخ، ليعرف محكم الآيات مما نسخ العمل به منها، و عليه الالمام المحيط بالحديث الشريف، و روايات أئمة أهل البيت، و ما أثر عن الصحابة، مع ضبط طرق ذلك و قواعده، ليكون مكتمل الأداة أمام عباب التفسير الزاخر، و ليصل إلى مغاليق التفسير، و معالم التأويل على ما مرّ بيانه و تفصيله في آداب المفسر الفني. بقي فن له أهميته القصوى في استكناه المصدر النقلي، و الوقوف على أسراره و كنوزه، و التمرس في جملة أحاديثه و رواياته، ذلك هو علم الجرح و التعديل في أحوال رواة الحديث الشريف. فقد ألفت السياسة بثقلها على الرواة، فكان من يروى كاذبا، و من ينقل متجاوزا، و من هو ليس ثقة في نفسه، و من هو غير دقيق في حفظه، و من هو فاسق في عمله، إلى جنب هؤلاء الرواة الثقات العدول، و حتى الثقة قد تحمل على الاشتباه حيناً، فكيف بزمر الوضاعين، و جمهرة الكذبة الفجرة، إن علم الجرح و التعديل الذي اضطلع به العلماء الأثبات يعطيك الصورة الواضحة عن تروى، فهناك الضعيف، و هناك المدلس، و هناك المجهول، و هناك المدخول في عمله، و هناك الثقة، و هناك العدل الثقة، و هناك المقبول، و هناك الموثق، و هناك الثبت الصحيح، و هناك من يروى بسند غير معتبر، و هناك من يروى عن من لم ير، و هناك من يتقول و يضيف، و هناك غير هنا و ذاك، كل التفصيلات لمن أراد التفسير النقلي أو بالمأثور فعليه ضبط هذا الفن ضبطا دقيقا، لثلا يقع في الإسرائيليات و الكذب و المنتحل و الموضوع. و هناك مشكلات عديدة في هذا المصدر يجب التمرس الفني و النوعي على تحاشيها، و من أهمها الأسباب الداخلية في الرواية و

الأسباب الخارجية من قبل الرواة، وقد لخصهما معا سيدنا الأستاذ السيستاني دام ظله العالی، و أنا أحمل ذلك ضمن احتياجنا لهذا المصدر.

الأسباب الداخلية، و أبرزها نسخ الحديث بحديث مثله سواء أ كان النسخ تبليغيا أو تشريعيًا، و انقسام الحديث بحيث انقسام حكمه، فقد يكون الحكم قانونيا، و قد يكون الحكم ولايتيا، و الكتمان و هو عبارة عن بيان أو إخفاء بعض الوقائع في الحديث، و الاختلاف في أسلوب التبليغ نصا أو

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٠

تعلیما أو إفتاء أو مداراة، .. و أما الاسباب الخارجية: فهي ما قام به الرواة و المؤلفون منها:

١- الدس في النصوص بين الزيادة و النقصان في نص الرواية.

٢- النقل بالمعنى، و ما يترتب عليه من أخطاء قد تؤدي إلى صرف النص إلى معنى غير مراد.

٣- الحديث المدرج و يعنى قيام بعض المؤلفين بإدراج تعليقه على الحديث في ضمن الحديث بدون فرز بينهما.

٤- التقطيع بالروايات كأن يذكر جزءا و يترك جزءا آخر.

٥- الخلط بين نص الحديث و حديث الغير في سياق واحد من قبل الراوى «١». و الله العاصم من الخطأ، و هو الموفق إلى الصواب.

## ٢- المصدر العقلي:

وقع الخلاف بين المسلمين في مدى صلاحية العقل للاستقلال بالحكم، أو باعتباره طريقا موصلا إلى الحكم، أو بإلغاء هاتين الصلاحيتين له، و حجبهما عنه، فعلى هذا تكون النظرة إلى العقل بثلاث اتجاهات:

الإتجاه الأول: نسب إلى المعتزلة بأنهم يرون العقل هو الحاكم، و هم بهذا يقدمون حكم العقل على حكم الشرع. إلا أن التحقيق بخلاف هذا، فلم يرد عنهم استقلال العقل بالحكم دون الشرع بل الأولى عندهم- كما نسب لهم- أن العقل طريق إلى العلم «٢». و ذلك باعتبار التكليف منوطا بالعقل.

الاتجاه الثانى: و قد اعتبر الإمامية العقل طريقا موصلا إلى العلم القطعى، فلذلك لا يصح عندهم أن يكون شاملا للظنون «٣».

و قد عدّ الشيخ المفيد (ت: ٤١٣ هـ) العقل هو السبيل إلى معرفة

(١) السيد على السيستاني، الرافد في علم الاصول، بقلم منير القطيفى: ٢٦-٢٩.

(٢) ظ: محمد سلام مذكور، مباحث الحكم عند الاصوليين: ١/ ١٦٢ و ما بعدها.

(٣) ظ: محمد رضا المظفر، أصول الفقه: ٣/ ١٢٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧١

حجية القرآن، و دلائل الأخبار «١».

و يشارك الامامية في هذا الاتجاه المعتزلة كما أسلفنا القول في أثبت القول عنهم، فيكون العقل مدركا إلى الحكم، و طريقا له، و هو الأولى بالمقام، إذ ليس من الإنصاف التجنى على المعتزلة أو الامامية، و القول عنهما بأنهما يذهبان إلى تحكيم العقل مطلقا كما سيأتى إثبات هذا الأمر.

الاتجاه الثالث: و قد ذهب الأشاعرة بأن التكليف مهما كان فمنشؤه حكم الشارع لا العقل، و العقل لا يعتمد عليه في إدراكاته لحكم الشارع «٢».

و وافقهم جمع من الاخباريين من الامامية، و ذهبوا إلى القول بعدم جواز الاعتماد على شىء من الادراكات العقلية «٣».



هذه هي الاتجاهات العامة في مسألة العقل بشكل مبسط بعيد عن المذهب الكلامي في الاحتجاج لهذا الاتجاه أو ذاك. و يمكن إجمال القول في الخلوص إلى رأى فى المقام بما يأتى:

إن أهل العدل من المعتزلة و الامامية لم يجمدوا على المصدر النقلى، و احتاجوا بهذا التحرر إلى التجوز و التخطى، فتجاوزوا القول بالمأثور و المنصوص فى اللغة، إلى استغلال مرونة اللغة العربية، فقاموا بتفجير لطاقتها، فذرعوا باللغة لتأييد الحكم فيما لا دلالة عليه حقيقته، و كان سبيل ذلك: أن عمدوا إلى ما فى اللغة من إشارات و رموز قد تكون دلالتها الأولى قد ذهبت مع الزمن، و لا سبيل لكشف كثير من هذه الرموز إلا بالتجوز، و التجوز عادة يكون مداره العقل و مداركه فى التمييز و التمييز، كما يكون مداره القرائن اللفظية، فلو ورد شىء من القرآن لا- مجال لفهمه أو العلم به عن طريق النص المأثور، لاحتيج إلى الكشف عنه و الدلالة إليه، و ما سبيل ذلك إلا العقل باعتباره مناط التكليف، و حيث لا لا يمكن أن يكون الشرع مخالفا للعقل السليم، فقد عاد العقل بمنزلة الشرع

(١) ظ: الكراچكى، كتر الفوائد: ١٨٦.

(٢) ظ: محمد سلام مذكور، مباحث الحكم عند الأصوليين: ١٦٣ / ١.

(٣) ظ: محمد تقى الحكيم، الاصول العامة للفقهاء المقارن: ٢٩٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٢

عند المعتزلة من هذا الوجه، و هنا يأتى الشرع مؤيدا للعقل أو دالا عليه، أو متوافقا معه عند الامامية، و لهذا لجأوا إلى التنظير على صحة ذلك إلى القول بالقبح و الحسن العقليين، تسويغا لنظرتهم هذه، و هى أساس عقلى دون ريب.

و لكننا مع هذا نجد أن التحقيق فى الموضوع يرجح عندهم الجنوح إلى المجال اللغوى أكثر من الجنوح إلى الأصل العقلى، فكأنهم تذرعوا بالعقل إلى الوصول إلى مدارك العقل و اجتهاداته فى النصوص القرآنية، فالنحو الذى يدرسون به النص من وجوهه المحتملة، و البلاغة التى فرضت وجودها فى مجالات التأويل، دليل على التذرع بالعقل فى استخدام اللغة، و قد نجم عن ذلك تأليف الزمخشري للكشاف الذى اعتمد الجانب البلاغى فى ترجيح العقل، و هو من أبرز آثار المعتزلة فى التفسير، أو أمالى المرتضى الذى يعتبر من أبرز من أكد على الجانب اللغوى من الامامية فى تفسيره لجملة من الآيات، فنجد أن كلا منهما قد عنى بمسائل اللغة و البيان و التمثيل، كما عنى بالمسائل العقلية النظرية، فجاء التفسير مزيجا بين هذا و هذا، ففى الوقت الذى تذهب فيه اللغة إلى التجوز العقلى فى صفات الله، يدفع فيه العقل الفطرى حسن الحسن و قبح القبيح، و غير هذا مما يكشف عنه: وجه ربك و هو ذاته، و عينه و هى عنايته و رعايته، و يده و هى قوته و إرادته، فإنه يستعمل الدلالة اللغوية فى تجوزها من المعنى اللغوى الأصلى إلى المجاز و الاستعارة و الكناية، و يمتد ذلك الجانب اللغوى كله فنجد العناية بالمعنى و دلالاته، و النظم و التركيب و تجوزهما بلاغيا فتلمس أهمية التمثيل و التخيل من باب ضرب المثل، و تجدد الحوادث، و مماثلة القصص، و استخلاص العبر، مما يخلص معه إلى أثر العقل فى هذا الشأن، و أن كان مرجعه اللغة. و من هذا الملحظ فى الأقل، و إن توسعوا فى ملحظ آخر.

و يبدو من هذا أن المصدر العقلى بطبيعة مصدر قم لمصدرين آخرين هما المصدر النقلى المتقدم، و المصدر اللغوى الآتى، و منشقا عنهما- فى هذا المجال فحسب، و من خلال هذا المنظور وحده- و ليس مصدرا قائما بذاته تسير به عملية التفسير أو التشريع، بل هو فيما يلوح لى طريق توصلى المبادئ العامة لتفسير القرآن ٧٣ - المصدر العقلى: ..... ص : ٧٠

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٣

إلى اكتشاف المجهول على أساس من لغة فى الأعم الأغلب، و على استناد من أثر فى بعض الأحيان، فيعود ذلك مظهرا من مظاهر التدبر فى القرآن، و التفكير بمحكم التنزيل، و تتحقق بعد ذلك منزلة العقل فى الاستدلالية به على صحة التأويل، كما تدعو إلى هذا جملة من الآيات القرآنية التى أكدت جانب العقل فى الاستظهار التدبر و النظر.

و يبدو واضحا أن أهل العدل في نظرهم هذه للعقل «لا يريدون التفاضل بين حكم العقل و حكم الشرع إلا من حيث الاستدلال على العقيدة و التدبير بها بالنظر إلى أن العقل مناط التكليف، و لا يمكن تفضيله، و إلا أدى إلى إهداره النص، و التخفف من المسؤولية المنوطة به» (١). و من يدافع عنهم يذهب إلى هذا فيعتبرهم أصحاب دعوة للعقل حين يعرض القرآن لمسائل الاعتقاد أو أصول الدين، أو بعض الفروع، حتى ذهب جملة من الامامية على ما حكى عنهم السيد الحكيم إلى «أن العقل مصدر الحجج و إليه تنتهي» (٢).

و العقول و إن كان لها قابلية الإدراك إلا أنه إدراك يتناول الكليات، و لا يتعدى ذلك إلى الجزئيات و الفروع التي تحتاج إلى دليل نصي على إرادتها، و هذا لا يمانع من أن يدرك العقل خصائص كثيرة في تفسير النصوص جارية وفق مقتضيات العقل السليم، و يستفاد من هذا الرجوع إلى العقل السوي باعتباره مجردا غير خاضع لتأثيرات أخرى تصده عن الوصول إلى الواقع، و ذلك لإدراكه بالبداهة و الفطرة جملة من الأوليات و البديهيات و تسليمه بها تسليما تاما من قبيل الإدراك أن الواحد نصف الاثنين، و أن الكل أكبر من الجزء، و أن المظروف أصغر من الظرف، و أن العلم خير من الجهل، و أن الحسن أولى من القبح .. و هكذا.

و الذي يريد مخالفة هذا يقف موقفا مضادا لهذا الفكر، و يناقش جميع الاعتبارات المتقدمة، و في طليعة الأشاعرة المخالفين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ) في تفسيره. و يتابعه ابن تيمية في مقدمته

(١) السيد أحمد خليل، دراسات في القرآن: ١٢٢.

(٢) محمد تقي الحكيم، الاصول العامة للفقهاء المقارن ٢٩٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٤

لأصول التفسير، و يوافقهما الأخباريون من الامامية.

و الحق أن الدليل العلمي المقنع يعوز هؤلاء و هؤلاء، و

قد يورد بعضهم المأثور عن أهل البيت عليهم السلام: «إن دين الله لا يصاب بالعقول».

و ليس فيه حجة لهؤلاء، إذ ليس الأمر كما ذهبوا إليه من إبطال حجية العقل كمدرک لكليات الأمور، بل المراد من قولهم عليهم السلام: بيان عدم استقلال العقل في إدراك الأحكام و مداركها، أي أن الأحكام و مدارك الأحكام لا تصاب بالعقول استقلالا (١). و الظاهر أن هذه الأخبار و أمثالها إنما يعمل بها في مقام معارضة الاجتهاد بالرأى، و النص بالقياس، و العمل بالاستحسان بدعوى أن العقل الانساني يدرك الأحكام بهذه الملاكات، فيستنبط في ضوءها ما يشاء دون الرجوع إلى نص أو أثر أو مدرک شرعي، و هذا منفصل عنه دون ريب.

أما أهل العقل فلا يذهبون إلى هذا بل يجعلون ميزانه التعرف على الأحكام في مجمل القول، و أما تفصيله فهو يقودنا بطبيعة الموضوع إلى التدبير في مسألة أصولية، و هي مسألة أدلة التشريع عند المسلمين.

و أدلة التشريع عند الجمهور هي: الكتاب، السنة، القياس، الاجماع، و الاجماع مختلف في مفهومه و انطباقه لديهم متفلا بين إجماع الأمة، و إجماع الصحابة، و إجماع أهل الحل و العقد، و هو مختلف فيه أيضا بين أصول الدين و فروعها.

و أدلة التشريع عند الأصوليين من الامامية هي: الكتاب، السنة، الإجماع، العقل.

و أدلة التشريع عند الاخباريين من الامامية هي: الكتاب و السنة، و لا دور للإجماع و العقل معهما، أما عدم حجية الاجماع فتلخص: بأن الأمة لو اجتمعت على أمر، أو العلماء و الفقهاء من الأمة، فإن كان هذا الإجماع كاشفا عن رأى المعصوم عليه السلام، فهو إذن من السنة فيعود إلى الأصل الثاني من أدلة التشريع، و إن لم يكن كاشفا عن رأى المعصوم فلا قيمة عملية لإجماع العلماء بل الناس على شيء لا يستند إلى حجة نقلية.

(١) ظ: محمد رضا المظفر، أصول الفقه: ٣ / ١٣١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٥

وقد صرح المحقق الحلي بهذا الملحظ، وهو من كبار الأصوليين فاعتبر الإجماع حجة بانضمام المعصوم إليه، لا بحد ذاته، وهو بذلك يوافق الاخباريين في الفكرة فيقول: «و أما الإجماع فهو عندنا حجة بانضمام المعصوم، فلو خلا المائة من فقهاءنا عن قوله لما كان حجة، و لو حصل في اثنين لكان قولهما حجة، لا باعتبار اتفاقهما بل باعتبار قوله عليه السلام، فلا تغتر إذن بمن يتحكم فيدعى الإجماع باتفاق الخمسة و العشرة من الأصحاب مع جهالة قول الباقيين» (١).

و بهذا يظهر أن الإجماع عند الأصوليين حجة بانضمام المعصوم إليه لا- مستقلا، و لا- باتفاق العلماء مجردا، و هو موافق لرأى الاخباريين في النتيجة بعدم اعتباره حجة، لأن قول المعصوم أو فعله أو تقريره هو السنة بعينها، على أن تحقق الإجماع زمن غيبة المعصوم، متعذر، لتعذر ظهوره، و تعذر دخول رأيه في جملة أقوال العلماء. و قد ذهب إلى امتناع انعقاد الإجماع زمن الغيبة صاحب المعالم (٢)، و أما دليل العقل، فقد حقق القول فيه الشيخ يوسف البحراني (ت):

(١١٨٦ هـ) و هو من أعلام الامامية الاخباريين، و هو ينتصر لرأيهم حيناً، و يعارضهم حيناً آخر، و رائده في ذلك التحقيق العلمي، حتى ليظن أنه يعدل عن المذهب الأخباري، أو أنه في الأقل يصحح جملة من الآراء في ذلك.

قال قدس سره الشريف «قد اشتهر بين أكثر أصحابنا (رضوان الله عليهم):

الاعتماد على الأدلة العقلية في الأصول و الفروع و ترجيحها على الأدلة النقلية ... و عندهم متى تعارض الدليل العقلي و السمعي قدموا الأول و اعتمدوا عليه، و تأولوا الثاني بما يرجع إليه، و إلا طرحوه بالكلية» (٣).

و ذكر رأى المحدث الجليل السيد نعمه الله الجزائري، و هو ينعي على الأصوليين أنهم: ما اعتمدوا على شيء من أمورهم إلا على العقل، فقالوا: إذا تعارض الدليل العقلي و النقلى طرحنا النقلى أو تأولناه بما يرجع

(١) البحراني، الحدائق الناضرة: ١ / ٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٢٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٦

إلى العقل (١). و عنده: إن كان الدليل العقلي بديهيا ظاهر البدهية، كقولهم:

الواحد نصف الاثنين، فلا ريب بصحة العمل به، و إلا فإن لم يعارضه دليل عقلي و لا نقلى فكذلك، و إن عارضه دليل عقلي آخر، فإن تأيد أحدهما بنقلى كان الترجيح للمؤيد بالدليل النقلى، و إلا فشكال، و إن عارضه دليل نقلى فإن تأيد ذلك العقلي أيضا بنقلى كان الترجيح للعقلى ... هذا بالنسبة إلى العقلي بقول مطلق، أما لو أريد به المعنى الأخص و هو الفطرى الخالى من شوائب الأوهام، الذى هو حجة من حجج الملك العلماء، و إن شدّ وجوده بين الأنام، ففي ترجيح النقلى عليه إشكال، و الله العالم (٢).

و هنا نشاهد البحراني يقسم الدليل العقلي إلى قسمين: الأول: الدليل العقلي البديهي، و الثانى: الدليل العقلي الفطرى. و هو يرى: أن العقل الصحيح الفطرى حجة من حجج الله سبحانه و تعالى، و سراج منير من جهته جل شأنه، و هو موافق للشرع، بل هو شرع من داخل، كما أن ذلك شرع من خارج، ما لم تغيره غلبة الأوهام الفاسدة ... و هو قد يدرك الأشياء قبل ورود الشرع بها فيأتى الشرع مؤيدا له، و قد لا يدركها قبله، و يخفى عليه الوجه فيها، فيأتى الشرع كاشفا له و مبينا، فهو بهذا المعنى حجة إلهية.

أما بالنسبة للأحكام الشرعية فهي تحتاج إلى السماع من حافظ الشريعة، ووجوب التوقف و الاحتياط مع عدم تيسر طريق العلم - عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام - ووجوب الرد إليهم في جملة منها، وما ذاك إلا لقصور العقل المذكور عن الاطلاع على أغوارها، وإحجامه عن التلجج في لجج بحارها، بل لو تم للعقل الاستقلال بذلك لبطل إرسال الرسل، وإنزال الكتب «٣».

وقد تولى الأستاذ الأعظم الشيخ مرتضى الأنصارى (ت: ١٢٨١ هـ) الرد على الاخباريين القائلين بعدم حجية العقل فقال: «ما ورد من النقل

(١) المصدر نفسه: ١/ ١٢٦.

(٢) البحراني، الحدائق الناضرة: ١/ ١٣٢.

(٣) ظ: المصدر نفسه: ١/ ١٣١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٧

المتواتر على حجية العقل، وأنه حجة باطنية وأنه مما يعبد به الرحمن، وتكتسب به الجنان، ونحوها، مما يستفاد منه كون العقل السليم أيضا حجة من الحجج، فالحكم المستكشف به حكم بلغه الرسول الباطني الذي هو شرع من داخل، كما أن الشرع عقل من خارج «١».

وبالنسبة للأخبار المانعة في ظاهرها عن العمل بالعقل فقد تأولها بأن المقصود من هذه الأخبار: عدم جواز الاستبداد بالأحكام الشرعية بالعقول الناقصة الظنية، على ما كان متعارفا في ذلك الزمان من العمل بالأقيسة والاستحسانات من غير مراجعة حجج الله بل في مقابلهم عليهم السلام، وإفادراك العقل القطعي للحكم المخالف للدليل النقلى على وجه لا يمكن الجمع بينهما في غاية الندرة، بل لا نعرف وجوده «٢».

وكان قبله قد قال «و الذي يقتضيه النظر وفاقا لأكثر أهل النظر أنه كلما حصل القطع من دليل عقلي فلا يجوز أن يعارضه دليل نقلى، وإن وجد ما ظاهره المعارضة فلا بد من تأويله، إن لم يمكن طرحه» «٣».

ويعلل ذلك: بأن الأدلة القطعية النظرية في النقليات مضبوطة محصورة، ليس فيها شيء يصادم العقل البديهي والفطري «٤». وما تقدم ظهرت وجهه النظر في دليل العقل بين المسلمين، و منشأ الخلاف بين الأصوليين و الاخباريين فيه، و هو في أغلبه خلاف لفظي مع حفظ الأصول.

### ٣- المصدر اللغوي:

يمكننا أن نصل إلى ضرورة هذا المصدر عقليا و حسيا، لأن استقراء ما كتب في القرآن و تفسيره يدلنا على حقيقتين هما: الأولى: إن كثيرا من الأئمة و الصحابة و التابعين كانوا إذا سئلوا عن

(١) الانصارى، فرائد الاصول: ١١/ طبعة حجريه / ١٣٧٤ هـ.

(٢) المصدر نفسه: ١١.

(٣) المصدر نفسه: ١٠.

(٤) المصدر نفسه: ١١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٨

معنى كلمة غريبة في القرآن رجعوا إلى شعر العرب، و استشهدوا بأقوالهم و جعلوا ذلك ميزانا حاكما فيما يجيئون به، و هم بذلك يختلفون شدة و ضعفا، إلا أن أشهرهم بذلك ابن عباس.

الثانية: إن أرباب المعرفة، و جهابذة اللغة، و في طليعتهم: أبو عبيدة و الفراء و المبرد و ابن قتيبة و الزجاج و الشريف الرضى و الراغب الأصبهاني و أمثالهم، قد ألفوا في الغريب و المعاني و الألفاظ القرآنية، و قد أرجعوا جملة كبيرة من أصول ذلك إلى أقوال العرب، و ما يؤثر عنهم من شعر و نثر و مثل.

فإذا أضفنا إلى ذلك خصيصتين:

الأولى: إن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فأهل اللسان بعد هذا عادة هم أدرى به و أروى للغة، و هو موجه لهم، و عليهم معرفة ما فيه من أمر و نهى، و زجر و عبرة، ليكون التكليف منسجما مع الفهم، أما تكليف الانسان بما لا يفهم و لا يعي فهو خلاف التبيين الذى صرح به الكتاب الكريم.

الثانية: إن المفسرين بصورة عامة قد استندوا على اللغة في كثير من النصوص القرآنية، فبحثوا القراءة و الحجة و الأعراب و الأصوات و التصريف و علل النحو، كما خاضوا في تفصيلات اللغة المنسجمة مع بلاغة القرآن من مجاز و كناية و استعارة و تشبيه و تمثيل مما يسهل فهم القرآن، و كان هذا الأمر متداولاً فيما بينهم منذ نشأة التفسير في أحضان علم الحديث حتى تطوره و تجدده في القرون المتأخرة و العصر الحاضر.

و من مجموع ما تقدم يمكن القول من خلال الأمر الواقع بصلاحيه اللغة مصدرا تفسيرا غنيا، و بانضمامه إلى المصدرين الثقلي و العقلي، يتوصل عادة إلى فهم مراد الله تعالى من كلامه في كتابه العزيز.

و لم يكن هذا أمرا نحن ابتدعناه، أو رأيا من عندنا طرحناه، و إنما سبقنا إليه من سبق، و نص عليه كثير من العلماء و الفقهاء حتى عاد مجالا خصبا لكثير من الأقوال.

روى عن أنس بن مالك قوله: «لا أوتى برجل غير عالم بلغات

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٧٩

العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا» (١).

و يقتضى هذا أن العالم بلغات العرب له تفسير كتاب الله، إلا أنه قد يشكل هنا: بأن المراد بلغات العرب لهجاتها، و هى شىء، و الاضطلاع بلغة العرب شىء آخر، فيرد هذا الزعم بأنه خلاف الظاهر من مراده، و يندفع على فرض صحة الأشكال بما أتى:

«فإن قيل: هل يجوز لأهل العلم باللغة العربية أن يفسروا القرآن على شرائط اللغة؟ و معانى غريبها؟ قلنا: ما كان تحت الكلام من المعانى الكبيرة التى تحملها اللغة، فعليه أن يفسر ذلك على ما لا تدفعه حجج العقول، و من الدليل على ذلك أيضا إجماع أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله و سلم على تفسير القرآن على شرائط اللغة» (٢).

و قد أوضح الطوسى (ت: ٤٦٠ هـ) إن معانى القرآن على أربعة أقسام لدى تفسيرها، و أن الثانى: ما كان ظاهره مطابقا لمعناه، فكل من عرف اللغة التى خوطب بها عرف معناها (٣) فقد احتج بمعرفة اللغة على تفسير النوع الثانى من معانى القرآن و هو مما يعضد هذا المصدر. و كان قد ذكر فى مقدمته تفسيره: أن الفراء و الزجاج و من أشبههما من النحويين، أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالإعراب و التصريف. و أن المفضل بن سلمة و غيره قد استكثروا من علم اللغة، و اشتقاق الألفاظ (٤). و لم ينتقدهم على ذلك و إنما أراد منهم الرجوع مضافا إلى المصدر اللغوى إلى المصدرين المتممين له، و هما الثقلي بخاصة، و العقلي عموما.

و الحاجة إلى اللغة فى التفسير تصبح ضرورة عند ما لا نجد نصا يفسر لنا القرآن، و فى مثل هذه الحالة يكون التوصل إلى فهمه فى النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب و مدلولاتها بحسب السياق. و بديهى أن فقدان النص - عادة - لا يكون إلا حينما يكون النص القرآنى مفهوما

(١) الزركشى، البرهان: ١٦٠ / ٢.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٠١.

(٣) الطوسى، التبيان: ٥ / ١.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٠

بحسب التبادر الذهني العام عند إطلاق الألفاظ في اتضاح مدلولاتها لغوة.

و ليس لغير العالم بحقائق اللغوة و مفهوماتها تفسير شىء من الكتاب العزيز، و لا يكفى فى حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا، و هو يعلم أحد المعنيين «١».

قال الشيخ الطوسى: «و متى كان التأويل يحتاج إلى شاهد من اللغوة، فلا يقبل من الشاهد إلا ما كان معلوما بين أهل اللغوة، شائعا بينهم. و أما طريقة الآحاد من الروايات الشاردة، و الألفاظ النادرة، فإنه لا يقطع بذلك، و لا يجعل شاهدا على كتاب الله، و ينبغى أن يتوقف فيه، و يذكر ما يحتمله و لا يقطع على المراد بعينه، فإنه متى قطع بالمراد كان مخطئا، و إن أصاب الحق» «٢».

و الطوسى بهذا يضع المصدر اللغوى فى هامش الأدلة العقلية و الشرعية، لأنه يشترط به الشياح عند أهل اللغوة، و التواتر فى نقولهم، فالشاذ لا يفسر به القرآن، و النادر لا يكون دليلا على التأويل، و لا شاهدا على كتاب الله تعالى حتى و إن أصاب به الواقع، لأنه قائم على الظن و الحدس - لا القطع و اليقين بخلاف الدليل النقلى المتواتر، أو الملحظ العقلى المقطوع بصحته، و فى هذا ضبط دقيق لمشروعية هذا المصدر.

و لقد بالغ ابن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) فى تقويمه للمصدر اللغوى - خلافا للطوسى - حينما اعتبر العرب جميعا يفهمون تركيب القرآن و معانيه، لأنه نزل بلغتهم، فقال:

«إن القرآن نزل بلغته العرب، و على أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، و يعلمون معانيه فى مفرداته و تركيبه» «٣».

و مهما أوتى العربى من دقة الفهم، و ملكة الاحاطة باللغوة، و سعة الثقافة فى المفردات، فلن يستطيع سبر أغوار القرآن جميعا، و لا كشف

(١) ظ: الزركشى، البرهان: ١٦٥ / ٢.

(٢) الطوسى، التبيان: ٧ / ١.

(٣) ابن خلدون، المقدمة: ٣٦٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨١

أبعاده كشفا مميزا بحيث يبلغ بذلك الذروة، نظرا لرقى الكتاب نظاما و تأليفا - كونه كلام الله تعالى - مما يجعل ذلك متعسرا على الكثيرين من القدامى و المحدثين، فكيف تصح الدعوى بفهم العرب جميعا للقرآن.

«و إذا لم يفهم الانسان قواعد اللغوة، و لا - أصول العربية خبط خبط عشواء، و كان عليل الرأى سقيم الفهم، و كذلك من لم يفهم غرض الشرع وقع فى الجهالة و الضلالة «١». على أن الاستاذ الطباطبائى يرى أن ليس بين آيات القرآن آية واحدة ذات إغلاق و تعقيد فى مفهومها (مفهوم اللفظ المفرد أو الجملة بحسب اللغوة و العرف العربى)، بحيث يتحير الذهن فى فهم معناها، و كيف؟ و هو أفصح الكلام، و من شرط الفصاحة خلو الكلام عن الإغلاق و التعقيد، و القرآن كلام عربى مبين لا يتوقف فى فهمه عربى و لا غيره ممن هو عارف باللغوة و أساليب الكلام العربى «٢».

نعم، المصدر اللغوي يحتاجه المفسر لرفع التدافع في الألفاظ المشتركة، أو المختلفة الدلالة، أو الغريبة مما أُلّف به العلماء في الغريب، أو مما لم يؤلف استعماله، أو من جهة النقل المنقلب، وهكذا... وفيها كلها شواهد من القرآن الكريم، فالأول: كقوله تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا عَشْعَسَ ١٧ «٣».

قيل: أقبل، وقيل: أدبر.

و القروء في قوله تعالى: ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ «٤».

فالقرء مشترك بين الطهر والحيض. والصريم، في قوله تعالى فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠ «٥» قيل: معناه كالنهار مبيضة لا شيء فيها، وقيل: كالليل مظلمة لا

(١) محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن: ١٧٦.

(٢) ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٩ / ١.

(٣) التكوير: ١٧.

(٤) البقرة: ٢٢٨.

(٥) القلم: ٢٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٢

شيء فيها «١»، والغريب، كقوله تعالى: فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ «٢» والنقل المنقلب، كقوله تعالى: وَطُورٍ سَيْنِينَ ٢ «٣» أي طور سينا.

وما لم يؤلف استعماله كقوله تعالى: أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ «٤» بمعنى يسمع، ولا يستعمل الآن أُلقيت سمعي.

لهذا كان ما قرره أبو حيان الأندلسي (ت: ٧٥٤هـ) أمرا بديها حينما يقول:

«و من أحاط بمعرفة مدلول الكلمة وأحكامها قبل التركيب، وعلم كيفية تركيبها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييز حسن تركيبها وقبحه، فلن يحتاج في فهم، ما تركب من تلك الألفاظ إلى مفهم ومعلم» «٥».

وهو يؤكد على المصادر اللغوية ومعرفة أحكام الكلم، وكون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح، ويرجح الرجوع في معرفة علم اللغة، ومعاني الحروف، وفروع الكلمة تيسيرا لفهم القرآن الكريم إلى ابن سيده والأزهري، والفراء، والجوهري، وأبي علي القالي والصاغاني و ثعلب.

كما يستحسن الرجوع إلى دواوين العرب، لا سيما مشاهير الشعراء، كالشعراء الستة: امرئ القيس، والنابغة، وعلقمة، وزهير، وطرفة، وعترة ممن يستدل بشعرهم على معرفة معنى اللفظ، كما يجب الرجوع إلى علم المعاني والبيان والبديع، ويرجح منها كتابي: محمد بن سليمان النقيب، وحازم القرطاجني، ويختتم هذا التأكيد اللغوي بقوله: «ولا ينبغي أن يقدم على تفسير كتاب الله إلا من أحاط بجملته من غالبها من كل وجه منها، ومع ذلك فإنه لا يرقى من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي صهوته، إلا من كان متبحرا في علم اللسان، مترقيا منه إلى مرتبة الاحسان» «٦».

(١) ظ: الزركشي، البرهان: ٢ / ٢٠٩.

(٢) البقرة: ٢٣٢.

(٣) التين: ٢.

(٤) ق: ٣٧.

(٥) أبو حيان، البحر المحيط: ٥ / ١.

(٦) المصدر نفسه: ٦/١ وما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٣

و يضع الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) علم البلاغة في ذروة الاحاطة اللغوية، فيعتبر علم المعاني و علم البيان: الأصل القويم في معرفة التفسير لكتاب الله، فالفقيه و إن تقدم، و المتكلم و إن بزّ أهل الدنيا، و الواعظ مهما بلغ، و النحوي و إن كان أنحى من سيبويه، و اللغوي و إن تفوق، لا يصل أحد من أولئك إلى حقائق التفسير «إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، و هما علم المعاني و علم البيان، و تمهّل في ارتيادهما آونه، و نصب في التنقيح عنهما أزمته» (١).

و اشتراط الزمخشري لعلم البلاغة يبدو و جيا حينما نلاحظ أن المعنى اللغوي و الجمود عليه وحده قد لا يؤدي المعنى التام ما لم يضم إليه الفهم البلاغي للنص و دلالة عليه، فقد يدلّ الظاهر اللغوي منه على معنى، إلا أنه يعود ناقصا بالنسبة لواقع المعنى الحقيقي، لذلك يحترز بالبلاغة عن هذا النقصان، و يستعاض بها لاستجلاء الحقائق.

و مما يؤيده قول الزركشي: «و من أحاط بمظاهر التفسير، و هو معنى الألفاظ في اللغة، لم يكف ذلك في فهم حقائق المعاني، و مثاله قوله تعالى: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (٢) فظاهر تفسيره واضح، و حقيقة معناه غامضة، فإنه إثبات للرمى و نفى له، و هما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه و لم يرم من وجه، و من الوجه الذي لم يرم ما رماه الله عز و جل» (٣).

و هذا يجرنا إلى دلالة الألفاظ لدى إطلاقها في القرآن الكريم عند الاستعمال، و هو بحث تناوله الأصوليون بشيء من التفصيل المكثف، و سأحاول تلخيص رأى سيدنا الأستاذ السيستاني دام ظله الوارف:

إن إطلاق اللفظ مع القصد لمعناه على نوعين:

١- كون المعنى متعددا، سواء أ كانا حقيقيين أم مجازيين أم مختلفين.

(١) الزمخشري، الكشاف: ١٦/١.

(٢) سورة الانفال: ١٧.

(٣) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: ١٥٥/٢ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٤

٢- كون المعنى المستعمل فيه واحدا لكن المراد الجدي متعدد، و ذلك في المجاز بناء على كون المجاز عبارة عن عدم تطابق المراد الاستعمالي مع المراد الجدي، و مورد البحث هو إطلاق اللفظ مع إرادة عدة معان، و إطلاقه مع إرادة المعنى الواحد و هذا الأخير مما لا كلام فيه، لأنه الأصل و هو الاستعمال الحقيقي الكاشف عن المراد، و لكن الكلام حول إطلاق اللفظ في القرآن و إرادة عدة معان منه كما هو الحال في الوحدة الحقيقية، و تعني إرادة الجامع المنطبق على المعاني انطباق الكلي على أفرادها، فقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ وَ مَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ (١) قد استعمل فيه لفظ الصلاة في الجامع بين صلاة الله و صلاة الملائكة و هو العطف، لا أن المستعمل فيه متعدد، فقد قال المفسرون بأن صلاة الله هي رحمته، و أن صلاة الملائكة هي استغفارهم.

و قد يستعمل اللفظ الواحد بمعنى من المعاني، لكن كفيته تختلف باختلاف المكلفين أو الكائنات كما هو ظاهر في قوله تعالى: اللَّهُ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ (٢). فالمستعمل فيه لفظ السجود و هو بمعنى الخضوع، و إن كان كل خضوع بحسبه، لا أن المستعمل فيه متعدد باعتبار أن سجود الملائكة هو الخضوع، و سود البشر وضع الجبهة على الأرض، و سجود الشمس انقيادها التكويني لأمر الخالق، و كذا القمر و النجوم (٣).

و من خلال رأى الزمخشري و الزركشي و السيستاني يبرز دور البلاغة العربية في رصد المراد بألفاظ القرآن الكريم حقيقة و مجازا و دلالة، انفرادية في الاستعمال أو مجموعة إلى ما سواها من قرائن الأحوال، و صياغة البيان، و دلالة الالفاظ.



و يبدو مما سلف أن المصدر اللغوي يمثل الأصالة الفكرية التي تقوم و تبرمج المناخ التفسيري على أساس من اللغة و الفن و البلاغة. و بإلغاء هذا

(١) سورة الاحزاب: ٥٦.

(٢) سورة الحج: ١٨.

(٣) على الحسينى السيستانى، الرافد فى علم الاصول: ١٨٦ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٥

المصدر يبقى التفسير جامدا، و الفكر خاملا، و إذا حدث هذا أصبحت العملية التفسيرية لا روح فيها و لا طعم لها، و نحن نريد للتفسير أن يتأطر بإطار الخلق و الابداع، لا أن يتسم بطابع الخمول و الجمود.

إن المناظرة الفنية، و الجهد اللغوى، و الملحظ البلاغى، يؤصلان كل نصّ مهما كانت هويته و قيمته، و القرآن الكريم هو أرقى النصوص على الإطلاق، فنتج من هذا: أن تتصافر مجموعة الفنون التقويمية لإبراز دور كتاب العربية الأكبر فى خلق الحضارة، و دعم التراث، و مواكبة الحياة، و إنقاذ المسلمين، و لَمّا كان المصدر اللغوى أحد الطرق المؤدية إلى ذلك، أصبح بالضرورة الإفادة منه على أتم وجه، لأنه يعنى بلغة القرآن و أسلوبه و جماله.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٧

## الفصل الرابع مناهج التفسير

### إشارة

تعدّد المناهج:

- ١- المنهج القرآنى ٢- المنهج الأثرى ٣- منهج الرأى ٤- المنهج اللغوى ٥- المنهج البيانى ٦- المنهج الصوفى أو الباطنى ٧- المنهج العلمى ٨- المنهج التاريخى ٩- المنهج الموضوعى ١٠- مناهج أخرى
- المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٨٩

### تعدد المناهج:

### إشارة

هنالك طرق فى التفسير، و أساليب للتعبير عنها، فيها جدّة و فيها تلوين، و بها تجوز أو تسويغ، و من ضم بعضها إلى البعض الآخر يتجلى أنها تتراوح بين ثلاثة أقسام هى:

١- القسم الشائع، و هو المرضى عند العلماء.

٢- القسم الحادّث مما لا مانع فيه، و إن عورض بتوقف.

٣- القسم المهنى عنه أو المناقش فيه.

أما القسم الأول فيمثل جزءا كبيرا منه، التفسير بالقرآن و بالأثر، و التفسير البيانى، و التفسير التشريعى، و التفسير اللغوى و المعجمى، و التفسير الأدبى و الموضوعى، و ما سار بهذا الاتجاه مما لا يخرج بالقرآن عن جوهره و حقيقته.

و أما القسم الثانى، فيمثله التفسير الاحتجاجى أو الكلامى، و الفلسفى أو العرفانى، و يفصل فيه القول العلمى و موافقه ما فى القرآن

للعلم الحديث كأسرار الخليقة، و مقتضيات الطبيعة، و تقلبات الكون، و قضايا السماء و العالم كروجية الكائنات، و موازين الأشياء، و أبعاد السماوات، و كروية الأرض، مما يعتبر عند قوم -أمرًا مرغوبًا فيه بحدود إقامة الدليل على سبق القرآني في مجالات المعرفة الانسانية، و مما يعتبر إقحامًا لا مسوغ له على القرآن، و تمحلا لا جدوى معه عند قوم آخرين.

و أما القسم الثالث، فهو المنهى عنه، أو المناقش فيه سلبًا و إيجابًا

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٠

كالتفسير الصوفي من وجه، و الباطني من وجه، و كالتفسير بالرأى القائم على أساس الهوى و البدع و الاضليل، أو القناعة الشخصية دون تمحيص أو استنباط.

و هذا التعدد في مناهج التفسير جعله ينتقل عند المسلمين تبعًا لتعدد التخصص لدى كل منهم، و قد أخذ يلون التفسير بثقافة المفسر، فالمفسر بمستواه الفكري هو الذي يحدد نوعية تفسيره، و هو الذي يجدد من صيغته و مفاهيمه، فقد يجر العبارة القرآنية إلى معنى يدور في خلدته و هي لا تصور ذلك، و قد يفسر النص القرآني بحكم تعلقه بمبدأ ما، يحاول الاطمئنان إليه من هذا المجال، أو يحاول طمأنة الآخرين إليه، فما أكثر ما تجد الروايات إلى جنب المهارات، إلى جنب الثقافة الشخصية تدفع بك دفعا إلى القناعة بما خطط هذا أو ذاك، فالملامح الذاتية للمفسر تبدو واضحة شاء أو أبى، و قد يتعنت البعض منهم و يحملك على الايمان بما لم تؤمن به، و إلى الثقة بما لا يوثق فيه، و قد تعاقب على ذلك الجانب العقلي من جهة، و الميل النفسى من جهة أخرى، يدعمهما أثر من رواية أو نقل، و حجة من لغة أو عرف، و تعلق بأسطورة أو نسيج خيال، فترعرعت الاسرائيليات، و بدأ التأثير فيها واضحا و أثرها في النص بينا، فاختلط الحابل بالنابل و فقدت الموازين، فعاد المنهج الموضوعى للتفسير القرآني في منأى عن الواقع التفسيري، و بدأ الغرض التوجيهي للقرآن ثانوي المكان (١).

لقد ظهر التصوف مقارنا للمذهب الفلسفي الذي ألقى بجرانه في ساحة العالم الاسلامي، فأولى الرياضة النفسية و المجاهدة ما أولاها، و قدمها على ما سواها من البحث الموضوعي، فاستخدمت الفلسفة في تفسير النص، و الحكمة في اثبات المراد، و المسالك الصوفية في تأويل القرآن. و إن خالفت القواعد، و اصطدمت بنزاهة الرواء، و تشعب الأساتيد، و تابعهم على ذلك جملة من المحدثين فقبعوا على الاختلاف و الاسفاف بين

(١) ظ: الاثر الاسرائيلي في هذا المجال، الدكتور رمزي نعناعة، الاسرائيليات و أثرها في كتب التفسير.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩١

وثاقه الرواء و الاختلاق، و غزت العزلة المسلمين فنعنوا بترهات الحياء عن الواقع، و لجأوا بالابتعاد عن الناس إلى الفرار فتذرعوا بتفسير الباطن و حجب الظواهر و التعلق بالتأويل الاشاري حينًا، و الصوفي حينًا آخر بما لم ينزل الله به من سلطان. و أناخت فلسفة المتكلمين بكلكلها و حطت مذاهب الاحتجاج بثقلها، فتعصب كل لقضيته، و نصر كل كلامي مذهبه فتشتت الحقائق بيد النزعات. و خلد قوم إلى الفلسفة القديمة، و نزع آخرون إلى الفلسفة الحديثة فاحضعوا القرآن مجتمعين للتطبيق العملي على الرياضيات المفترضة فتأولوا كثيرا من مسلمات القرآن كالحياة بعد الموت و البعث و النشور و الجنة و النار و حدوث السموات و الأرض تأويلا يلائم عناصر الفلك، و حساب النجوم، و تعدد البروج، بينما تابعهم آخرون بتأثير من الثقافة الغربية فبنوا آراءهم على الحس و التجربة و المعادلات الفيزيائية، و أولوا كل المظاهر القرآنية التي تتنافى مع هذا المنهج، فلزم من ذلك عزل الجانب الروحي في القرآن، و تسويغ الجانب المادي المحض، و هي أحكام فجأة تتجافى مع طبيعة القرآن التشريعية، في حين جمد في قبائلهم أهل التجسيم فطبعوا ظاهر الآيات بطابع الامر الواقع، فقالوا باليد حقيقة، و بالعين جارحة، و بالعرش تجسيدا، و بالكرسى مكانا، و باللوح كتابة و بالمجىء ذاتا، و بتجليه سبحانه زمانا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، إلى جانب هذا كله تجد تخصص الفقهاء في الاحكام الشرعية يملى عليهم استبعاد

الجانب الفنى، و الروح الاعجازى فى القرآن، كما تجد تخصص النحاء منصبا حول شواخص الاعراب، و مواقع الجمل و هكذا. و بملاحظة هذه الجوانب، و تأمل هذه المسالك تجد أن هذه المناهج إلا ما عصم الله - مشتركة فى تحميل القرآن الكريم كل «ما أنتجته الابحاث العلمية أو الفلسفية من خارج مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقا، و تسمى به التطبيق تفسيرا» (١). و مع هذه الملاحظة التى جعلت من التفسير شيئا خارجا عن حدود التفسير الاصطلاحية حينا و الموضوعية حينا آخر، إلا أننا نجد فى ذلك

(١) محمد حسين الطباطبائى، الميزان فى تفسير القرآن: ٦ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٢

ثروة تراثية كبيرة أمدت روافد العلوم الجممة بإمدادات ثقافية، إلا- أنها ليست الاصل فى مباحث القرآن، بل هى توابع له و وسائل تكشف الطريق أمام تحصيل معانيه. و فى ضوء ما تقدم نضع لمحة مركزه و مختصرة عن كل منهج من مناهج القوم تعين الباحث على استقراء المجهول من معالم التفسير.

### ١- المنهج القرآنى:

و هو كما يبدو يفضى إلى مراد الله تعالى من قرآنه الكريم، و ذلك عن طريق مقابلة الآيه بالآيه، و النص بالنص ليستدل على هذه بهذه فإن قيل أى الطرق أصح فى تفسير القرآن، فالجواب: إن أصح الطرق فى ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل فى مكان فإنه قد فسر فى موضع آخر، و ما اختصر فى مكان فقد بسط فى موضع آخر...» (١). و هذا أمر طبيعى تدل عليه وقائع القرآن، فقصه فرعون و موسى، و موسى و قومه، و عيسى و الحواريين، بل و آدم و سجود الملائكة، و ابليس و تكبره، أو جزت فى موضع و فصلت فى موضع آخر، و أجملت فى سورة و بينت فى سورة أخرى، و ما يقال هنا عن الأحداث يقال بعينه عن الأحكام و الأزمنة و البقاع ما يبين منها بعد الاجمال قال الامام على عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به، و تنطقون به، و تسمعون به، و ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض، و لا يختلف فى الله، و لا يخالف بصاحبه عن الله» (٢).

و ما استدرك بعد الاستثناء، و نماذج ذلك كثيرة فى القرآن حتى ليتعذر حصرها على وجه الدقة، و من ذلك:

أ- فى قوله تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فُسِّرَتْ بِالْآيَةِ نَفْسًا، و ذلك قوله تعالى: مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٣).

ب- و فى قوله تعالى: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ و هى الآية الرابعة

(١) ابن تيمية، مقدمة فى أصول التفسير: ٩٣.

(٢) آل عمران: ٩٧.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد: ٢٨٧ / ٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٣

من الفاتحة بين الله هذا اليوم فى سورة الانفطار. فقد أوضح فيها ما غم على الناس، و بين ما أشكل، فقال تعالى: وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٨ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ١٩ (١). فبدا من هذا أن يوم الدين هو يوم القيامة لانطباق الحالات و الأوصاف عليه تهويلا و افتقارا، و اختصاص الامر بالله الواحد القهار.

ج- فى قوله تعالى: فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ (٢) قد أبهم زمان تعيين هذه الليلة. و لكن الابهام قد رفع بقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١

«٣» فالمباركة في الزمان هي ليلة القدر في هذه السورة لأن الانزال واحد «٤».

د- هناك كثير من الاحكام الشرعية أجملت بمكان، وفسرت بمكان آخر من القرآن كالطلاق و القصاص، و حلال اللحوم و حرامها فالقصاص مثلا أجمل في المائة: وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ «٥» و فسر مبينا في قوله تعالى: الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ «٦». و في قوله تعالى: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ «٧» استثناء مجمل مبهم، بينته و أوضحت آية أخرى هي: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُّ وَ لَحْمُ الْخَنزِيرِ «٨».

و بملاحظة ما تقدم يتجلى شأن القرآن الكريم في تفسير بعضه لبعض الآخر، و لهذا اعتمده كثير من السلف الصالح و سار عليه المتشعبة حتى زمننا الحاضر، و الحق أن هذا المجال من المنهج يكون عاملا- مساعدا في كشف عيون التأويل، و استخراج كنوز القرآن، و لكنه لا يستوعب القرآن تفسيراً ما لم يضم إليه الأثر و اللغة.

(١) الانفتار: ١٧-١٩.

(٢) الدخان: ٣.

(٣) القدر: ١.

(٤) الزركشى، البرهان: ١٨٨ / ٢.

(٥) المائة: ٤٥.

(٦) البقرة: ١٧٨.

(٧) المائة: ١.

(٨) المائة: ٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٤

قال السيد الخوئي في مقدمته تفسيره: «و سيجد القارئ أيضا أنى كثيرا ما استعين بالآية على فهم أختها، و استرشد القرآن إلى إدراك معاني القرآن ثم اجعل الأثر المروى مرشدا إلى هذه الاستفادة» «١».

و قد ظهر حديثا نوع من التفسير يقتصر على هذا المنهج و هو لعبد الكريم الخطيب أسماء «التفسير القرآني للقرآن». و قد كان بودى أن أفضل القول في هذا المنهج فأعنى بأهميته و نشأته و تاريخه و تطوره، إلا أنني لاحظت فيما بعد أن الدكتور كاصد ياسر الزيدى قد أشبع هذه الفكرة بحثا و تمحيصا فيما كتبه بمجلة آداب الرافدين «٢».

## ٢- المنهج الأثرى:

و المراد بالأثر هو: الأثر الصحيح الوارد عن النبي و آله، أو الصحابة و التابعين مرفوعا إليه «فإن أعيانك ذلك (أى فهم القرآن بالقرآن) فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن و موضحة له، بل قد قال الامام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فهو مما فهمه من القرآن» «٣».

و قد تعقب بيان هذا ابن تيمية نفسه فقال:

«و الغرض انك تطلب القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة الشريفة» «٤».

و مدرك هذا التفسير السنة الشريفة، و الرواية الثابتة الصحيحة عن الاهل أو المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن الصحابة أو من في حكمهم من أوائل التابعين.

أ- السنة الشريفة: لا شك أن السنة شارحة للقرآن، و مبينة لمجمله، و موضحة لغامضه، و

قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

(١) الخوئي، البيان: ٢٢.

(٢) ظ: د. كاصد الزيدى، تفسير القرآن: بالقرآن، أدب الرفادين، اصدار جامعة الموصل، العدد الثاني عشر، ٢٨٥ - ٣٢٤.

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير ٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ٩٤. المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٥

«ألا أنى أوتيت القرآن ومثله معه»

يعنى السنة «١».

ولا شك أن السنة القطعية الصدور عن النبي وأهل البيت هي عدل القرآن، في شرح كلياته وتفصيل مجملاته، إلا أنه يجب الحيطة في دراسة مصدرها وسندها، والتثبت من صحتها وصدورها، لأن الكذابة كثرت على الرسول وأهل بيته، فالتحرز في ذلك طريق الاطمئنان، والاحتياط سبيل النجاة.

وزيادة على ما تقدم ينبغي رصد الاسرائيليات من الروايات التي نشرها أهل الكتاب مما لم ينطق به النبي، ولم ينسب به معصوم بنت شفة، ورصد ذلك يعنى طرحه، وعدم الاخذ به، كما رد العلماء كثيرا من ذلك وشككوا في نسبته إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بل واعتبار كل ذلك موضوعا عليه، ولا من دليل نصي أو ديني أو تاريخي على صحته. أما الوارد عنه قطعيا فهو ليس من هذا الباب، وحجته ثابتة على الناس، ولا يجوز التعدي منه إلى غيره.

قال الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) «واعلم أن الرواية ظاهرة في اخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالاثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن الأئمة عليهم السلام، الذين قولهم حجة كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأن القول بالرأى لا يجوز» (٢).

وقد تقدم في مصادر التفسير ما يدل على ذلك.

ب- الرواية الثابتة عن الصحابة أولاً وعن التابعين ثانياً. وليس المراد هنا أقوالهم المجردة على أصح الآراء، فإنه لا يجوز التفسير بمظنون الرأي، ومجرد الاعتقاد، وإنما أخذنا بقول الحاكم في المستدرک «إن تفسير الصحابي الذي شاهد التنزيل له حكم المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و آله و سلم «٣». لأن الصحابي شاهد قرائن الاحوال ومقتضيات المقام ومناسبة الحال، نظرا لقرب عهد الصحابة من الرسول ... و دراية الثقات منهم بأسباب النزول

(١) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ١٧٥ / ٢.

(٢) الطوسي، التبيان: ٤ / ١.

(٣) ظ: السيوطي، الاتقان: ١٧٥ / ٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٦

مضافا إلى الفهم العربي المحض الذي تميزوا به، هذا إذا كان الصحابي ثقة ثبتا ذا فهم عربي أصيل، إذ لم يكن كل الصحابة من الثقات، ولم يكن كلهم على فهم عربي واحد للنصوص، بل وكان قسم منهم يعتمد النظر إلى ما يقوله أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لا سيما في قصص الأنبياء، وأخبار بني اسرائيل، وسرد أسماء لأعلام وأماكن وبقاع لم ينص عليها أثر من كتاب أو سنة. واختلاف الصحابة في جملة من التفاسير ينبى عن ذلك، ويرد إلى تفاوت الفهم عندهم «١».

ويبدو أن ابن عباس وابن مسعود (رض) يحتلان المنزلة الكبرى من بين مفسرى الصحابة، فقد كان ابن عباس يلقب بحبر الامة، و

ترجمان القرآن، وقد دعا له رسول الله بالتفقه بالدين و معرفة و تعلم التأويل كما في بعض الآثار «٢»، و هو ذو حس عربي أصيل، و اجتهاد بمعاني كتاب الله و هو يعتمد على التفسير القرآني للقرآن و السنة، و الاجتهاد المستند إلى اللغة و شواهد الايات، و كتب التفسير حافلة بأرائه، و له تفسير مجموع من كتب التفاسير. و كذلك الحال بالنسبة لابن مسعود فقد قال: و الذي لا إله إلا هو ما نزلت آية في كتاب الله إلا و أنا أعلم فيمن نزلت و أين نزلت، و لو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته «٣».

و تأتي حجية هؤلاء في التفسير بعد النبي و آله، فما كان موافقا لكتاب الله و سنة نبيه أخذ به من قوليهما، و أقوال أختيارهم، و ما كان مجانباً لهما ضرب به عرض الحائط و هذا لا يقدح بمنزلةتهما، و إنما يرد إلى سند الرواية عنهما، أو للالتباس الذهني الذي يقع فيه غير المعصوم، و «إذا لم تجد التفسير في القرآن و لا في السنة و لا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه آية في التفسير» «٤».

و هؤلاء التابعون منهم من صحت طريقتهم، و حمدت منهجيتهم، و منهم

(١) اختلاف الصحابة في: السيوطي، الاتقان: ٢ / ١٤١.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ٣٣ / ١٣.

(٣) الزركشي، البرهان: ٢ / ١٥٧.

(٤) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: ١٠٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٧

من فسد رأيه، و تلاشت موضوعيته فيجب اخضاع كل واحد منهم إلى مقاييس الجرح و التعديل فيما تعارف عليه أهل الرجال، و هذا يعني أننا نجد الموثق منهم كالحسن و قتادة و مجاهد. و المجرح كأبي صالح و السدي و مقاتل و غيرهم «١».

و هنا يجدر بنا أن نعرض بعض نماذج التفسير بالمأثور عند جملة من القدامى، ثم نتبع ذلك بقائمة بأشهر كتب التفسير، و يبدو أن الطبري (ت):

٣١٠ هـ) في أغلب أجزاء تفسيره المرسوم ب (جامع البيان في تفسير القرآن) يعتمد اعتماداً كلياً على التفسير بالمأثور، فلا نكاد نجد رأياً إلا و قد اسند برواية إلى النبي أو السلف من صحابه أو تابعين، فالآية أو جزؤها كالعبارة القرآنية التي تحمل رأياً واحداً يشته لها ثم يسند منشأ ذلك الرأي في روايته متسلسلة السند، و إن كان في ذلك عدة آراء فهو يجزئها رأياً رأياً و يصوغها تفسيراً تفسيراً ثم يعقب على كل رأي بالروايات القائلة به، و لنضرب لذلك مثلاً في قوله تعالى: مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ «٢».

يورد اختلاف أهل التأويل على الشكل التالي:

١- قال بعضهم عنى بالسوء كل معصية، ثم يسرد جملة من الروايات تنتهي باسنادها إلى كل من: زياد بن الربيع و أبي بن كعب و عائشة و مجاهد «٣». و كلهم قالوا بهذا المعنى المذكور.

٢- و قال آخرون معنى ذلك من يعمل سوءاً من أهل الكفر يجر به، ثم يعقب هذا الرأي بذكر من قال ذلك عن طريق من حدثه به حتى ينتهي اسناد لك إلى الحسن و ابن زيد و الضحاك «٤».

٣- و قال آخرون معنى السوء في هذا الموضع الشرك، ثم يعقب هذا الرأي بذكر من قال ذلك عن طريق من حدثه به حتى ينتهي بسنده إلى ابن

(١) ظ: الطوسي، التبيان: ١ / ٦.

(٢) النساء: ١٢٣.

(٣) الطبري، جامع البيان: ١٨٧ / ٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٨٧ / ٥ - ١٨٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٨

عباس و سعيد بن جبير «١».

ثم يختار الطبري رأيا في الموضوع فيقول: «ان كل من عمل سوءا صغيرا أو كبيرا من مؤمن أو كافر جوزى به، وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية لعموم الآية على كل عامل سوء من غير أن يخص أو يستثنى منهم أحد، فهي على عمومها...» «٢».

ويختص أبو علي الطبرسي (ت: ٥٣٨ هـ) بالنقل عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وإن أورد كثيرا عن الصحابة والتابعين (رض)، وقد يجمع بين أقوال الأئمة من أهل البيت والصحابة والتابعين وهو الغالب في منهجه بالتفسير المأثور، ولكن المرجح عنده هو تقديم رأى أهل البيت في مجال اختيار الآراء و غربلة الوجوه المحتملة.

ففي قوله تعالى: وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤ «٣»، يجمع الطبرسي الوجوه المتميزة على النحو التالي:

١- اختلف في الوقت المأمور بالانصات للقرآن والاستماع له ف قيل

إنه في الصلاة خاصة خلف الامام الذي يؤتم به إذا سمعت قراءته عن ابن عباس و ابن مسعود و سعيد بن جبير و سعيد بن المسيب و مجاهد و الزهري، و روى ذلك عن أبي جعفر عليه السلام يعنى الامام محمد الباقر.

٢- وقيل إنه في الخطبة، وأمروا بالانصات والاستماع إلى الامام يوم الجمعة عن عطا و عمرو بن دينار و زيد بن أسلم.

٣- وقيل إنه في الخطبة و الصلاة جميعا، عن الحسن و جماعة و أقوى الأقوال الأول، قال الشيخ أبو جعفر قدس الله روحه (يعنى الشيخ الطوسي) لأنه لا حال يجب فيها الانصات لقراءة القرآن إلا حالة قراءة الامام في الصلاة. و

روى عن أبي عبد الله عليه السلام (يعنى الامام الصادق) أنه قال: يجب الانصات للقرآن في الصلاة وغيرها . قال: و ذلك على وجه الاستحباب.

(١) الطبري، جامع البيان: ١٨٨ / ٥.

(٢) المصدر نفسه: الجزء و الصفحة.

(٣) الاعراف: ٢٠٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٩٩

وقال أحمد بن حنبل: أجمعت الامة على أنها نزلت في الصلاة

و روى زرارة عن أحدهما عليه السلام (يعنى الامام محمد الباقر أو الامام جعفر الصادق) قال: «إذا كنت خلف الامام تأتم به فانصت و سبح في نفسك» «١».

أما أشهر كتب التفسير بالمأثور في غالبية الطابع العام لها فهي كما يلي:

١- جامع البيان في تفسير القرآن، لابن جرير الطبري (ت: ٣١٠ هـ).

٢- بحر العلوم، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣).

٣- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ).

٤- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٦ هـ).

٥- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٣٨ هـ).

- ٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الاندلسي (ت: ٥٤٦ هـ) و هو خطي يوجد منه قسم في دار الكتب المصرية.
- ٧- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء اسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤ هـ).
- ٨- الدار المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١).
- ٩- تفسير الرهان، هاشم البحراني (ت: ١١١٧).
- ١٠- نور الثقلين.

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٥١٥ / ٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٠

### ٣- منهج الرأي:

و المراد به هو التفسير بالاستحسان و الترجيح الظني، أو الميل النفسي لاتباع الهوى، و لا يعنى ذلك الاجتهاد أو الاستنباط القائم على أساس من الكتاب و السنة النبوية فإن ذلك من التفسير بالمأثور على وجه من الوجوه.

و قد روى العامة عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال: «من فسر القرآن برأيه و أصاب الحق، فقد أخطأ» (١).

و كره جماعة من التابعين و فقهاء المدينة القول في القرآن بالرأى:

«كسعيد بن المسيب، و عبيدة السلماني، و نافع، و محمد بن القاسم، و سالم بن عبد الله، و غيرهم. و روى عن عائشة أنها قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يفسر القرآن إلا بعد أن يأتي به جبرئيل» (٢).

فإذا كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم بمقتضى هذه الرواية لا يفسر القرآن إلا بعد الايحاء بمعناه من قبل الله تعالى. فالاجدر بمن تبعه من المسلمين أن يتخرجوا عن التفسير بالرأى لما في ذلك من الجرأة على الله.

قال ابن تيمية: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام» (٣)، و لهذا توقف جماعة من السلف الصالح عن تفسير ما لا علم لهم به، فعن ابن عباس: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» (٤).

و قد روى أن أبا بكر (رض) سئل عن قوله تعالى: وَ فَكَيْهَةً وَ أَبًّا ٣١ «٥» فقال «أى سماء تظلني، و أى أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم» (٦).

و روى عن عمر مثله في موضعين أو أكثر (٧).

(١) الطوسي، التبيان: ٤ / ١.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ١.

(٣) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: ١٠٥.

(٤) الحافظ المنذري، مختصر أبي داود: ٥ / ٢٤٩ + الترمذي، سنن الترمذي: ١٤٦ / ٨.

(٥) عبس: ٣١.

(٦) ابن كثير، التفسير: ٤ / ٤٧٣.

(٧) الطبري، التفسير: ٣٠ / ٥٩ - ٦١ + الشوكاني، فتح التقدير: ٥ / ٣٧٦.



المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠١

وقد جمع ابن تيمية عدة أقوال للصحابة والتابعين من الذين تخرجوا عن الاجابة أو الكلام بالتفسير بما لا علم لهم به «١». وهذا التخرج منبعه وأصله: أن المراد بالتفسير هو ايضاح إرادة الله والكشف عن اثباتها في كتابه العزيز، وهذا ما لا يصح إلا بالاثر الصحيح، أو بالظواهر الدالة على صحة هذا النص، والرأى لا يحقق ذلك. «فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا عن شيء لم يثبت أنه حجة من طريق العقل أو من طريق الشرع للنهي عن اتباع الظن، وحرمة اسناد شيء إلى الله بغير إذنه... والروايات الناهية عن التفسير بالرأى مستفيضة من الطرفين» «٢».

وفي الحديث الشريف «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» «٣».

وقد أوضح الزركشى أدلة عدم جواز التفسير بالرأى بقوله:

«ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل لقوله تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» «٤».

وقوله: وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» «٥».

وقوله تعالى: لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» «٦».

فأضاف البيان إليهم «٧».

فاستند الزركشى إلى الآيات القرآنية الناهية عن التفسير دون علم، أو القول على الله بما لا يعلم وعلى اختصاص النبي بالبيان لما نزل، وما يكون خلافا لهذا يكون تفسيراً بالرأى من غير دليل، وما كان منه خالياً من

(١) ظ: ابن تيمية، مقدمه في أصول التفسير: ١٠٧-١١٤.

(٢) الخوئي، البيان: ٤٢١.

(٣) الترمذى، سنن الترمذى: ١٥٧/٢.

(٤) الاسراء: ٣٦.

(٥) البقرة: ١٦٩.

(٦) النحل: ٤٤.

(٧) الزركشى، البرهان: ١/١٦١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٢

الدليل لا يجوز الحكم به، إلا أن هناك حديثاً بنسب إلى النبي هو:

«القرآن ذلول ذو وجوه محتملة، فاحملوه على أحسن وجوهه» «١».

والحديث إذا قطع بصحته فيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد في كتاب الله تعالى، لأن أعمال الرأى بحسب القرائن الحالية والمقالية المتصلة والمنفصلة، واخضاعها إلى المتبادر العرفي من دلالة الالفاظ لا يعد من التفسير بالرأى، نعم الاستقلال بالفتوى، ووضع التأويل من قبل النفس وبحسب الظن والهوى، دون الرجوع إلى مستند من النبي وآله، وهم العالمون بخصوص القرآن وعمومه، ومطلقه ومقيده، باعتبارهم قراء الكتاب، أو الاستبداد بالفهم القرآنى بعيداً عن ظواهر القرآن الكريم، والعمل بخلاف ما تدل عليه يعتبر من التفسير بالرأى المنهى عنه، لا سيما إذا ضم إليه المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم، فقيل فيه بما يشتهى، لهذا حمل أبو الليث النهى عن التفسير بالرأى إلى المتشابه من القرآن لا على القرآن جميعه «٢».

وهذا ما ذهب إليه اثنان من أئمة المذاهب الاسلامية هما الامام الصادق عليه السلام والامام الشافعى (رض)،

قال الامام الصادق: «إنما هلك الناس فى المتشابه لانهم لو يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم

بآرائهم» (٣)

. وقال الشافعي: «لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو خبر عن أحد من أصحابه، أو إجماع العلماء» (٤).

وقد حدد ابن النقيب (ت: ٦٩٨ هـ) جملة ما تحصل في معنى حديث التفسير بالرأى بخمسة أقوال هي:  
أحدها: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.  
الثاني: تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

(١) الزركشي، البرهان: ١٦٣/٢.

(٢) ظ: الزركشي: ١٦٣/٢.

(٣) الخوئي، البيان: ٢٨٧.

(٤) السيوطي، الاتقان: ١٩٤/٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٣

الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً، فيرد إليه طريق ممكن، وإن كان ضعيفاً.

الرابع: التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى (١).

ويبدو أن مقاتل بن سليمان البلخي (ت: ١٥٠ هـ) صاحب الاشباه والنظائر في القرآن الكريم كان من أوائل المفسرين بالرأى حتى قال نعيم بن حماد: «رأيت عند أبي عيينة كتاباً لمقاتل، فقلت: يا أبا محمد تروى لمقاتل في التفسير؟ قال: لا. ولكن استدل به واستعين (٢).

و يعود السبب في عدم أخذ ابن عيينة له، واقتصاره على الاستعانة فيه كونه دون اسناد ويعتمد على الرأي، لهذا قال ابن المبارك عند نظره لشيء من تفسيره «يا له من علم لو كان له اسناد» (٣).

و كان مقاتل يتلبث التفسير برأيه ويتحينه انى اتفق، فقد حدث مالك بن أنس «أنه بلغه أن مقاتل جاءه انسان فقال: إن إنسانا جاءنى فسألنى عن لون كلب أصحاب الكهف، فلم أدر ما أقول، فقال له مقاتل: الا قلت له أبقع، فلو قلته لم تجد أحدا يرد عليك» (٤)، و مع هذا فقد اشتهر بالكذب على جملة من الصحابة والتابعين (٥).

وغرائب التفسير التي تخالف الظواهر ووجه الاعجاز ولا تستند إلى دليل نصي معتبر، تبدو تفسيراً بالرأى المهني عنه لا سيما في المتشابه من القرآن، وقد أُلّف فيه محمود بن حمزة الكرمانى الشافعى المتوفى (٥٥٠ هـ) كتاباً و سماه العجائب والغرائب (٦).

(١) السيوطي، الاتقان: ١٩١/٤.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٢٧٩/١٠.

(٣) المصدر نفسه: و الصفحة.

(٤) المصدر نفسه: ٣٨٢/١٠.

(٥) المصدر نفسه: ٣٨٢-٣٨٣.

(٦) ظ: السيوطي الاتقان: ٢٠٢/٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٤

و حكى أبو مسلم محمد بن بحر الاصبهاني (ت: ٣٧٠) قول من قال في «حمسحق» إن الحاء حرب على و معاوية، و الميم ولاية المروانية، و العين ولاية العباسية، و السين ولاية السفينانية ... الخ «١» مما لا مسوغ له. و من ذلك قول من قال في: وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ «٢»، انه قصص القرآن «٣». و من ذلك ما ذكره ابن فورك، محمد بن الحسن (ت: ٤٠٦هـ) في تفسيره في قوله: وَ لَكِنْ لِيُطَمِّنَنَّ قَلْبِي «٤» ان إبراهيم كان له صديق، وصفه بأنه قلبه، أى ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عيانا «٥».

إنّ هذا الاسلوب من التفسير مرفوض شرعا و عقلا لمخالفته الظواهر و اللغّة، و لأنه رجم بالغيب، و اعتداء صريح على جمال القرآن و بلاغته.

و قد انقسم العلماء إلى فريقين بالنسبة للتفسير بالرأى، فقد تشدد فيه قوم- كما أسلفنا- فلم يجروا على تفسير القرآن بالرأى، و ان كانوا علماء فى الادلة الفقهية أو النحوية أو الاخبار أو الآثار و حدبوا على المأثور فحسب، و وقف الآخر موقفا مجانباً لهذا الفريق، فأجازوا لأنفسهم و لغيرهم ممن ملك قياد اللغّة و الادب، و اطلع على علوم القرآن و الشريعة، أن يفسروا القرآن، إلا أنهم خلطوا حينذاك بين التفسير بالرأى، و بين الاجتهاد القائم على أساس الاجتهاد.

و لهذا نجد الذهبى قد خلط بين الأمرين فذهب إلى أن التفسير بالرأى لو كان محرماً لوجب أن يحرم الاجتهاد و يستغنى عن العقل «٦».

على أن كثيرا من التفاسير المعتمدة كأسرار التأويل للبيضاوى، و لباب

(١) المصدر نفسه: ٢٠٢ / ٤.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) السيوطى الاتقان: ٢٠٢ / ٤.

(٤) البقرة: ٢٦٠.

(٥) السيوطى: ٢٠٢ / ٤.

(٦) ظ: الذهبى، التفسير و المفسرون: ٢٥٧ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٥

التأويل فى معانى التنزيل للخازن، و البحر المحيط لأبى حيان، و إرشاد العقل السليم لأبى السعود، و روح المعانى للآلوسى تعتمد التفسير إلا- أن أغلب ما ورد فيها من رأى متوهم، يقود فى أرجح الاحوال إلى الاجتهاد القائم على أساس الموازين الشرعية، لا على أساس الاستحسان، فاللغّة و البلاغّة، و أساليب العرب فيها مجال للاجتهاد كما سيأتى فى المنهج اللغوى.

#### ٤- المنهج اللغوى:

و هو المنهج الذى عنى بالجانب اللغوى، و تمحّض لاشتقاق المفردات و جذورها، و شكل الالفاظ و أصولها، فجاء مزيجا بين اللغّة و النحو و الحجّة و الصرف و القراءات، و كان مضماره فى الكشف و الابانة استعمالات العرب و شواهد أبياتهم، فابتنى الاصل اللغوى بكثير من أبعاده على الغريب و الشكل و الشوارد و الأوابد فى الالفاظ و الكلمات و المشتقات، و قد سخرت بهذا اللغّة العربية طاقاتها المتعددة لخدمة القرآن و استشهد بها على تقرير قاعدة، أو تقعيد نظرية، أو بناء أصل لغوى أو نحوى أو صرفى، فتبلورت فى هذا السبيل عدة مسائل فى الفروع و الجزئيات و الأصول و القواعد و عاد النص القرآنى يقذف باشعاعه حجّة إثر حجّة فى سماء المعرفة اللغوية، و جلاء معانى الاستعمالات العربية.

وقد أثر في هذا الجانب هوى المتخصصين، و رغبة العلماء الباحثين فشكّلوا بذلك مدرسة خاصة بهم تميزت أبعادها في البحث عن لغة القرآن و مجاز القرآن و غريب القرآن و معانى القرآن و مفردات القرآن.

و لعل ابن عباس (ت: ٦٢هـ) هو أول من اعتمد المنهج اللغوي في تفسيره بعدد من آيات القرآن الكريم، و قد سأله نافع بن الأزرق و نجره بن عويمر تفسير عدد من الآيات الكريمة، و اشترطا أن يأتيهما بما يؤيد ذلك من كلام العرب، ففسر ذلك على شرطهما «١».

و قد نسب لابن عباس الاستاذ بروكلمان كتابا اسمه غريب القرآن،

(١) ظ: السيوطي، الاتقان: ٢/ ٦٨- ١٠٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٦

و ادّعى وجود نسخة منه في برلين «١».

و من استقراء ما في كتب التفسير من آراء لغوية لابن عباس- و من استشهاد حثيث بكلام العرب على تأييد تفسيره يتجلى لنا مدى تمحّضه لذلك بما يمكن القول معه إنه من أوائل من فسروا القرآن لغويا إن لم يكن أولهم، و قد امتدت هذه المدرسة من بعد ابن عباس فشملت جملةً صالحةً من خيرة العلماء و المحققين ممن سلكوا الطريق و أصابوا فيه كثيرا فقد ألف أبان بن تغلب تلميذ الامام الصادق عليه السلام (ت: ١٤١هـ)، في غريب القرآن و معانى القرآن و القراءات «٢».

و قد بحث فيه بشكل مركز كل من: يونس بن حبيب (ت: ١٨٢هـ) و أبي فيد مؤرخ بن عمرو (ت: ١٩٥هـ) و الفراء (ت: ٢٠٧هـ) و أبي عبيدة (ت: ٢١٠هـ) و أبي زيد الانصاري (ت: ٢١٤هـ) فإذا أضفنا إلى هؤلاء ابن قتيبة، و الكسائي و أبا جعفر الرؤاسي، و الاخفش، و أبا علي الفارسي، و أبا جعفر النحاس، و الزجاج و الاصمعي، خرجنا بمدى عناية علمائنا في هذا الجانب.

إلا أن رءوس هذا المنهج في التفسير ثلاثة دون منازع:

١- أبو زكريا الفراء (ت: ٢٠٧هـ) في كتابه معانى القرآن.

٢- أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢٠٩/ ٢١٠هـ) في كتابه مجاز القرآن.

٣- أبو إسحاق الزجاج (ت: ٢١١هـ) في كتابه معانى القرآن.

و يلحق شأوهم و يداني تخصصهم ابن قتيبة في كتابيه:

تأويل مشكل القرآن، و غريب القرآن.

أما أبو زكريا الفراء (ت: ٢٠٧هـ) فقد بحث في تراكيب الجمل، و الاعراب، و الاشتقاق، و وقف عند القراءات، و قد عنى بالايقاع الموسيقى للألفاظ، و الميزان الصرفي للمفردات، و ملاحظة النسق الصوتي في

(١) بروكلمان، تاريخ الادب العربي: ٨/ ٤.

(٢) ياقوت، معجم الادباء: ١/ ٣٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٧

الفواصل، و قد قارن بين وزن الشعر، و وزن القرآن، و مراعاة السياق، و ترتيب السجع، بما يعتبر جميعه منهجا لغويا، و ان تعرض فيه لمباحث بلاغية أملت الضرورة عليه كالتشبيه و التمثيل و المجاز و الاستعارة، و هو في كل ذلك لم يخرج عن منهجه اللغوي الاصيل الذي شاركه في معاصره أبو عبيدة.

و أما أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢٠٩/ ٢١٠هـ) فالمتتبع لكتابه مجاز القرآن قد يظنه بلاغيا بحسب عنوانه، إلا إنه يفاجيء بأنه كتاب لغوي يتتبع المفردات و المركبات الجميلية تتبعا لغويا جديا، و ان كان الكتاب لا يخلو من لمسات بلاغية، و لكنه طالما يقصد

بالمجاز المعنى اللغوي، وقد يقصد به الميزان الصرفي للكلمة، وقد يعنى به نحو العرب وطريقتهم في التفسير أو التعبير، إلا أنه على أية حال يمثل التيار اللغوي في التفسير وإن أكد على فنون التعبير عند العرب، فهو يبدأ بالسور ثم الآيات و يتناولها بالشرح اللغوي بحسب ورودها على ترتيب المصحف، مستشهدا بالفصيح من كلام العرب على إرادة المعنى المطلوب من خطب و أقوال و أشعار.

«و نستطيع مطمئنين أن نقرر أن كلمة مجاز إنما هي تسمية لغوية تعنى التفسير، فالمعرفة بأساليب العرب، و دلالات ألفاظها، و معاني أشعارها، و أوزان ألفاظها، و وجوه إعرابها و طريق قراءاتها كل ذلك سبيل موصول إلى المعنى فمجاز القرآن يقصد أبو عبيدة به «المعبر» إلى فهمه، فالتسمية لغوية و ليست اصطلاحية» (١). و مع أن منهج أبي عبيدة منهج لغوي محض كما يبدو للمتتبع فقد اتهمه الاصمعي بأنه فسر القرآن بالرأى، و جرت بينهما مناظرة في الموضوع «٢»، كما لم يسلم من التجريح و اتهامه بالخطأ كما وصفه الاصمعي في عدة مواضع و حمل عليه «٣».

و قد نقده الطبري و فند بعض آرائه «٤».

(١) مصطفى الصاوي الجويني، مناهج في التفسير: ٧٧-٧٨.

(٢) ظ: ياقوت، معجم الادباء: ١٩-١٥٨.

(٣) ظ: السيرافي، اخبار لنحويين البصريين: ٥٨-٦٧+ الاصمعي الاضداد: ٦٤-٦٥.

(٤) ظ: الطبري جامع البيان: ١/٤٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٨

و قد صحح خطأه و أصلح فاسده معاصره الاخفش سعيد بن مسعدة «١»، و قد تعقبه ابن قتيبة بإصلاح أغلاطه كما ادعى «٢».

و هكذا شأن كل ما هو أصيل و مبتكر، نجد أن أبا عبيدة قد فتح منافذ على البحث القرآني منها ما يتصل بطريقة التعبير، و منها ما يتصل بغريب لفظه المفرد، ثم منها ما يتصل بالبحث اللغوي الخالص كظاهرة الاضداد في اللغة «٣».

و أما أبو اسحاق الزجاج (ت: ٣١١هـ) فقد عرض في كتابه: (معاني القرآن) التفسير النقلي، و لكنه ابتنى على التفسير اللغوي أغلب فصوله، فأولى لذلك الأهمية الكبرى، و بين أمام آرائه الدليل من كلام العرب و أساليبهم، افتن في تخير ذلك مؤكدا على نظرتة إلى التعبير القرآني في ملاءمته للبيئة العربية، كما يناقش من ألفوا قبله كأبي عبيدة و الفراء، و يخلص من وراء ذلك إلى اثبات الاعجاز القرآني عن طريق الاسرار الجمالية، و قد اثنى عليه الزركشي فقال: «و معاني القرآن للزجاج لم يصنف مثله» «٤».

و أما ابن قتيبة فيمكن أن يلحق بهؤلاء في حدود معينه، و هي تناوله للألفاظ، و النغم الموسيقي و تألف الحروف، و بحث الفواصل و انسجامها مما يعتبر بحثا بلاغيا أحيانا، و الحق أنه استدرج كثيرا من الفنون البلاغية و التفسير البياني للقرآن.

و هناك ما يلحق فنا بهذا المنهج و هو الترتيب المعجمي لتفسير لغة مفردات القرآن الكريم و قد برع في هذا و أجاد الراغب الاصفهاني (ت):

٥٠٢هـ) في كتابه: المفردات، إذ تتبع أغلب ألفاظ القرآن الكريم، و رتبها على الطريقة الحديثة في تنسيق المعاجم (الالف باء). و قد قام بعمل جليل يكاد لم يسبق إليه في باب، فأنت تنظر أول الكلمة في أصلها لتبحث عن

(١) ظ: القفطي، انباه الرواة.

(٢) ظ: حاجي خليفة، كصف الظنون: ١/١١٢.

(٣) مصطفى الصاوي، الجويني، ناهج في التفسير: ٨٤-٨٥.

(٤) الزركشي، البرهان: ٢/١٤٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٠٩

معناها المناسب في كتابه، وقد أوضح الراغب نفسه مزية هذا المنهج وأهميته فقال:

«و ذكرت أن أول ما يحتاج إليه أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية و من العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبن في كونه من أول المعادن في بناء ما يريد أن يبنيه. و ليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب و زبدته، و واسطته و كرائمه، و عليها اعتماد الفقهاء و الحكماء في أحكامهم و حكمهم، و إليها مفزع حذاق الشعراء و البلغاء في نظمهم و نثرهم» (١).

و يعتبر الراغب هو المؤصل لهذا المنهج المعجمي، و قد تبعه اللاحقون كفخر الدين الطريحي في تفسير غريب القرآن. و قد استأنس مجمع اللغة العربية في القاهرة بمنهج الراغب الاصبهاني فأصدر معجم ألفاظ القرآن الكريم في مجلدين ضخمين، قام باعداده جماعة من العلماء و الاساتذة و المتخصصين، و قد قام هؤلاء بعرض مفردات القرآن كافة فكان العمل أوسع و أشمل و أكثر احصائية مما علمه الراغب، فكل كلمة منه تشرح شرحاً لغوياً، و يحصر موضع ورودها في القرآن، و ينص على المعاني المختلفة للكلمة الواحدة معنى بعد معنى، و إذا كان للكلمة معنى لغوي واحد و لكنها استعملت في القرآن الكريم بألوان مختلفة بسبب المجاز أو نحوه، نص على المعنى اللغوي البحت، و قيل: إنها تستعمل أو قد ترد بمعان أخرى. و في ضوء هذه الخطة سارت اللجنة في وضع المعجم بعد أن رتبت ألفاظ القرآن الكريم حسب الهجاء كما فعل الراغب من ذي قبل (٢).

(١) الراغب الاصفهاني المفردات: ٦.

(٢) ظ: مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن: الكريم المقدمة.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٠

## ٥- المنهج البياني:

و هو المنهج الذي تدور مباحثه حول بلاغة القرآن في صورته البيانية من تشبيه و استعارة و كناية و تمثيل و وصل و فصل و ما يتفرع من ذلك من استعمال حقيقي أو استخدام مجازي أو استدراك لفظي، أو استجلاء للصورة أو تقويم للبناء، أو تحقيق في العلاقات اللفظية و المعنوية أو كشف للدلالات الحالية و المقالية. و البحث في هذا الجانب يعد بحثاً أصيلاً في جوهر الاعجاز القرآني و مؤشراً دقيقاً في استكناه البلاغة القرآنية.

و قد بدأ هذا الفن في جملة من أسراره الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ)، فخصص كثيراً من مباحثه في كتابه (نظم القرآن) إلى استيفاء جمال العبارة، و استخراج ما فيها من مجاز و تشبيه بمعانيهما الواسعة غير المحددة، إلا أن هذا العرض من قبل الجاحظ جاء مجزأً و مفرقاً و لم يكن متفرغاً للقرآن كله بل لبعض من آياته- كما يبدو- و ذلك من خلال معالجاته البيانية في «نظم القرآن» و البيان و التبيين. حتى إذا برز الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت:

٤٧١ هـ) في كتابه: «دلائل الاعجاز» و «أسرار البلاغة» فكانت الحال مختلفة، فالجرجاني عالم واسع الثقافة، مرهف الحس، متوقد الذكاء، و قد استخدم ذلك في استنباط الاصول الاستعارية و الابعاد التشبيهية، و المعالم المجازية لآيات القرآن الكريم، و أخضعها باعتبارها نماذج حية للتطبيق العلمي، و هذه النماذج تتضح بها معاني القرآن في صورته البيانية، و جوانبه الفنية، فهو أوسع بكثير من الجاحظ في هذا المضمار، إلا أن الصورة التكاملية للقرآن مفقودة في كلا الكتابين على عظم قدرهما البلاغي، و مفقودة إلى السعة

لتشمل القرآن أجمع، حتى إذا جاء جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) فتح لنا عمق دراسة جديدة في البلاغة القرآنية التطبيقية، انتظمت على ما ابتكره عبد القاهر الجرجاني، و ما أضافه هو من نكت بلاغية، و معان اعجازية، اعتمدت المناخ الفني فعاد تفسيره المسمى «الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل» كنزا من المعارف لا- تنتهى فرائده، و قد تجلى فيه ما أضافه من دلالات جمالية في نظم المعاني، و ما بحثه من المعاني الثانوية في تقديم العبارة و عائدية الضمائر، و التركيب اللغوي، و تعلق العبارة بعضها ببعض من وجهة نظر

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١١

بلاغية تعتمد على عنايته بالكناية و الاستعارة و التشبيه و المجاز و التمثيل و التقديم و التأخير، عناية فائقة فهو يفصل القول في الفروق المميزة بينها، و يشير من خلالها إلى المعاني الثابتة، و هو كثير التنقل بالألفاظ القرآنية من الحقيقة إلى المجاز، إذا كان المعنى الحقيقي يختلف عن نظريات المذهب المعتزلي و صميم أفكاره «و نكاد نقول: إن خير تفسير في العربية تحدث في بلاغة القرآن، و اعجازه و سر نظمه و روعه أدائه هو تفسير الزمخشري و كم كنا نود لو برىء من الهوى، إذ كان تفسيره الأول و الأخير في عالم التفاسير» (١). و قد أخضع تفسيره هذا للوجه الكلامية عند المعتزلة و دافع عنها، و حمل عليها كثيرا من الآيات القرآنية و أضاف إليها الدلالات النفسية التي تستنبط كمعنى آخر للآية، أو كوجه ثان لها، فكأنه يبحث عن معنى المعنى الذي قرره عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز. و للزمخشري إشارات دقيقة في التنكير و التعريف، و الفصل و الوصل، و المجاز اللغوي و المجاز العقلي و في التمثيل و التشبيه. و امتاز الزمخشري على عبد القاهر.

إن عبد القاهر قد وجه عنايته بنظريته إلى المعاني و مدى علاقتها بالنظم، و لم يعر أهمية لبديع القرآن، بينما اهتم بذلك الزمخشري و جعله أساسا يندرج تحت مفهوم البيان باعتبار البديع أشكالاً و قوالب و صوراً، تفنن بها القرآن و أبرزها على نحو فني تتميز به أساليب القول.

«أما فنون المعاني من الفصل و الوصل و التناسب بين الجمل، و المعاني الثانية التي تشع من خلال التركيبات في ذلك فشىء يفوق الحصر، و يدل دلالة أكيدة على أن صاحب الكشاف- بالرغم من أنه استفاد استفادة واضحة بالتجارب التي سبقته- كان صورة واضحة على استقلال العالم في البحث، و إن كان كشافه جاء نموذجا تطبيقيا على اعجاز البلاغي» (٢).

و بعد هذا، فلا نغالي إذا قلنا: إن الزمخشري من أوائل العلماء البلاغيين الذين كرسوا الجهد في الكشاف لاستجلاء الاعجاز من خلال

(١) بكرى أمين، التعبير الفني في القرآن: ١١٦.

(٢) فتحى أحمد عامر، بلاغة القرآن: بين الفن و التاريخ: ٢١٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٢

الاستعمال البياني في التفسير، و له لقطات أجاد بها في كثير من المواضع ففي قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥ «١» يبحث موضوع الاستواء و العرش في ضوء ما تستعمله العرب من المجاز و الكناية، و يضرب لذلك الاشباه و النظائر من القرآن و أقوال العرب فيقول: «لما كان الاستواء على العرش و هو سرير الملك، مما يردف الملك، جعلوه كناية عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش، يريدون ملك، و ان لم يقعد على السرير البتة، و قالوا أيضا لشهرته في ذلك المعنى، و مساواته ملك في مؤداه، و ان كان أشرح و أبسط و أدل على صورة الامر، و نحوه قولك: يد فلان مبسوطة و يد فلان مغلوله بمعنى أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أن من لم يبسط يده قط بالنوال، أو لم تكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة، لمساواته عندهم قولهم هو جواد، و منه قول الله عز و جل: و قالت اليهود يد الله مغلوله- أى هو بخيل بل يده مبسوطان- أى هو جواد من غير تصور يد و لا غل و لا بسط، و التفسير بالنعمة و التمثيل للتشبيه من ضيق العطن، و المسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام» (٢).

و مع هذا لم يسلم هذا الكتاب القيم من الطعن، فقد حمل عليه قاضى الاسكندرية: أحمد بن محمد بن منصور المنير، و ناقشه بكثير من آرائه المذهبية بكتاب اسمه: «الانتصاف».

و قد سار على نهج الزمخشري فى استجلاء الصور البيانية للقرآن الكريم جمع من المعاصرين، و تفوق عليه بعضهم بتحقيق أجزاء من الصورة الفنية للقرآن التى ترسم المواقف، و تصور المشاهد، و تشخص العقليات، حتى عاد ما كتب حديثا، منهجا جديدا فى إضافته يمثله كل من:

- ١- الاستاذ أمين الخولى فى: محاضرات فى الامثال القرآنية ألقاها على طلبة الدراسات العليا فى كلية الآداب جامعة القاهرة/ مخطوط.
- ٢- الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» فى:

(١) طه: ٥.

(٢) الزمخشري الكشاف: ٢ / ٥٣٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٣

أ- التفسير البياني للقرآن الكريم.

ب- الاعجاز البياني للقرآن الكريم.

٣- محمد حسين على الصغير (المؤلف) فى:

الصورة الفنية فى المثل القرآنى / دراسة نقدية و بلاغية.

هذا عدا البحوث و المقالات الاخرى التى تناولت الموضوع فى أجزاء كثيرة منه.

و لا يفوتنا هنا أن نوه بما كتبه الدكتور أحمد بدوى فى كتابه «من بلاغة القرآن».

## ٦- المنهج الصوفى أو الباطنى:

و لا يراد به تفسير تلك الطبقة التى بلغت من النقاء و الصفاء ما امتزجت به، بالحب الالهى المطلق أو الجمال الروحى المحض، وإنما المراد به تلك الآراء الغريبة التى تفسر القرآن تفسيراً باطنياً بعيداً عن ظواهر الكتاب، و دلالة السِّنة، و سيرة المتشعبة، ففسروا القرآن بأهوائهم حتى حملوا الشريعة- و القرآن مصدرها الأول- على أفكار اتسمت بالحلول تارة. و قالت بالتجسيد تارة أخرى معتمدين على فيوضات و إلهامات تخيلوها عين الصواب، و هى بجانبه للرشد و منحرفه عن الصراط المستقيم.

و يعدل فى أغلب هذا المنهج عن الظواهر العربية و ينتقل به من الماديات إلى المعنويات و يفسر الحسى بالعقلى، و الملموس بالذهنى.

و أمام هذا الفن هو الشيخ الاكبر محى الدين بن عربى (ت: ٦٣٨ هـ) فى تفسيره للقرآن، و به يذهب إلى التفسير تفسيراً عرفانيا تارة، و باطنياً صوفياً تارة أخرى، و يرمى إلى الاشارات أحيانا، مما خالفه به كثير من الباحثين، و هو بهذا يضيف منهجا جديدا بين اللمحات الاشارية و الاوهام الباطنية، و نحن لا نحمل أقواله إلا على المحمل الحسن. ففى قوله تعالى:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ «١» يقول: لا

(١) البقرة: ١٨٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٤

تأكلوا معارفكم و معلوماتكم بباطل شهوات النفس و لذاتها، بتحصيل مآربها، و اكتساب مقاصدها الحسية و الخيالية باستعمالها و



ترسلوا إلى حكام النفوس الامارة بالسوء «١».

و في قوله تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا «٢» يرى أن البيت هنا إشارة إلى القلب الحقيقي «٣».

و في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ «٤».

يقول: إذا قمتم: انبعثتم عن نوم الغفلة، و قصدتم إلى صلاة الحضور و المناجاة الحنيفة، و التوجه إلى الحق، فاغسلوا وجوهكم، أى طهروا وجود قلوبكم بماء العلم النافع الطاهر المطهر، من علم الشرائع و الاخلاق و المعاملات التى تتعلق بإزالة الموانع عن لوث صفات النفس «و أيديكم» أى: و قدركم عن دنس تناول الشهوات و التصرفات فى مواد الرجس «إلى المرافق» إلى قدر الحقوق و المنافع «٥».

إن هذا التجوز الفضفاض فى الكلمات و المعانى و الدلالات جعل كثيرا من العلماء يصفون الصوفية بالجهل تارة و بالكفر تارة أخرى. قال الزركشى: «فأما كلام الصوفية فى تفسير القرآن، فقليل ليس تفسيراً، و إنما هى معان و مواجيد، يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم فى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ «٦».

إن المراد النفس، فأمرنا بقتال من يلينا، لأنها أقرب شىء إلينا، و أقرب شىء إلى الانسان نفسه» «٧».

(١) ابن عربى، تفسير القرآن الكريم: ١١٧/١.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) ابن عربى، تفسير القرآن الكريم: ٢٠٣/١.

(٤) المائدة: ٦.

(٥) ابن عربى، تفسير القرآن الكريم: ٣١٣/١.

(٦) التوبة: ١٢٣.

(٧) الزركشى، البرهان: ١٧٠/٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٥

و قال ابن الصلاح (ت: ٦٤٣ هـ) فى الفتاوى:

«و قد وجدت عن الامام أبى الحسن الواحدى أنه صنف أبو عبد الرحمن السلمى (حقائق التفسير) فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر» «١».

و هذه الفتوى مبنية على ما فى التفسير المذكور من التسامح و التساهل و التجوز، و مخالفة التبادر العام، الذى يدعو إلى الايهام و الالتباس و قد تطرق النسفى (ت: ٥٣٧ هـ) بنظرته إلى الصوفية فى تفاسيرهم و اعتبرهم أهل باطن ملحدين «٢».

و تابعه على ذلك التفتازانى (ت: ٧٢٢ هـ) و اعتبر قصدهم نفى الشريعة بالكلية «٣».

و حجة الصوفية فى منهجهم التفسيري المعتمد على الباطن

رواية يروونها عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: (لكل آية ظهر و بطن، و لكل حرف حد، و لكل حد مطلع) «٤»

، و بنوا على هذا منهجهم الغريب، و لعل المراد بالحديث غير ما يذهبون إليه، و قد عالج ذلك الشيخ الطوسى و السيوطى «٥».

و حملاه على وجوه بعيدة عن الفهم الصوفى. بينما دافع عن وجهة نظر بعض التفسير غير الظاهرى الشيخ تاج الدين بن عطا الله الاسكندرى (ت: ٧٠٩ هـ) فقال:

«اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله و كلام رسوله بالمعانى العربية، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، و لكن ظاهره الآية مفهوم منه ما

## جلبت الآية

- (١) المصدر نفسه: ١٧٠ / ٢.
- (٢) ظ: السيوطي، الاتقان: ١٩٥ / ٤.
- (٣) المصدر نفسه: ١٩٥ / ٤.
- (٤) المصدر نفسه: ١٩٦ / ٤.
- (٥) الطوسي، التبيان: ١ / ٣ + ٣ / ٣، السيوطي، الاتقان: ١٩٦ / ٤.
- المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٦
- له و دلت عليه في عرف اللسان، و تم افهام باطنه تفهم عند الآية و الحديث لمن فتح الله قلبه و قد جاء في الحديث: (لكل آية ظهر و بطن)
- فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل و معارضة: هذا إحالة لكلام الله و كلام رسوله، فليس ذلك بإحالة و إنما يكون إحالة لو قالوا: لا- معنى للآية إلا- هذا، و هم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظاهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، و يفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم «١».
- إن علماء الشرع قد يقبلون بعض التفسير الصوفي، أو الاشاري أو الرمزي إذا توافرت فيه شروط أربعة:
- ١- أن لا يكون التفسير منافياً لظواهر النظم القرآني.
  - ٢- أن يكون شاهد شرعي يؤيده.
  - ٣- أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي.
  - ٤- أن لا يدعى أن المراد وحده دون الظاهر «٢».
- و لعل هذا التقرير هو أسلم الوجوه في قبول أورد التفسير الصوفي أما غرائب التفسير، و شواذ التأويل فلا تؤخذ بعين الاعتبار و لا يقوم دليل نصي أو تاريخي على صحتها، و من ذلك ما حكاه الكواشي في تفسيره عن قول من قال في رَبَّنَا وَ لَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ «٣».
- إنه الحب و العشق «٤».
- فهذا واضح أن مما لم ينزل الله به من سلطان و لا يعد من التفسير بشيء بل القول به لا يخلو من السذاجة المخلة أو الحمق المفرط، و يجب تنزيه القرآن عن هذا المستوى المتهافت.

- (١) السيوطي، الاتقان: ١٩٧ / ٤ و ما بعدها.
- (٢) بكرى أمين، التعبير الفني في القرآن: ١٢٢.
- (٣) البقرة: ٢٨٦.
- (٤) السيوطي، الاتقان: ٢٠٣ / ٤ و ما بعدها.
- المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٧
- و ليس التفسير الفلسفي أو العرفاني من هذا المنهج، بل هو تفسير مزج إلى جنب الحب الالهي الحسي الفلسفي، و جمع بين الحكمة و الفكر الاشاري، فهو يجنح إلى الفلسفة من وجه، و إلى عوالم الالهام من وجوه، أثر فيه المنهج الافلاطوني حيناً، و المنهج الاسلامي حيناً آخر، فقد يحتج لفكرة فلسفية في القرآن فنجد تتابع الالغاز، و ترادف المعميات كما هو الحال عند متبعي النهج الفلسفي، فنجد الفارابي (ت: ٣٣٩ هـ) لدى احتجاجة على فكرة واجب الوجود و قدم العالم في تفسيره قوله تعالى:

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ «١».

يقول الفارابي:

«إنه الأول من جهة انه منه، و يصدر عنه كل موجود لغيره و هو أول من جهة أنه أول بالوجود لغاية قرب منه، أول من جهة أن كل زمانى ينسب إليه يكون فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشيء و وجد إذ وجد معه لا فيه، هو أول لأنه إذا اعتبر كل شيء كل فيه أولا أثره، و ثانيا قبوله لا بالزمان. هو آخر لأن الاشياء إذا لوحظت و نسبت إليه أسبابها و مبادئها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية فى كل طلب» «٢».

فهو يعنى هنا أن العلة الكاملة التى هى ذات الله تعالى هى نفسها مصدر إيجاد الممكنات المشتملة على كل شيء عدا البارى عز و جل. فهذا و أضرابه من التفسير يعتبر منهجا فلسفيا و ليس باطنيا، و قد نجد من يتجه اتجاها عرفانيا فى تفسيره، و لكنه يسير فى حدود يفسح فيها المجال فى صياغة العبارات الواضحة، و لكنها سابعة فى مناخ الحب الالهى كما هو الحال عند البروسى، و النيسابورى فى تفسيريهما.

و لا بد لنا هنا أن نشير بتأكيد إلى تفسير حديث اتخذ المنهج الفلسفى طابعا له يميزه فى أغلب فصوله و موضوعاته، و هو تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائى، و هو تفسير جليل. قوى الأسر، متين العبارة،

(١) الحديد: ٣.

(٢) الفارابى، فصوص الحكم: ١٧٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٨

و هو يستند إلى عمق فلسفى و مناخ عرفانى.

و قد تبين لنا مما تقدم إننا لا نريد بهذا المنهج: المنهج العرفانى أو الفلسفى أو الصوفى بمعناه المتطور، و إنما نريد المنهج الباطنى فحسب، و إنما سميناه: المنهج الصوفى أو الباطنى لأن القدامى ممن كتب فى علم التفسير و علوم القرآن كالزركشى و السيوطى مثلا، قد تعارفوا فيما بينهم على تسميته بالمنهج الصوفى أو بالتفسير الصوفى و هم يريدون بذلك المنهج الباطنى الذى لا يستند على قاعدة من لغة أو نص أو شرع:

و تسميته بذلك من باب التجوز فى الألفاظ، و التوسع فى المعانى.

## ٧- المنهج العلمى:

و هو المنهج الذى يذهب إلى استخراج جملة العلوم القديمة و الحديثة من القرآن، و يرى فى القرآن ميدانا يتسع للعلم الفلسفى و الصناعى و الانسانى فى الطب و التشريع و الجراحة و الفلك و النجوم و الهيئة و خلايا الجسم، و أصول الصناعات، و مختلف المعادن فيجعل القرآن مستوفيا بآياته لهذه الحثيات بل متجاوزا لها إلى العيافة و الزجر و الكهانة و الطيرة، و الضرب بالحصى، و الخط على الرمل، و السحر و الشعبذة مما حرمة الاسلام و عارضه القرآن.

و لعل الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) هو أول من استوفى القول فى هذا المجال، و ذهب فى فهم القرآن إلى «أن كل ما أشكل فهمه على النظر و اختلف فيه الخلاق فى النظريات و المعقولات فى القرآن إليه رموز و دلالات عليه» «١».

و يذهب أيضا إلى أن انشعاب سائر العلوم مطلقا عن تفصيلات و تقسيمات من القرآن «٢».

و قد اعتبر جماعة من العلماء هذا تعميما مبالغا فيه، مما جعلهم

(١) الغزالي، إحياء العلوم: ٢٥٩ / ١.

(٢) ظ: الغزالي، جواهر القرآن: ٢٨-٢٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١١٩

يلجئون إلى انكار التفسير العلمي جملة وتفصيلا بل ويحملون على القائلين به حتى عدّ عملهم هذا من المغالاة التي لا طائل معها «١»، بينما اعتبره الآخرون ليس بذي جدوى على القرآن، و القرآن غني عن هذا التكليف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الانساني الاجتماعي في اصلاح الحياة «٢».

ولما كان حسن النية وسلامة القصد متوافر عند من كتب في هذا المجال فالله عز وجل كفيل باثباتهم بحسب نياتهم، وإن كنا نختلف معهم في جدوى هذا الفهم «٣».

ومن اشتهر بالتفسير العلمي حتى عاد به متمما، العالم المصري الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسيره (الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات و غرائب الآيات الباهرات) فقد حشده بالعلوم الطبيعية والكونية والنفسية والصناعية، و عالج به المكتشفات والاختراعات العصرية، و تناول به الطب والتشريح والجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء وعلم النبات والاحياء والتواريخ. فهو يضع الآيه على بساط البحث أدبيا وفلسفيا وعلميا ثم يتبعها بحكايات وأحاديث وعجائب ولطائف على حد تعبيره، ثم يسرد لازم الحكاية و متعلقها، و مباحث العلم الحديث فيها روحيا أو جغرافيا أو فلكيا أو تشريحا أو صناعيا أو طبيا أو هندسيا، حتى يحمل النص أكبر مما ينبغي أن يبحث عنه، بل حتى ينتقل بالقرآن من مهمته التشريعية إلى مهمات جانبية أخرى، و يقصد من وراء هذا كله إلى تيسير الفهم العصري للقرآن، أو مواكبة القرآن للعلم الحديث، أو ضرورة تلقي المسلمين لجميع هذه العلوم، أو لاعتقاده بأن القرآن بعد إشارته لهذه العلوم فهو يريد معرفتها والتخصص في جملتها، ثم يشرع في بلورة كل ذلك بأسلوب ارشادي و دعائي مطول يتوسع فيه توسعا شاملا، ففي حديثه عن جزء آية من قوله تعالى:

(١) ظ: عبد العظيم الزرقان، مناهل العرفان: ٥٠١ / ١.

(٢) ظ: أمين الخولى (مادة تفسير) دائرة المعارف الاسلامية: ٣٦٢ / ٥.

(٣) ظ: الفصل الاخير من هذا البحث (مرحلة التجديد).

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٠

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ «١».

يبحث نوم الانسان فى الليل والنهار، و حل ابن سينا للمعضلات العلمية أثناء النوم، و ما ذهبت إليه نظرية أنشتاين، و المراد الكنائى لمعنى النوم ما دام العلم قد كشفه مما يعتبره معجزة، ثم ينتقل إلى بحث ثلاث عجائب، الأولى فى حياة روحية لأحلام اليقظة، يتناول بها الانتقال الفكرى و التباين و النظر المضاعف مستندا فى ذلك إلى كتب روحية و مجلات علمية و أمثال ذلك، و العجيبه الثانية فى اكتشاف جريمة غريبة بعد عشر سنوات عن طريق الرؤيا و الاحلام، و العجيبه الثالثة فى حيوان يبقى إحدى و ثلاثين سنة بلا طعام أو هواء و يظل حيا، ثم يسرد بعض مقالات إخوان الصفاء فى المقام اتماما للفائدة كما يقول و يتعرض لنوم الطيور و الحيوانات من هذا الخلال، ثم يبحث موضوع: كيف يمكنك أن تفسر ما تراه كل يوم من الظاهرات الكيمائية. و يعرض لكائن حى يعيش ألف سنة ثم يتبع ذلك بزيادة ايضاحية للمراد من جزء الآيه، و يأتى على حياة الجيوب و أصل النبات، و إن لذلك حياة ضئيلة كحياة النائم، ثم يسرد تجارب أهل الهند قديما، بعد كل هذا التفصيل و التشريق و التغريب يعقد عدة مباحث للموضوع نورد بعضها: الكلام على النوم و ساعاته و ما يناسبه، النوم و حاجة الانسان الشديدة له، أوقات النوم و عدد ساعاته، فراش النوم، تجديد الهواء فى قاعات النوم و الفراش، ثم الكلام على الحركات المختلفة النافعة لصحة الانسان تفسيرا لقوله تعالى: وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ «١».

إن هذا الابتغاء إنما يكون بالحركة، و يورد ما جاء في كتاب: قانون الصحة المنزلية للاستاذ (جون سايكس من مباحث تتعلق في هذا الباب) و هي: الرياضة البدنية، فوائد الرياضة البدنية، أنواع الرياضة البدنية المختلفة، العوم و التجديف، ركوب الدراجات، المشى، الجمباز، التمرينات الحربية، ركوب الخيل، الصلاة «٣».

(١) الروم: ٢٣.

(٣) ظ: طنطاوى جوهرى، تفسير الجواهر: ١٥ / ٦١ - ٧٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢١

فهذا الجزء من الآية قد استوعب هذه العناوين، و استغرق عدة صفحات كبيرة، و على هذه فقس ما سواها.

و باستقراء هذا المنهج نجدته يحتوى على علوم عدة، و مباحث جملة لا علاقة لأغلبها بفن التفسير، حتى يصح لنا أن نقول أن فى كتاب الجواهر كل شيء إلا التفسير.

و قد سار على منواله جمع من المثقفين المعاصرين ممن يعرفون بسلامة القصد فى هذا المجال، كالاستاذ عبد الرازق نوفل فى القرآن و العلم الحديث، و الاستاذ عبد الغنى الخطيب فى: أضواء من القرآن على الانسان و نشأة الكون و الحياة، و الاستاذ مصطفى محمود فى عدة كتب.

و قد توصل الجميع فى ذلك إلى عدة آراء صائبة، خلاصتها أن القرآن يواكب العلم، و هذا أمر لا ريب فيه، و لكنه ابتعاد فى القرآن عن منهجه و غايته العليا. نعم يجوز لنا أن نطلق على هذا و أضرابه اسم المنهج الموضوعى، لو اختيرت مواضع من القرآن تبحث فى الكون و الحياة و السماء و العالم و الفلك و الطب و كتبنا فيها كلا على حدة مما يعنى مشاركة القرآن فى ارساء قواعد هذه العلوم، و هذا مما لا مانع فيه.

## ٨- المنهج التاريخى:

للمنهج التاريخى عدة دلالات سنعرضها على التوالى:

أ- يميل بعض الباحثين إلى تفسير القرآن تفسيراً تاريخياً، و يعنون بذلك تفسيراً زمنياً بحسب مراحل النزول، و هذا يعنى الابتداء بسورة العلق تفسيراً و الانتهاء بآية الاكمال للدين و الاتمام للنعمة، أو بالآية (٢٨١) من البقرة على اختلاف الاقوال فى أوائل النزول و خواتيمه طيلة ثلاثة و عشرين عاماً «١».

و هذا المنهج مع أنه شاق فى العمل، فهو عمل غير مثمر و غير مجد من عدة وجوه:

الأول: اشكال حصر الترتيب الزمنى لانقطاع الرواية فى ذلك لا

(١) ظ: السيوطى، الاتقان: ١ / ١٦ - ٣٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٢

سيما و أن الاختلاف واقع حتى فى أوائل ما نزل منه و خواتيمه، فكيف بالقرآن كله و غاية ما ضبط العلماء مكيه من مدنيه على اختلاف فى جملة عديدة من الآيات.

الثانى: لو تم هذا المنهج، لكننا قد جزأنا القرآن و رتبناه ترتيباً جديداً يتنافى مع ترتيبه التوقيفى الذى أجمع عليه العلماء، أى أن ترتيب السور بموضعها من المصحف، و ترتيب الآيات بموضعها من السور عمل توقيفى من الله تعالى، و لا يجوز لأحد أن يضع شيئاً منه مكان شيء آخر على أرجح الأقوال.

الثالث: تشويه التسلسل الترتيبي الذي عليه المصحف الآن بما لا مسوغ له شرعا و عرفا و ذائقة فنية، مما يجعل النظم القرآنى مفككا، و الوحدة الموضوعية متلاشية، و هو أمر حذب على تبويبه القرآن الكريم.

إن الدعوة إلى هذا المنهج بهذا الفهم و المراد لا- تحظى بكثير من التأييد، و لا- تتسم بطابع من الموضوعية، فليس القرآن حوادث بمجموعه حتى تنظم تاريخيا، و لا وقائع حتى ترتب زمنيا، و لم أجد من المفسرين من التزم بهذا المنهج أو سار على غراره، نعم قد يتفق أن تكون بعض الحوادث متعاقبة الوقوع فتفسر تاريخيا و هذا من الندره بمكان، و ان كان لا مانع فيه.

ب- نعم هنالك جانب تاريخي في القرآن لم يستهدف كما أراده الاسلام، و هو الجانب التطبيقي في تواريخ الامم السابقة و القرون الغابرة، و ذلك باستخدام القياس التمثيلي عليها، و إدانة الشاهد بحسب جرائم الغائب على أساس ما ورد في ظلم الظالمين و الجبروت في الأرض، و الطغيان الفردي الذي اتسم به كل من فرعون و هامان و قارون و أضرابهم، فيدان كل ظالم على أساس ما ورد بتاريخ هؤلاء، و الأمور تقاس بنظائرها و كذلك الحال بالنسبة للامم المتعاقبة كمدین و عاد و ثمود و بنى إسرائيل و تحذير كل أمة مما أصاب تلك الأمم في ضوء التفسير التاريخي لاعمال أولئك، و هذا تفسير حيوى تحذيرى من صميم أهداف القرآن، و مقتضيات تأصيله لقضايا كل زمان و مكان في الاستفادة من العبر، و القياس على الامثلة، و الاعتبار بما مضى، لصيانته ما بقى.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٣

ج- و قد يراد بالمنهج التاريخي غير هذا و ذاك مع مناقشتنا للأول، و إقرارنا للثاني، بل يراد به تفسير القرآن باعتبارات تاريخية تنظر إلى الامة التي نزل فيها و إلى لغة تلك الامة، و كيف طور هذا القرآن من دلالاتها اللغوية فأكسبها تصرفا جديدا تلقاه المستعملون لهذه اللغة بالقبول و التطوير، فكانت اللغة أداة للتعبير عن قيم و حضارات لا يمكن تجاهلها و هذا ما يميل إليه الدكتور السيد أحمد خليل، و يدافع عنه بقوله:

«من هنا كان التفسير التاريخي أمرا تقتضيه طبيعة التطور، و تلزم به تلك النقلات الكبيرة التي تعرضت لها العربية في تاريخها الطويل، و بهذا التفسير التاريخي نستطيع أن ندرك الأسباب، و نشخص العوامل التي أدت إلى وجود تيارات متقابلة في عملية التفسير نفسها، من متشدد إلى متحرر، أو بعبارة أخرى من وقوف عند التفسير بالمأثور إلى تحرر تقضى به طبيعة التفسير اللغوي لتلك اللغة التي نزل بها القرآن» (١).

و هو بهذا يريد فهما جديدا للقرآن على أساس تطور اللغة العربية في مراحلها التاريخية ما دام القرآن قد نزل بلسان عربى مبین، و ما دام فهمه يتوقف على فهم هذه اللغة فهما بعيدا عن مشاكل الاختلاف و الاجتهاد و الرواية، فكأنه ينحو بهذا المنحى إلى إدراك النظرة التاريخية للغة العربية في مراحل تطورها لأن ذلك من الأسباب الفاعلة في استكناه المعانى، و تغيير دلالاتها مدى العصور التي مرت على القرآن تاريخيا، فكما يدرك هذا التغيير الزمنى الذى مرّ باللغة، فكذلك تفهم معانى القرآن بأسرارها الجمالية على النحو الذى أدركنا به تطور هذه اللغة فعاد فهم النص القرآنى مرتبطا بهذا التطور الذى حدث باللغة العربية من جميع الوجوه «و يراد بهذه التاريخية أن يلاحظ المفسر كيف تلقى الناس قبله هذا النص، و كيف فهموه و استنبطوه، و كيف طبقوا أحكامه و شرائعه و كيف وقفوا بين عروف البيئات التي انتقل إليها، و بين هذه الاحكام. و لا جدال فى أن هذه التاريخية تقتضى أشياء كثيرة أهمها دراسة حياة المجتمعات الاسلامية فى عصورها الأولى» (٢).

(١) السيد أحمد خليل، دراسات فى القرآن: ١٦.

(٢) المصدر نفسه: ١٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٤

و قد سبق إلى هذا المنهج فى حدود الاستاذ محمد عبده، فى عرض الآراء السابقة للمسلمين و ربطها بالآثار المعاصرة، و الغرض من

ذلك والكشف عن التطور الحضاري للأمم، في ضوء ما ترك الأقدمون من آثار، و ما استفاده المحدثون من آراء.

## ٩- المنهج الموضوعي:

و يميل الاستاذ أمين الخولي رحمه الله تعالى: إلى دراسة القرآن موضوعا موضوعا، لا أن يفسر على ترتيبه في المصحف الكريم سورا، أو قطعاً، و أن تجمع آياته الخاصة بالموضوع الواحد جمعا احصائيا مستفيضا، و يعرف بترتيبها الزمني، و مناسباتها و ملاسباتها الحافة بها، ثم ينظر فيها بعد ذلك لتفسير و تفهم، فيكون ذلك التفسير أهدي إلى المعنى، و أوثق في تجديده «١».

و هذا الرأي يعني أن يقوم جملة من المتخصصين على دراسة شذرات و نجوم من القرآن كل حسب تخصصه، فيجمع مادة موضوع من مواضيع القرآن و يستقيها احصاء لتكون هيكلا مترابطا يشكل وحدة موضوعية متكاملة واحدة، ثم يقوم بتفسيرها بحسب منهجه فالتخصص بالاحكام يبحث آيات الاحكام و المتخصص بالعقائد يحصى آيات العقائد و هكذا ...

فالفن القصصي في القرآن يفرد في مبحث خاص، و البعد التشبيهي يبحث في كتاب، و المثل القرآني يصدر في رسالة و هكذا ... و قد استجاب لهذا المنهج عدد غير قليل من الاساتذة بالجامعات في الوطن العربي، فوجهوا طلابهم في الدراسات العليا لاحتضان هذه الفكرة فتخصص قسم منهم بأجزاء من القرآن الكريم بدراسته موضوعيا: كمحمد خلف الله في رسالته (الفن القصصي في القرآن الكريم) و المؤلف في رسالته (الصورة الفنية في المثل القرآني / دراسة نقدية و بلاغية).

و السير بهذا المنهج يغني الباحث و الطالب في سبر المواضيع و الاطلاع على أسرار القرآن العظيم موبة و ممنهجة، لا سيما و أن السلف قد

(١) ظ: أمين الخولي، دائرة المعارف الاسلامية، مادة تفسير: ٣٦٨ / ٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٥

سار على طريقة تفسير سوره و آياته بحسب ورودها من المصحف، و في ذلك غنى و اكتفاء لطالبي المنهج السابق، و المنهج الحديث ييسر كثيرا من الجزئيات المتناثرة، و يقوم بعملية التقاء و وصلة لآخر الموضوع بأوله، و لشارده بوارده.

و في هذا المنهج كشف للصور المتعددة من الموضوع الذي يعرض له القرآن أكثر من مرة، كالحديث عن موسى و بنى إسرائيل مثلا إذ يقوم المفسر التقليدي بالحديث عنها في جزء من التفسير و العودة إليه في جزء آخر، بينما يقوم هذا المنهج بإحصائها و ترتيبها، و يكشف بذلك قدرتها على استنباط حقائق الأشياء بالصور المختلفة التي حاولها القرآن بحسب مناسبة النزول و قرائن الاحوال، و هنا يظهر العمق البلاغي للقرآن أكثر فأكثر، حيث يكون الإلمام بالموضوع، و الاحاطة به قد استوعبا جميع الجهات و الوجهات فيصبح التفسير جامعا مانعا.

و قد سبق بعض الأوائل إلى هذا المنهج من حيث لا يقصدون، و لعل من أهم مظاهر هذا المنهج عندهم هو التفسير التشريعي الذي عنى بفقهاء القرآن و أحكامه، و قد عاد مناخا للكشف عن الخلاف المذهبي عند المسلمين، فكل يعزز وجهة نظره الفقهية، و كل يلتمس الدلائل القرآنية التي تؤيد رأيا يميل إليه، فعاد كل تفسير من هذا النوع سجلا لفتاوى مذهب مؤلفه، حتى وضح فيه التعصب المذهبي و الخلاف بالأحكام الشرعية، و قد تطرف به البعض حتى عاد تفسيره أداة لنفي آراء بعض المسلمين و اثبات الاخرى، فحمل قلوبهم على ضعيفهم، و لجت مع هؤلاء و هؤلاء السياسة المعاصرة لكل منهم فأثبتت ما أرادت، و نفت ما يعارض مصلحتها، فتكون بذلك مزيج مما اختطت المذاهب و ارتأت السياسة.

و مع ما تقدم، فإن هذا المنهج قد كشف عن قدرات اجتهادية في الاستنباط و القياس و وجوه اعتماد الاحكام.

و هناك تفاسير مهمة لكل فريق و مذهب، و قد أخذت طابع آيات الاحكام في القرآن أو أحكام القرآن أو فقه «١».

(١) ظ: ابن النديم، الفهرست: ٤٠-٤١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٦

و نحن نورد هنا أهم ما أطلعنا عليه من هذه التفاسير:

١- للحنفية عدة تفاسير في الموضوع أهمها:

أ- أحكام القرآن للجصاص.

ب- التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية لأحمد بن سعيد.

٢- و للجعفرية عدة تفاسير أهمها:

أ- كنز الفرقان في فقه القرآن، للمقداد السيوري.

ب- فقه القرآن، لقطب الدين الراوندي.

ج- زبدة البيان في أحكام القرآن- للأردبيلي:

د- قلائد الدرر في تفسير آيات الأحكام بالأثر، للشيخ أحمد الجزائري النجفي.

٣- و للمالكية عدة تفاسير أهمها:

أ- أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي.

ب- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، و هو تفسيره الشهير، و يؤكد فيه على جانب الاحكام و استخلاصها.

٤- و للحنابلة عدة تفاسير أهمها:

الإكليل في المتشابه، و التنزيل، لأحمد بن تيمية.

٥- و للشافعية عدة تفاسير أهمها:

أ- أحكام القرآن، لأبي الحسن الطبري المعروف بالكيالهراسي.

ب- القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز، لأحمد بن يوسف الحلبي.

٦- و للزيدية عدة تفاسير أهمها:

أ- منتهى المرام، شرح آيات الاحكام، لمحمد بن الحسين. المبادئ العامة لتفسير القرآن ١٢٦ ٩ - المنهج الموضوعي: ..... ص : ١٢٤

الثمرات اليانعة و الاحكام الواضحة القاطعة، لشمس الدين بن يوسف.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٧

و هكذا الحال عند الخوارج، و أهل الظاهر لكل تفسيره المذهبي الخاص بأحكامه.

ان التفسير الفقهي، و الأخرى أن نسميه استخلاص و استقصاء آيات الأحكام من القرآن الكريم، ما هو إلا نموذج من نماذج التفسير

الموضوعي للقرآن الكريم الذي حبره الاوائل دون قصد إلى ذلك فيما يبدو لي.

و سنتناول هذا الموضوع في مكانه من البحث على وجه الدقة و التحقيق العلمي، و بيان فلسفة المنهج الموضوعي و أهميته «١».

## ١٠- مناهج أخرى:

و هناك مناهج أخرى في التفسير عمد إليها جملة من الاعلام، و لعل أبرزها المنهج الاحتجاجي و الادبي و الاجتماعي.

و قد خلص الأول منها و هو المنهج الاجتماعي إلى إبراز دور المقالات الاسلامية في العقائد و الكلام، فكان المنهج أرضا صالحة

تتفرع منها وجوه الاختلاف في الفروع و الجزئيات، و تتبرعم بمناخها معالم الأقوال في: قدم العالم و حدوثه، و صفات الله، و خلق



القرآن، وقضايا الامامة والخلافة، والمعاد الجسماني أو الروحاني، وغير ذلك من المشاكل الكلامية. ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه هو فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) في تفسيره مفاتيح الغيب. ويؤخذ على هذا المنهج أنه قد تجوز كثيرا في الدخول بمتاهات ومناقشات وآراء واجتهادات لا يتحملها النص القرآني، وإن كانت لا تخلو من فوائد جمّة في بيان تقارير المسلمين في العقائد وفروع الكلام وأصول المقالات، وقد يشاركه في هذا المنهج السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان. وترعرع حديثا المنهج الأدبي على يد سيد قطب في تفسيره: في ظلال القرآن وهو تفسير يجمع إلى جمال العبارة دقة التصوير، وإلى رشاقة الأسلوب سلامة التعبير، يعنى بالصورة الأدبية للقرآن، و يترصد قضاياها الجمالية، في التشخيص والتمثيل، والادراك الحسي، والتجسيد المتمثل،

(١) ظ: فيما بعد: مرحلة التجديد.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٨

ويخلص من وراء ذلك إلى كشف تناسق القرآن، وتحقيق توافقه في النظم والتأليف. وإلى جانب المنهج الأدبي يتبرعم المنهج الاجتماعي وقد نادى من ذى قبل كل من الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا صاحب المنار، وتابعهما على هذا جمهرة من الاساتيد في العصر الحاضر.

وهذا المنهج يعتمد التوفيق بين الدين الاسلامي، وقضايا الانسان المعاصرة، فليس بين الحياة العصرية والاسلام أى تناقض، ولا بين متطلبات الزمن والفهم الاسلامي لها أى تضاد، بل هنالك توافق وتلاؤم وانسجام، فالذى يدرس الحضارة والمدنية ويقارنهما بما قدم الاسلام من حلول للمشكلات يجدهما متوافقين في العرض والحل. وكان في هذا المنهج رد ظاهر على الدعوات الاستعمارية- في حينها- التي استهدفت الاسلام فصورته آلة جامدة لا تنبض بالحياة، لذا خلص هذا المنهج إلى أن الفهم الساذج للقرآن والتعامل السطحي مع الاسلام، قد أظهر أن الدين والقرآن يتعارضان مع المفاهيم الحديثة، بينما نجد التطبيق الخارجي السيئ للقرآن والاسلام معا هو المسئول الرئيسي الذي شجع على هذه المقولة، فالاسلام يسير جنبا إلى جنب مع تطلعات الأجيال، ويمقت التقليد الأعمى، ويفتح باب الاجتهاد ويراقب حقيقة التطور الاجتماعي والنمو التاريخي.

والشيء الجديد في هذا المنهج نعيه على من أغلق باب الاجتهاد وجمد أنشطة العلماء هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو لم يتقيد بآراء أصحاب المقالات، ولم يقف بالقرآن عند حدوده البلاغية ولم يقصره على القواعد الفقهية بل تعداه إلى مشاكل الكون، وقضايا الحياة، فطرحها بالشكل الملائم لطبيعة القرآن في الهداية والتشريع وإقامة الموازين.

ولعل تفسير المنار هو خير شاهد على ما نقول.

وقد ظهرت حديثا بعض الدراسات القرآنية لأجزاء من القرآن احتضنت هذا المنهج، ونشير إلى ما كتبه الدكتور محمد أحمد خلف الله في كل من:

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٢٩

أ- القرآن والثورة الثقافية.

ب- القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة.

ج- القرآن والدولة.

وفي هذا الاتجاه نلحظ رسالة للدكتور عبد الحسيب طه حميدة بعنوان: مع القرآن في آدابه ومعاملاته، و كتابا للدكتور محسن عبد الحميد بعنوان: حركة التغيير الاجتماعي في القرآن.

وما قدمناه من نماذج يشكّل أمثلة جزئية مما قرأناه ولا يعد حصرا أو استقصاء لاطراف ما ألف في هذا الباب، فهناك عشرات

الدراسات للقرآن تتجه نحو هذا الاتجاه.

و مما تقدم فى هذا الفصل يتضح مدى اتجاهات المسلمين فى التفسير، فكل له منهج و كل له طريقة، و فىهم من جمع بين منهج و آخر، و لكن الطابع العام لمنهجه فى التفسير كان ظاهرا فى جانب ما فغلبننا ذلك الجانب على تسميته و بهذا نكون قد قدمنا خلاصة احصائية فى أغلب مناهج التفسير عند المسلمين قدامى و محدثين، و فى ذلك تنتهى جولتنا فى هذا الفصل من الكتاب.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣١

## الفصل الخامس مراحل التفسير

### إشارة

١- مرحلة التكوين ٢- مرحلة التأصيل ٣- مرحلة التجديد

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٣

مر تفسير القرآن الكريم بعدة مراحل يمكن اجمالها بشيء من التجوز حيناً و الموضوعية حيناً آخر إلى ثلاث مراحل هي:

### ١- مرحلة التكوين:

مر التفسير بمرحلة التكوين ابتداء من عصر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و انتهاء بعصر التابعين، و قد يمتد جزء منه إلى الفترة الزمنية المتصلة بتابعى التابعين أحيانا.

كان الرسول الاعظم صلى الله عليه و آله و سلم أول مفسر للكتاب الكريم، و عنه نشأ التفسير بالمأثور. و قد جمع السيوطى مجمل الروايات التى صدرت عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و تم بموجبها تفسير بعض النصوص القرآنية على شكل آيات متقطعة و مجزأة، اعتباراً من سورة البقرة و اختتاماً بسورة الناس «١».

و قد عقب السيوطى على ذلك بقوله:

«فهذا ما حضرني من التفاسير المرفوعة المصرح برفعها، صحيحها و حسنها، ضعيفها و مرسلها و معضلها، و لم أعول على الموضوعات و الاباطيل» «٢».

و هو بهذا يصرح أنه لم يغربل هذه الروايات المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إنما جمعها جمعاً على علاقتها، و فيها الصحيح و الحسن و الضعيف و المرسل و المعضل. و الغريب فى الموضوع أن يدعى ابن تيمية و غيره: أن

(١) السيوطى، الاتقان: فى علوم القرآن: ٢١٤/٤ - ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٧/٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٤

النبى صلى الله عليه و آله و سلم بين لأصحابه تفسير جميع القرآن أو غالبه «١». فى الوقت الذى لم يصح فيه عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا القليل، و لو كان النبى قد ثبت عنه تفسير كل القرآن أو جلّه لما احتجنا إلى سواه، و الملحظ لهذا النوع من التفسير بيان المجمع، و ايضاح المبهم و تفسير المفردات، و كشف معانى الالفاظ، و تحديد الناسخ من المنسوخ، و إرادة العرف العربى العام فى الفهم المتبادر للذهن، فكان الدليل الهادى، و ما صح منه فهو حجة على العباد، و لدى انتقال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم إلى الرفيق الاعلى اقتسم التفسير طريقان، طريق أهل البيت عليهم السّلام و طريق الصحابة (رض). و يبدو واضحاً مما سبق أن

المبرر في هذين الجانبين هو الامام على عليه السلام دون منازع، و يخلفه في ذلك حبر الأمة عبد الله بن عباس (رض) «٢».

و تبدو الحجة في أصالة ما ورد عن أهل البيت و الصحابة كون النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد بين أمام هذه الطبقة المختارة من أهل البيت و الصحابة كثيرا من مشكل القرآن و غريبه، و سلط الأضواء الكاشفة عن موضع حاجتهم من أسرار القرآن الكريم، و يدهي أن الضرورة الملحة في فهم القرآن كانت تدعوهم إلى مساءلة النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و كان واجبه الشرعى و طبيعته عمل الرسالى يميلان الاجابة الفاصلة أضف إلى ذلك أن معاصرتهم للوحى الالهى تعنى معرفتهم بأسباب النزول، و قرائن الاحوال و مقتضى المناسبات، فكان لمجموع هذه الأسباب أن عاد تفسيرهم ذا أثر قيم كأثر المرفوع إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم «و لعل الروعة الدينية لهذا العهد، و المستوى العقلى لأهله، و تجدد حياتهم العملية ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ هذا، كل أولئك جعلهم لا يقولون فى تفسير القرآن إلا التوقيفى الذى نقل إليهم» «٣».

و قد نبغ فى التفسير طبقة من الصحابة تتفاوت مراتبهم من حيث الوثاقة و المعرفة، و معطياتهم من حيث القلة و الكثرة فى الرواية عنهم، و من

(١) المصدر نفسه: ٢٥٨ / ٤.

(٢) ظ: الفصل الثالث، مصادر التفسير، المصدر النقلى.

(٣) أمين الخولى: دائرة المعارف الاسلامية: ٢٤٩ / ٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٥

أبرزهم فى هذا المجال - زيادة على من تقدم ذكرهم فى المصدر النقلى - عبد الله بن مسعود، و أبى بن كعب.

و ما إن جاء عصر التابعين حتى رأينا كوكبة منهم تتميز بعلو الباع فى التفسير، و إن تمايز توثيقهم أو تضعيفهم، و لكنهم فسروا القرآن على أية حال، و وردت عنهم نصوص و آثار كثيرة، أما غربلة هذه النصوص و الآثار فيتولى تحقيقها علماء الجرح و التعديل فيما تعارفوا عليه من مواصفات مشروطة فى المفسر، قد تواضعوا عليها كما سبق بيان ذلك «١».

و فى طليعة هؤلاء التابعين تتألق الأسماء التالية: قيس بن سليم الكوفى، على بن أبى طلحة، مجاهد بن جبر المكى، قتادة بن دعامة السدوسى، عكرمة مولى ابن عباس، اسماعيل السدى الكوفى، عطاء بن أبى رباح، طاوس بن كيسان، جابر بن يزيد الجعفى، محمد بن السائب الكلبى، الحسن البصرى، عامر الشعبى، مالك بن أنس، و سعيد بن جبيرة و أضرابهم.

و طبيعى أن نجد من يتعصب لهذا و ذاك من المفسرين، و أن يفضل بعضهم على بعض، و هنا نشير إلى قول سفيان الثورى - على سبيل المثال - «خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبيرة و مجاهد و عكرمة و الضحاك» «٢».

و فى الحقبة التاريخية لهؤلاء كان ما نشأ من التفسير و علمه مقترنا بتاريخ الرواية عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم فكان أصحاب الرواية و الحديث هم أصحاب التفسير فى مرحلته الأولى، علما بأن التفسير لم يختلط بالحديث، فالحديث له مدوناته الخاصة به، إلا أنه اقترن بتاريخه فى النشأة و اتصل بالرواة و المحدثين، و هنا يتحتم التحرز الشديد فى الاخذ بهذا التفسير بأول منظور له، إلا بعد التأكد من عدم اختلاط ذلك بالوضع و الانتحال و الاسرائيليات، و ما دار حول ذلك من قصص دينى لا يستند إلى قاعدة من الوثاقة، و ما نجم عنه من تعيين أسماء و تواريخ لم ينص على ذكرها القرآن

(١) ظ: الفصل الثانى، آداب التفسير، الآداب النفسية.

(٢) السيوطى الاتقان: ٢١١ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٦

لا سيما بعد أن امتد العهد بهذا التفسير إلى حقب التابعين و تابعيهم، فنشأ جيل من أعداء الاسلام، و جيل من الكذب و الوضاعين، و جيل ممن قربه السلطان و اغدق عليه ففسر كما أراد، و ما من شك أن ضاعت بين هذه الأجيال حقائق شتى، و راجت خرافات شتى حتى عادت الموضوعات في كتب التفسير من الكثرة بحيث لا تعد و لا تحصى، و هنا يبرز دور الناقد الخبير من المفسرين في تمييز صحيح القول من فاسده، كما يتجلى دور علم الرجال في كشف جمهرة الكذب و إلقاء الضوء على المختلف من التفسير.

لقد نسب للشافعي قوله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث» (١). بينما نجد لابن عباس، تفسيراً كاملاً قد طبع باسم تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، لمجد الدين الفيروزآبادي، و هو في نحو أربع مائة صفحة.

و قد عنى العلماء بكشف جملة من الكذابين أو المتهمين به، أو الضعفاء فيما روه من التفسير عن النبي و الصحابة. فقد أجمع الحفاظ على أن ابن أبي طلحة لم يسمع التفسير من ابن عباس، و هذه التفاسير التي أسندوها إلى ابن عباس غير مرضية، و روايتها مجاهيل، و أما ابن جريح، فإنه لم يقصد الصحة، و إنما روى في كل آية من الصحيح و السقيم، و مقاتل في نفسه ضعفه، و تفسير السدي لم يورد منه ابن أبي حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد، و قد قال ابن كثير: أن السدي يروي أشياء فيها غرابة.

و هكذا تجد الحديث متوافراً في تجريح قسم كبير من رواة التفسير على أننا لا نميل إلى كثير من أساليب الافتراض بالاتهام لكثير من رواة التفسير، إذ قد تجد في بعضه منشأاً للتعصب الاقليمي حيناً و المذهبي حيناً آخر، و مع هذا غرابة فيما توصل إليه علماء الجرح و التعديل في هذا

(١) المصدر نفسه: ٢٠٩/٤ + خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال ١٥٠.

#### المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٧

المجال، إذ قد تجد في روايات البعض مزيجاً بين المعقول و المجهول، و خليطاً من المردود و المقبول فزاد بعضهم من عندياته غثاً و سمينا، و تخلف الآخر حول أخبار اليهود فشاعت الاسرائيليات في تعيين الازمان و البقاع بما لا مسوغ للتحقيق فيه أو التحقق منه، بعد أن أغفله الكتاب الكريم، متعدياً حدود الزمان و المكان ليعطى الشمولية لأحداث القرآن لهذا كان السليم من هذه الآثار قليلاً و كانت الدعوة إلى تمحيصها و تنقيحها متزايدة و هو ما نميل إليه. و من هنا نشأ الحرج و التلبث عن الكثيرين من السلف فمالوا إلى السكوت عن التفسير، و لا يمكن أن نتأول هذا بالعي أو الجهل، و لكنها الحريجة في الدين، و التورع من القول بكتاب الله عن هوى، فسهل بن المسيب كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال:

«إننا لا نقول في القرآن شيئاً...» (١).

و مع ما شاهدنا من حرجه فلا بد أن نشير إلى أن الروايات قد ذكرت كثيراً من المدونات في عصر التابعين و تابعي التابعين، فإن أول كتاب ظهر في التفسير كان لسعيد بن جبير (ت: ٩٤ هـ) و من بعده ألف اسماعيل السدي (ت: ١٢٧ هـ) ثم محمد بن السائب الكلبي (ت: ١٤٦ هـ) و هو صاحب التفسير الكبير، ثم أبو حمزة الثمالي أحد خواص الامامين السجاد و الباقر عليه السلام (٢)، ثم أبو بصير الأسدي صاحب الامام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، و له تفسير جليل و هو من تابعي التابعين (٣).

و ينبغي الإشارة هنا إلى أن ابن النديم قد نص على كتاب في التفسير ألفه الامام محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام (ت: ١١٤ - ١١٨ هـ) (٤)، كما حكى ابن شهر آشوب في معالم العلماء أن الامام أبا محمد الحسن العسكري (ت: ٢٦٠ هـ) قد أملى كتاباً في التفسير

(١) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير: ٣١.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٣٦.

(٣) ظ: أحمد رضا كلمة في التفسير، مجمع البيان للطبرسي: ٧/١.

(٤) ابن النديم الفهرست: ٣٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٨

على محمد بن خالد البرقي. و اسمه (تفسير العسكري) «١»، أقول و هذا الكتاب مشهور و متداول في هذا الاسم. و بناء على صحة رواية ابن النديم و ابن شهر آشوب يكون الامام محمد الباقر و الامام الحسن العسكري عليه السلام من أوائل من سبق إلى برمجة تفسير القرآن الكريم «٢».

و بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير، تختلف في قيمتها التفسيرية و الاثريّة و هي تجمع بين أقوال الصحابة و التابعين: كتفسير سفيان بن عيينة، و وكيع بن الجراح، و شعبة بن الحجاج، و يزيد بن هارون و عبد الرزاق، و آدم بن أبي اياس، و اسحاق بن راهويه، و روح بن عباد، و عبد بن حميد، و أبي بكر بن أبي شيبة «٣».

فالمرحلة الأولى في تكوين التفسير كانت مرحلة الرواية الممتدة إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم من قبل أهل البيت و الصحابة و التابعين و تابعيهم، أما المدونات فقد سبق إليها جمهرة من التابعين و اثنان من أئمة أهل البيت و طائفة من أصحاب الأئمة «٤».

و في هذه المرحلة نشأت ظاهرة جديدة بالعناية و الاهتمام و هي ظاهرة امتدت من القرن الثاني الهجري و حتى نهاية القرن الرابع، و هذه الظاهرة هي التأليف التجزيئي في مفردات القرآن أو مجازاته أو غريبه، فكانت تشمل أجزاء من آيات القرآن و سوره و مفرداته، امتازت بالتبويب و حسن الاختيار، فكتاب الأشباه و النظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي (ت: ١٥٠ هـ) من أوائل ما ألف في تفسير المفردات المتشابهة و المترادفة و المشتركة في القرآن و قد طبع أخيرا بتحقيق د. محمد عبد الله سحاته في جزئين. و قد عدّ (ابن النديم) له اثني عشر كتابا في التفسير و القراءات و المتشابه «٥». ثم تبع البلخي في كثير من المفردات

(١) ظ: أحمد رضا، كلمة في التفسير، مجمع البيان للطبرسي: ٧/١.

(٢) ظ: ابن النديم، الفهرست: ٣٦، ٣٧، في أسماء الكتب المصنفة في تفسير القرآن.

(٣) ظ: السيوطي الاتقان: ٢١١-٢١٢ / ٤.

(٤) ظ: بروكلمان تأريخ الأدب العربي: ٧/٤ - ١٩.

(٥) ظ: ابن النديم الفهرست: ٢٢٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٣٩

و الاستعمالات الفراء (ت: ٢٠٧ هـ) في معاني القرآن، و أبو عبيدة (ت:

٢١٠ هـ) في مجاز القرآن.

و ابن قتيبة (ت: ٢٧٠ هـ) في كتابيه تأويل مشكل القرآن و تفسير غريب القرآن و قد حققهما تحقيقا علميا دقيقا السيد أحمد صقر.

لقد امتازت هذه الظاهرة بالتدوين المنظم للغريب و الشوارد و الاستعمالات البلاغية في مختلف صنوفها و أثرت فيما بعدها من الحركة التأليفية في اللغة و المجاز بمئات الكتب القيمة كمعاني القرآن لأبي طالب المفضل بن سلمة الكوفي من علماء القرن الثالث الهجري، و مشكل القرآن لابن الأنباري من علماء القرن الرابع الهجري، و كتاب المحاسن في تفسير القرآن لأبي هلال العسكري (ت: ٣٩٥ هـ). و بعد هذه المحاولات في المرحلة الأولى، بدأت المرحلة الثانية للتفسير بشكله الرتيب، و هذه المرحلة كما سندرسها، تعتمد التفسير بالمأثور حيناً، و باللغة و البلاغة و الفهم العربي للنص الكريم حيناً آخر، أو التفسير بالاشارة و الرأي بعض الاحيين، و هذا ما اصطلحنا عليه بمرحلة التأصيل.

## ٢- مرحلة التأصيل:

يبدو أن المرحلة الأولى للتفسير بوأت النواة الصالحة التي انبثقت عنها مدونات علم التفسير في مرحلة التأصيل، فبعد أن امتد التفسير من النبي وآله وأصحابه والتابعين وتابعيهم، كان ذلك ايذاناً بحركة تفسيرية كبرى بلغت حد النضج والأصالة، وكان طبعاً أن تتبلور بعض المدارس التفسيرية التي مهدت لحركة التدوين المنظمة فيما بعد. ويمكن إلقاء الضوء على ذلك بما يلي:

١- مدرسة مكة، وكان قوامها أصحاب عباس (ت: ٦٨ هـ) وقد نبغ منها مجاهد بن جبر المكي (ت: ١٠٠-١٠٣ هـ)، وعكرمة مولى ابن عباس (ت: ١٠٤ هـ)، وأمثالهما، ممن أخذ عن ابن عباس، وكان ابن عباس نفسه قد أخذ عن أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام كما هو منصوص عليه «١».

(١) ظ: الزركشى، البرهان: ١٥٧/٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٠

٢- مدرسة المدينة، وكان قوامها ثلاثة من أئمة أهل البيت هم الامام علي بن الحسين زين العابدين، والامام محمد الباقر، والامام جعفر الصادق، وطائفة من تلامذة أبي بن كعب، وأصحاب زيد بن أسلم (ت: ١٣٦). وقد امتازت هذه المدرسة بالعمق والموضوعية فيما أثر عنها من روايات تجدها في أمهات التفسير.

٣- مدرسة العراق، كانت تمثل اتجاهين رئيسيين هما:

أ- الاتجاه العام، ويمثله تلامذة ابن مسعود (رض) وفي طليعتهم:

مسروق بن الاعدع (ت: ٦٣ هـ) والأسود بن يزيد (ت: ٧٥ هـ) وعامر الشعبي (ت: ١٠٥ هـ) والحسن البصري (ت: ١٢١ هـ).

ب- الاتجاه الخاص، ويمثله تلامذة الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق عليه السلام وقد نشأت عنه طبقتان:

الأولى: طبقة الرواة، وهم الذين رووا التفسير بإسناده إلى النبي وأئمة أهل البيت فحسب، وفي طليعته هؤلاء: زرار بن أعين، ومحمد بن مسلم، ومعروف بن خربوذ، وحريز بن عبد الله الأزدي الكوفي «١».

الثانية: طبقة المؤلفين، وهم الذين ابقوا أثراً تفسيرياً معتمداً على رأى أهل البيت عليه السلام وفي طليعتهم: فرات بن إبراهيم الكوفي، وأبو حمزة الثمالي، ومحمد بن مسعود الكوفي المعروف بالعيشي، وعلي بن إبراهيم القمي، ومحمد بن إبراهيم النعماني «٢».

إن هذه المدارس الثلاث فيما عهد بها من أصالة قد تم تدوين آثارها دون تمييز بين مذاهبها التفسيرية، إلا أن أغلب هذه المدونات لم تصل إلينا متكاملة بل متناثرة هنا وهناك على شكل روايات في كتب التفسير الأخرى.

وباستثناء ما كتب مقاتل بن سليمان و فرات بن إبراهيم الكوفي، ومحمد بن مسعود العياشي الكوفي، وبعض قطع من تفسير عبد الرزاق بن همام

(١) ظ: الخوئي، معجم رجال الحديث: ٢٥٥/٤. فيما يتعلق بترجمة حريز وقد ذكره البرقي باسم جرير وهو تحريف.

(٢) ظ: محمد حسين الطباطبائي، القرآن في الاسلام: ٦٠+ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١٤/١٩-١٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤١

الصنعاني (ت: ٢١١ هـ) وتفسير سفيان الثوري وقد طبع حديثاً في الهند.

وتفسير علي بن إبراهيم المعروف ب (تفسير القمي).

إن مرحلة التدوين هذه تبدو عليها التجزئة لآيات القرآن الكريم، وهذا ما تملبه طبيعة العمل التدويني المتناثر، وكان اعتمادها على

المأثور أحيانا، و على ظواهر اللغة و شواردها، أحيانا أخرى، و هذا يعنى إنها لم تشمل القرآن كلا متماسكا، أو لم يصل إلينا عملها الكلى متكاملًا. أما التفسير بكل محتوياته و جزئياته و حيثياته فيمكن القول فيما وصلنا منه - أن ابن جرير الطبرى (ت: ٣١٠ هـ) قد بدأه بتفسير المسمى (جامع البيان فى تفسير القرآن) و هو شامل لسور القرآن أجمع و قد أبان فيه مقدرة فائقة، و علما جما، و اطلاعا على الحديث و الفقه و علوم السنة، و اتبع فيه الأسلوب النقلي فى الرواية، و العقلى فى الاستنباط حتى عاد مرجعا فى فن التفسير و صناعته. و مما يميزه موقفه الجريء المعارض للمفسرين بالرأى و الاستحسان و ضرورة الرجوع فى التفسير إلى العلم الراجح، و تجده يقف أحيانا موقفا مقوما للرجال فقد يرد الرواية، و قد يضعف الراوى، و قد يعقب السند، و إن أغفله فى الغالب. و فى تفسير ابن جرير الطبرى علم كثير فى رد القراءات إلى أصولها، و فى استنباط الأحكام الشرعية، و فى تناوله لمباحث علم الكلام، و فى تنزيه البارى من الرؤية و التجسيم.

و لا يخلو تفسير الطبرى من شذرات نحوية و معالجات لغوية و من استشهاد فى الشعر العربى القديم للاستدلال على ما يختاره مما يعد مرجعا أصيلا فى اللغة و النحو و الأدب، و هو بعد تفسير جامع مانع كما يقول المناطقة، إلا أنه قد لا يلتزم الجانب الموضوعى فى كثير من الأبعاد فيهاجم أصحاب المذاهب و العقائد الأخرى، و قد يتهمهم بالزيغ و الانحراف. و يأتى تفسير الشيخ الطوسى محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠ هـ) فى قمة كتب التفسير التدوينية، قد أظهر فيه علم أهل البيت و الصحابة و التابعين بشكل نعتبه فيه محايدا لا يتجنى و لا يعتدى، و يؤثر القول بالمأثور أولا، و إلا فمن اللغة و مقتضيات الشرع، و تبادل العرف العام، و قد استعان كثيرا

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٢

فى تفسيره بتخصصه فى الفتوى و الأحكام الشرعية، فما فى الكتاب الكريم من آية بها حكم إلا أبانه، و لا إشارة شرعية إلا استقطب فيها القول، و لا اختلاف فقهى إلا أوضح مشكله و معضله، فترى فيه الرواية إلى جنب الدراية، و اللغة إلى جنب العرف، و الاستنباط بمحاذاة الاجتهاد، و المذهب الكلامى يازاء الفكر الاحتجاجى - و هو فى كل ذلك صليب الرأى، بعيد المدى، حديد النظر، يدير الأمر فى الآية إلى عدة وجوه فيبحث لغتها و لفظها، مستعينا بأقوال العرب، و يتمحض لمعنى الآية أو الآيات مؤثرا الروايات الصالحة و عليه استند الفضل بن الحسن الطبرسى (ت: ٥٣٨ هـ) فى تفسيره (مجمع البيان فى تفسير القرآن) و زاد عليه بأنه قد تخصص فى المأثور عن أهل البيت عليهم السلام و رجحه بما عاد به تفسيره سجلا حافلا بآراء المعصومين عليهم السلام و الطبرسى فى هذا عارض غير متعصب، و راوية غير متحيز، و إن عرض لكثير من الآراء الإسلامية و المقالات فى التقيّة و البداء و الولاية، إلا أنه لم يطعن فى أحد من الصحابة و لم يجرح شخصيه من السلف، و تفسيره على هذا يعتبر نموذجا فريدا من تفاسير الإمامية المعتمدة عرضا و أسلوبا و معالجة، قد كشف فيه عن مقدرة فى الفهم و تضلع فى اللغة و تمرس فى آثار العرب، و قد شحن كتابه بآراء علماء النحو و اللغة و البيان و الفقه و الحديث فعاد مرجعا متصفا بالأصالة و الموضوعية. و قد استعان كثيرا بتفسير الطوسى بل و سرد أغلب آرائه.

و يأتى تفسير الزمخشري: جار الله محمود بن عمر (ت: ٥٣٨ هـ) المسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل فى وجوه التأويل) فى قمة التفاسير البيانية، و امتاز بالإحاطة الواسعة فى علوم اللغة و المعانى و البيان و البديع و فنون الأدب، بما نستطيع أن نقول عنه: إنه لم يسبق إليه فى بابيه بكشف بلاغة القرآن، و جودة تعبيره، و جمال نظمه، فحسر عن الحسن التشبيهى، و البعد التمثيلى، و الكائن المجازى، و الأسلوب الاستعارى فى القرآن الكريم، و ركز على ذلك بعمق و أصالة أيما تركيز، حتى عاد تفسيره هذا كنزا ثمينًا لا يقدر بثمن من حيث الإبانة عن مواطن الإعجاز و الإفصاح عن حسن التأليف و عجب التركيب. و مما يلفت النظر فى تفسيره إصحاره عن كثير من الإسرائيليات و توقفه عندها. و قد يؤخذ

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٣

عليه تعصبه الظاهر للفكر المعتزلى بكل ما أوتى من قوة دليل و حجة فى البيان، حتى حمل الآيات المتشابهة فى القرآن على الآيات

المحكمة لدى تعارضها مع عقائد المعتزلة، و عدا هذا الملحظ فالتفسير جوهره بلاغية قيمة.

و يأتي تفسير الرازي محمد بن عمر بن الحسين (ت: ٦٠٦هـ) المسمى (مفاتيح الغيب) في الشهرة بعد هذه التصانيف المتقدمة، و يمتاز بالسعة و الإحاطة و الشمول، و قد ملأ الكتاب بالحجج و الأدلة و البراهين في رد المعتزلة، و التزم وجهة نظر الأشاعرة و تعرض لشبهات الملحدين، و هفوات الجاحدين، و قابلها بالرد و النقض، و اهتم بالعلوم الكونية، و الاستنباطات الرياضية، و الكشف الفلسفي، و الفقه و أصول الفقه، إلا أن الوجهة الكلامية هي السمة البارزة و الأثر المتوج في هذا التفسير.

هذه أبرز التفاسير في عصر تأصيل علم التفسير من القرن الرابع الهجري و حتى بدايات القرن السابع الهجري و هناك تفاسير لها مكانتها في عالم التفسير، و تكتسب أهميتها لكونها سلكت المنهج نفسه، و سارت بهذا الاتجاه في ضوء ما شرع هؤلاء المقعدون لهذا الفن، و الملاحظ أنها لم تخرج عن هذا الخط بل اعتمدت عليه حتى في الجزئيات، و بقي هذا متلاحقا حتى القرن الثالث عشر الهجري، و هنا نشير إلى أوسعها شهرة و أكثرها تداولاً، و نقدم كشفا تاريخيا موجزا في هذا المجال على النحو التالي:

- ١- تفسير القرطبي (ت: ٦٧١هـ) و اسمه: الجامع لأحكام القرآن.
- ٢- تفسير البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) و اسمه: أنوار التنزيل و أسرار التأويل.
- ٣- تفسير النيسابوري (ت: ٧٢٨هـ) و اسمه: غرائب القرآن و رغاب الفرقان.
- ٤- تفسير الخازن (ت: ٧٤١هـ) مؤلفه: علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي و يؤخذ على هذا التفسير تمسكه الشديد بالقصص و الإسرائيليات، فهو محتاج إلى تهذيب و تنقيح و طرح.
- المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٤
- ٥- تفسير أبي حيان (ت: ٧٤٥هـ) و اسمه: البحر المحيط.
- ٦- تفسير ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) و اسمه: تفسير القرآن العظيم.
- ٧- تفسير السيوطي (ت: ٩١١هـ) و اسمه: الدر المنثور.
- ٨- تفسير أبي السعود (ت: ٩٥٢هـ) و اسمه: إرشاد العقل السليم.
- ٩- أسرار الآيات، لصدر المتألهين، محمد بن إبراهيم الشيرازي (١٠٥٠هـ).
- ١٠- تفسير الصافي للفيض الكاشاني، محمد محسن بن المرتضى (ت: ١٠٩١).
- ١١- تفسير البرهان، للسيد هاشم البحراني (ت: ١١٠٧).
- ١٢- روح البيان، لأبي الفداء إسماعيل حقي (ت: ١١٢٧هـ).
- ١٣- تفسير الألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) و اسمه: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني.

و هنا نشير إلى أن العلامة الشيخ أحمد رضا قد حقق ملخصا تاريخيا فيما ألف في التفسير اعتبارا من القرن الأول الهجري و حتى القرن الرابع عشر و عد فيه جملة من المفسرين الأعلام من مختلف المذاهب و الديار و البلدان و جعله في مقدمته لمجمع البيان للطبرسي «١».

إن هذه المرحلة التي قومنا البحث حولها، تعتبر دون شك من أخصب مراحل التأصيل لفن التفسير، علما ذا قواعد و أسس و مصطلحات، إلا- أن الكثير من التفسير فيها ارتبط بغير التفسير، من تداخل كثير من الفنون و تعاقب جملة من العلوم، اعتبرت في مجموعها إقحاما ملحوظا على التفسير الموضوعي مما يجب تهذيبه و حذفه، فالصراع العقائدي و الاختلاف المذهبي، و الدخول في تفصيلات أجملها القرآن، و تحليل قسم من المتشابه و تسخير المحكم للأهواء، كل ذلك مما يجب تنزيه التفسير عنه.

(١) ظ: الطبرسي، مجمع البيان، المقدمة: ص ٧ و ٨ بعنوان: طبقات المفسرين.



المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٥

### ٣- مرحلة التجديد:

#### إشارة

في القرن الرابع عشر الهجري انطلقت الأصوات الخيرة في البلاد العربية والإسلامية، داعية إلى التجديد في تفسير القرآن، و طرح ما هو جديد على الساحة الثقافية والأدبية من خلال تطوير عملية التفسير، ولدى ملاحظة ما كتب و ألف في الموضوع وجدنا أن التجديد الذي يراد للتفسير الاتجاه نحوه بحسب هذه الدعوات يتمثل باتجاهين مختلفين، نعرضهما ونعقب عليهما باعتبارهما مرحلة من مراحل التفسير قد تسمى مرحلة بمرحلة الجديد.

#### الاتجاه الأول:

وقد نادى به الأستاذ محمد عبده و محمد جواد البلاغى و محمد رشيد رضا و طنطاوى جوهرى، فعبده و رضا و البلاغى - بملحظ التجديد و مسانيرة الحضارة و المدنية- اخضعوا التفسير للمفهوم الاجتماعى و لحاجات العصر، و جوهرى بملحظ مواكبة العلم الحديث اخضعه للعلوم الصناعية و المكتشفات، فكان تجديدهما بهذا الأسلوب فيه كثير من النظر، على أن المقارنة بين النهجين غير سليمة في حدود، فخطوة البلاغى و الأستاذ محمد عبده- فيما يبدو- خطوة جليئة القدر، بعيدة الأثر، في تحييب الإسلام للنفوس، و تيسير القرآن بقدر المستطاع لحل المشكلات المعاصرة، بعد أن ابتعد المسلمون عن الإسلام، و عاد القرآن حرزا يتعوذ به من الآفات. بينما نجد طنطاوى جوهرى يخضع أغلب آيات القرآن الكريم لمفهوم العلم الحديث أو يخضع مفاهيم العلم الحديث للمفهوم العام من الآيات القرآنية و هو نهج فيه كثير من التجوز، و خليط من جزاف القول، فالقرآن كتاب هداية و رشاد و توجيه، و ليس كتابا لخوض مجاهيل العلم الصناعى أو الاستكشاف الجغرافى و الرياضى، و هذا العلم الصناعى على تعدد جوانبه و كثرة شعبه و مداليه، يعطى النظرية العلمية اليوم و ينفىها غدا، و يسطر القانون الصناعى فى لحظة من الزمن و يطبل له و يزمرو لكن سرعان ما يجهز عليه فى مستقبل الأيام فماذا نصنع إذن؟ صحيح أنه لا يوجد تناقض بين العلم و الدين، و بين القرآن و التقدم لكننا نشاهد على مدى التجربة المعاصرة إن ما يثبت علميا اليوم قد يخطأ غدا، و هذا يعنى وقوع التهافت فى النص الموافق لذلك النظر الخاطى و القرآن الكريم نص

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٦

مقدس لدى جميع المسلمين، و ليس من السهولة أن يصبح عرضةً لأمر تستجد فى عشية و ضحاها، و هى أمور لا تسمن و لا تغنى من جوع. هذه المحاولات على سلامة القصد فى مصدرها إلا أنها تحوم فى سبيل إثبات رأى و ترجيح آخر، حققه غربيون أو أبرزه فنيون، و نقحم القرآن فيه إقحاما، و هو أمر خطير فيه من العسر و عدم المرونة ما فيه، و يقتضى أن يدخل على التفسير ما ليس منه، و أن يقال على الله ما لم يرد، و أن نتمحض للدلالات هامشية و استنباطات جانبية فى النص القرآنى و لعل القصد الأهم فيه غيرها، و نحن لا ننكر موافقة القرآن لأهم النظريات العصرية كما سبق الكلام فى ذلك «١» إلا- أننا لا نميل إلى هذا التجديد المقترض فى التفسير و لا نرجحه بل نميل إلى الاتجاه الثانى فيه.

#### الاتجاه الثانى:

و هو الاتجاه الذى نادى به كثير من العلماء و المفكرين الإسلاميين، و الذى أكد عليه الأستاذ أمين الخولى رحمه الله، و ذلك بالتوجه

لدراسة القرآن أدبيا و فنيا على أساس عملية التوزيع في أبحاثه و أبوابه باعتباره كتاب العريية الأكبر، فإن لهذا الكتاب هدفه إلا بعد و مقصده الأسبق و لا بد من الوفاء لهذا الهدف و ذلك المقصد دون جملة الأغراض الأخرى حيث أن القرآن كما يقول: «هو كتاب العريية الأكبر، و أثرها الأدبي الأعظم، فهو الكتاب الذى أخلد العريية، و حمى كيانها، و خلد معها، فصار فخرها و زينتها تراثها ... إن التفسير اليوم هو: الدراسة الأدبية الصحيحة المنهج، الكاملة المناحي، المتسقة التوزيع. و المقصد الأول للتفسير اليوم أدبي محض صرف، غير متأثر بأى اعتبار وراء ذلك، و عليه يتوقف تحقق كل غرض آخر يقصد إليه ...» (٢).

و هذا لا يعنى أن الخولى يدعو إلى فصل القرآن عن الحياة الدينية بل هذا لا يغير كون القرآن كتاب هداية و تشريع، و مصدر تطوير و تنوير بل هو يريد أن يكون القرآن الكريم قلعة شماء يحتمى بها من التعصب المذهبي و الحس الطائفي، و الاختلاف فى العقائد، و يجعل الكثيرين من أبناء العروية

(١) ظ: فيما سبق: المنهج العلمى.

(٢) أمين الخولى: دائرة المعارف الاسلاميه، مادة تفسير: ٣٤٦ / ٣٤٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٧

و الإسلام يعتزون بهذا التراث الضخم، و يفجرون طاقاته الكامنة، فى نظرهم إليه نظرة تقديس و إجلال، و ذلك من خلال استخراج كنوزه الخفية، و استحصال معادنه الثمينه، و لكن لا على أساس تعبدى محض بل على أساس فنى أيضا، هذا الأساس المتين الذى يصور بكل دقة و أصالة الجانب الجمالى فى القرآن القائم على الحس التعبيري و الذائقة الأدبية، فهو و الحالة هذه كتاب هداية للمسلمين، كما هو عصاره جهد فنى و إبداعى و لغوى فى حياة اللغة العريية، و عن طريق هذا المجال الرحب يتمكن الداعى للقرآن و المفسر له من جلب أكبر عدد واع إلى حضيرة الإسلام باستكناه الأثر الفنى فى القرآن مقارنا للأثر الدينى و التشريعى.

و قد استجاب لهذا التجديد فى أمر التفسير الدكتور السيد أحمد خليل فقال:

«إذا كان الأدب فى عامه أمره عملا خالقا، فإن التفسير فى جملة أمره كشف عن خصائص هذا الخلق و ملامحه المميزة له، و تحديد لجملة من الطاقات التى ينفرد بها أديب عن آخر فى لغته و بيانه و إحساسه بالحياة، و دقة ادراكه لأسرارها و نواميسها، و بين الأديب و المفسر، أو بين صاحب النص و المفسر له قرابات و صلات فصاحب النص ينقل الحياة بألوانها و شياتها المختلفة فى لوحات فنية أداته فى نقلها الكلمه، و المفسر ينقل مرة أخرى: الحياة و الفكر» (١).

و هذا المناخ الحديث الذى دعا له أمين الخولى يجعل عملية التفسير متجددة فى الأسلوب و العرض و الفكر، فالبعد عن العمق الفلسفى و النزاع التقليدى تجديد فى العرض، و نفاذ البصيرة، و مرونة الرؤية و الإشارة الموحية، و الكشف عن أساليب البيان، و النظر إلى عوامل التطور، و الأخذ بملحظ التصرف المدرك تجديد فى الفكر. و تجنب اللفظ المستكره، و الاستعمال الغريب و السجع المتكهن، و تصنع الدلالات التجديد فى الأسلوب.

و لقد استفاد عالمان جليلان من هذه الدعوة فائدة ملحوظة، و هما:

(١) السيد أحمد خليل، دراسات فى القرآن: ١١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٨

الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن، و الأستاذ السيد محمد حسين الطباطبائى فى تفسيره الميزان، أما سيد قطب فكان دعوة الخولى موجّهة إليه فجاء تفسيره روعة فى الأسلوب و البيان و جودة التعليل، و أما الطباطبائى فقد أفاد من الناحية الموضوعية، و إن اعتمد الجانب الفلسفى فى كثير من الوجوه. إلا أن سيد قطب قد جعل تفسيره متمشيا مع الذائقة العصرية فكان تفسيره كتاب دعوة للإسلام

رقة وحماس وإثارة. والطباطبائي جعل تفسيره معيارا للدفاع عن الإسلام من شبهات المضللين والمنحرفين و دعوات التزييف و الحقد الدفين.

على أننا نطمح أن تكون عملية التجديد في التفسير قائمة على أساس الوحدة الموضوعية البناءة، و ذلك عن طريق تجزئة القرآن بحسب ما طرح من موضوعات، و افترض من اطروحات، و قد ألمحنا لهذا فيما سبق (١).

و هنا نضيف: أن القرآن الكريم بتفسيره التقليدي قد اتخذ منهج التفسير الآلى التسلسلى آيات القرآن الكريم ابتداء من بسملة الفاتحة و انتهاء بتفسير سورة الناس، و قد برز هذا الاتجاه في التفسير منذ ينايعة الأولى و حتى العصر الحاضر باستثناء بعض المحاولات، و لا اعتراض لنا على هذه الوجة في التفسير و لكن لنا عليها تحفظا يتلخص بما يلي:

إن مهمة التفسير القرآنى في العصر الحديث و في المنظور العصرى للمفاهيم و القيم تتبلور في بيان مواكبة القرآن للحياة، و تتأكد في مآزجة الهدف الدينى في القرآن للهدف الاجتماعى، و إنما يبرز هذا الدور البناء لتفسير القرآن الكريم باعطاء الحلول الإنسانية المناسبة لمشكلات الجيل في الحياة.

و مشكلات الحياة ليست مجموعة مترابطة يشد بعضها البعض الآخر و إنما هي مجموعة متناثرة تجدها في كل زاوية من زوايا الهرم الإنسانى في الحياة فهناك - على سبيل المثال - المشكله الاقتصادية المتأرجحه بل المتذبذبه بين الرأسمالية و الاشتراكية، و هما أى الرأسمالية و الاشتراكية منقسمان إلى أصناف و اعتبارات، فأى الرأسمالية أنجح و أنجع في

(١) ظ: المنهج الموضوعى في الفصل السابق.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٤٩

الاقتصاد، هل هي الرأسمالية الليبرالية أم الامبريالية أم الحره، و أى الاشتراكية أولى بتنظيم الحياة أ هي الاشتراكية العلميه أم الاشتراكية العربية أم الاشتراكية العامه. إن التفسير الموضوعى للقرآن الكريم هو الذى يعطيك الجواب على هذه التساؤلات و هو الذى يتكفل بوضع البرامج الحقه لنظره القرآن حول هذه الموضوعات، و فى النهاية سنجد الحل المناسب للمشكله الاقتصادية فى المكان المناسب من القرآن الذى يمثل وجهه نظر الإسلام فى موضوع خطير كهذا الموضوع، و هكذا بقيه الموضوعات.

و يبدو أن التفسير التقليدى الذى دأب عليه السلف و تناوله بالوراثه الخلف عن السلف لا ينهض بمهمه مواكبة القرآن للحياة نهضة متكامله، لأن التأكيد على الجانب اللفظى من نحو و بلاغه و معنى عام لا يحيط بموضوع قائم بذاته فالموضوع القائم بذاته فى القرآن يحتاج إلى ضم آية فى وسط القرآن - مثلا - إلى آية فى أوله إلى أخرى فى آخره، و هكذا إلى أن تتكامل آيات الموضوع من هنا و هناك فى سور القرآن المتناولة له. و ليست هذه العمليه متعارفه الأبعاد فى التفسير المتسلسل الرتيب، و إن كانت لا تخلو بعض التفاسير من هذه الموضوعية و لكن فى إطار ضيق بقدر ما تسمح به ظروف الآية بحسب ما قبلها و ما بعدها.

و ليس التفسير التسلسلى بأمر توقيفى حتى نتمسك به، إنما نريد للقرآن أن يحتل مكانه فى الحياة و العلم و الاجتماع و التشريع و الفلسفه و الاقتصاد و التاريخ، و ذلك إنما يتأتى لنا بالتفسير الموضوعى للقرآن عن طريق تفصيل القول فيه موضوعا، بعد أن أشبع بحثا و تمحيصا آية آية، و هذا و ذاك يكشف عن مراد الله تعالى، و هي مهمه التفسير فى الاصطلاح، إلا أن هذا النهج المقترح يعطيك مراد الله تعالى فى الموضوعات كآفه، و سواء قد يعطيك مراد الله و لكن فى فهم آيات القرآن بحسب تسلسلها من المصحف الشريف، دون نظر المفسر إلى موضوع بذاته، أو مشكله بعينها، أو مادة بنفسها، و هذا ما ندعو إلى تحقيقه. من خلال التفسير الموضوعى.

و فى سبيل أن أكون واضحاً فى الفكرة اضرب مثلا يقربها تطبيقيا، لقد قمت بمحاوله متواضعة فى سبيل تحقيق هذا المنهج، فكانت رسالتى للدكتوراه بعنوان «الصوره الفنية فى المثل القرآنى: دراسة نقدية و بلاغية»

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥٠

فجمعت بمقتضى ذلك آيات الأمثال آية آية فكانت واردة في سبعة و خمسين موضعا من القرآن يتراوح الموضع الواحد منها بين الآية الواحدة إلى ثمانى عشرة آية كما هو فى مثل أصحاب القرية، بسورة ياسين. وقد قمت بعد ذلك باخضاع علمى النقد و البلاغة لمفهوم هذه الآيات، فكان أن حصرت أبعاد المثل القرآنى و فسرتها بحسب موضوع الرسالة تفسيراً موضوعياً نال بكل تواضع إعجاب أساتذة جامعة لندن و جامعة القاهرة و جامعة بغداد، نسأل الله أن يكون ذلك خالصاً لوجهه الكريم» (١).

و عوداً على بدء فإن من يريد أحكام الزواج - مثلاً- أو سنن التاريخ و أحوال الأمم السابقة، أو فلسفة الصلاة أو الديانات و الأعراف السائدة، أو حياة كثيرة من الأنبياء و المرسلين، أو الحديث عن يوم القيامة و مشاهدتها فى البعث و النشور أو مناخ الثواب و العقاب. أو حال المتقين و المؤمنين، أو مصير الكافرين و المنافقين، أو صفة الجنة و النار و كيفية العذاب، إن من يريد ذلك لا يحققه بيسر أو مرونة من خلال التفسير التسلسلى لآيات القرآن و لكنه يستطيع تحقيق ذلك من خلال ضم الآية إلى الآيات الأخرى من مختلف سور القرآن فى الموضوع الواحد و عرضها عرضاً تفصيلياً و موضوعياً.

إن هذا الاتجاه لا يمكن أن يتجنى على الوحدة الموضوعية للقرآن فأياته هى هى، و الكتاب الكريم محفوظ بين الدفتين، و لا يسمح لأحد أن يتصرف جزئياً أو كلياً فى القرآن على الإطلاق، بل نريد هنا أن تكون موضوعات القرآن فى تناول الإنسان المعاصر بعرض جديد، و بأسلوب

(١) كتبت هذه الرسالة بإشراف العلماء الاعلام.

الاستاذ الدكتور يوسف خليف رئيس قسم اللغة العربية و آدابها فى كلية الآداب بجامعة القاهرة.

الاستاذ الدكتور جميل سعيد أستاذ الدراسات العربية العليا فى كلية الآداب بجامعة بغداد.

الاستاذ الدكتور داود سلوم أستاذ البلاغة: و النقد الادبى فى كلية الآداب بجامعة بغداد و نالت التقدير العلمى بعد المناقشة العلنية فى: ١٩٧٩ / ٣ / ١٩ بدرجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى و التوصية بترجمتها و طبعتها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥١

جديد، و بتبويب جديد فالقرآن هو هو بحسب ترتيبه من المصحف، و لكن لا مانع أن نبحت فلسفة التوحيد فنجمع ما تناثر من نجوم القرآن و نربطها بإطار موحد جديد يدعو إلى التيسير فى فهم هذا الجزء من معطيات القرآن فهناك مئات الموضوعات بل آلافها، يمكن أن تبحت جزءاً جزءاً فنعطى صيغتها المعنوية و صفتها التفسيرية و أطروحتها فى الحلول للمشكلات المعقدة و هذا لا يتم إلا عن هذا الطريق السليم الذى يدعو إلى فهم القرآن فهما معاصراً و يكون بذلك عطاءً غنياً كما أراد له الله تعالى لا- كما أراد المفسرون التقليديون، و فى هذا الضوء نكون قد حققنا الانتقال بالتفسير من مهمة لفظية. بلاغية كانت أو نحوية، أو معنوية إلى مهمة أكبر و هدف أشمل و عالم أوسع و هذا ما نصبوا إلى تحقيقه على يد الشباب المثقف و الطبقة الواعية من الباحثين.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥٣

## الباب الثانى التفسير فى المستوى التطبيقي

### إشارة

١- الفصل الأول: التفسير التسلسلى الموضوعى.

٢- الفصل الثانى: التفسير التسلسلى التفصيلى.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥٥

## الفصل الأول «التفسير التسلسلي الموضوعي»

### «تفسير سورة الزخرف»

#### إشارة

موضوعية هذه السورة ١- حم، و الحروف المقطعة.

٢- القرآن الكريم.

٣- إرسال الأنبياء.

٤- آلاء الرحمن.

٥- محاجة المشركين.

٦- إبراهيم و قومه و التوحيد.

٧- مقارنة بين القيم المتقابلة.

٨- عاقبة المعرضين و وظيفة الرسول الأعظم.

٩- موسى و فرعون و قومه.

١٠- عيسى و ضرب المثل و البيئات.

١١- من مشاهد القيامة.

١٢- تنزيه الباري و مسك الختام.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥٧

#### موضوعية هذه السورة:

التفسير الموضوعي سبق الحديث عنه في مناهج التفسير، و سبقت لي الكتابة فيه موضوعا مبرمجا عن الأمثال في القرآن العظيم في رسالتي للدكتوراه قبل ربع قرن من الزمان، «الصورة الفنية في المثل القرآني/ دراسة نقدية و بلاغية» مما جعل كثيرا من اخواني و زملائي أساتذة الجامعات يعتبروني من الرواد في هذا الحقل القرآني الشريف، بعد هذا اكتشفت أن في سورة القرآن ما قد يستنبط منه المنهج الموضوعي، و وقفت به عند «سورة الزخرف» فوجدتها سورة محددة الموضوعات، تبحث موضوعا معينا، ثم تنتقل إلى موضوع آخر، ليطل بعد ذلك الموضوع الثالث و هكذا ... استقرت أبعاد هذه السورة المباركة، فرأيت فيها رافدا جديدا من روافد التفسير الموضوعي، إلا أنه هنا تسلسلي بحسب وروده من المصحف، و لمست الوحدة الموضوعية منطبقه على كل موضوع تناوله السورة، فهي تبحث موضوعا ما فتشبهه فكرة و تمحوا و إضاءة، و تنتقل إلى موضوع آخر يرتبط نظما و سياقاً بالموضوع الأول، و يتقدم الموضوع الثالث من السورة كيانا مستقلا و لكنه يتعلق بوجه ما بالموضوع السابق، و يتبلور الموضوع الرابع فتمسكه فكرة قائمة بذاتها و لكنها متصلة بالموضوع الخامس، و كلما عاودت النظر في السورة ازددت بصيرة بموضوعيتها الصالحة للتفسير الموضوعي، فأقدمت على تفسيرها، عسى أن أكون موقفا بحدود معينة إن استطعت أن أضيف للتفسير الموضوعي بعدا جديدا يتحقق في السورة الواحدة في موضوعاتها المتعددة.

تحملت سورة الزخرف عبء الحديث عن موضوعات لها أهميتها

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥٨

القصوى فى درس العقيدة و التوحيد، و لها ملامحها الخاصة فى صفة القرآن و الكون و الشرائع، و لها آثارها فى استقراء التاريخ الأسمى لأكثر من جيل و جيل، و لها حديثها الرائع عن سيرة جملة من الأنبياء مع الطواغيت و الأمم، و فيها لمحات من أدب الاحتجاج مع المشركين و تقرير أخطائهم، و بها مقارنة حية بين القيم المتقابلة، و فيها من الأمثال ما يجدد العبرة و الاذكار، و فى خلالها تستدرج جزءا من حياة أربعة من أولى العزم من الرسل: محمد، إبراهيم، موسى، عيسى، مع وقفات حاسمة لهم مع الشعوب، و فيها تأكيد على التوحيد، و تنزيه الله، و بيان عظمتة و كبريائه، و فيها مسحة اعتبارية هائلة من مشاهد يوم القيامة. هذه الموضوعات العظيمة كانت محورا للتفسير الموضوعى للسورة اختص كل منها بعنوان يبحث ذلك الموضوع كما هو مرقوم فى بداية هذا الفصل.

إن طريقة التحليل المنهجى، و البيان الاستقرائى، و العرض الأدبى، سمات بارزة فى الاستطراد التفسيرى لهذه السورة، و قد استبعدت سيلا من الروايات المتنافرة، و تجاوزت موجا من الآراء المضطربة، ببديل من الفهم العربى المتبادر للذهن، باعتبار السورة نصا عربيا ذا طابع إلهى، و فكرا توحيدا ذا منطق إعجازى، فهو كشف إيضاحى بعيد عن العسر و التزمت، يستوحى المعنى الشائع، و يميل إلى الذاتية اللبائية، و قد ادخرت للقارئ المنهج التحليلى المتشعب فى الفصل الثانى لدى خوص التفسير التسلسلى التفصيلى بالوقوف عند «فاتحة الكتاب» و قفة المتطلع لجميع الأبعاد.

و بذلك نكون قد جمعنا بين الأمرين، و سرنا فى التفسير باتجاهين، و الله سبحانه الموفق للصواب.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٥٩

### حم و الحروف المقطعة

(حم) من الحروف المقطعة، و نريد بها حروف المعجم العربى الهجائية، التى تكرر ورودها فى القرآن الكريم.

و قد وردت (حم) بخاصة فى سبع سور هى: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

و قد نص جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) أنها آية فى هذه السور كلها مستندا إلى روايات يؤيده فيها أغلب المفسرين «١».

و قد اختلف السلف الصالح فى المراد من هذه الحروف المقطعة على قولين:

الأول: إن هذه الحروف فى دلالتها و إرادتها من العلم المستور و السر المحجوب الذى استأثر به الله تعالى.

و ادعى الشعبى: أنها من المتشابه، تؤمن بظواهرها، و نكل العلم فيها إلى الله عز و جل، و قد روى أبو جعفر الطوسى (ت: ٤٤٠ هـ) أنها

من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله، و اختاره الحسين بن على المغربى «٢».

و قد أنكر المتكلمون هذا القول، و ردوا هذا الزعم فقالوا: لا يجوز أن يرد فى كتاب الله ما لا يفهمه الخلق، لأن الله تعالى أمر بتدبره،

و الاستنباط منه، و ذلك لا يمكن إلا مع الاحاطة بمعناه «٣».

(١) ظ: الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ١ / ٢٤٧.

(٢) ظ: الطوسى، التبيان فى تفسير القرآن: ١ / ٤٨.

(٣) ظ: الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ١ / ١٧٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٠

بينما أيده من المتأخرين مالك بن نبي فقال: «و لسنا نعتقد بإمكان تأويلها إلا إذا ذهبنا إلى أنها مجرد إشارات متفق عليها، أو رموز

سرية لموضوع محدد تام التحديد، أدركته سرا ذات واعية» (١).

الثاني: إن المراد منها معلوم، ولكنهم اختلفوا فيه بعدة آراء تتفاوت قيمته و دلالة و موضوعيته، وقد تداعت كلمات الاعلام في هذه الآراء حتى نقل الخلف عن السلف، و أستند اللاحق إلى السابق بنسبة و بدون نسبة، و نحاول فيما يلي أن نعطي كشفا بأبرز هذه الآراء ثم نعقب عليها بما نأنس به و نظمئن إليه (٢).

١- اختار ابن عباس: أن كل حرف منها مأخوذ من أسماء الله تعالى، و يقاربه ما روى عن السدى و الشعبي أنها اسم الله الأعظم (٣).  
و لا تعليق لنا على هذا الزعم من ناحيتين:

الأولى: إن أسماء الله تعالى تتداخل بضمنها جميع الحروف في المعجم العربي فلا ميزة لحرف على حرف.  
الثانية: إننا نجهل اسم الله الأعظم لاختلاف الآثار فيه إن صح صدور تلك الآثار.

٢- إن الله تعالى أقسم بهذه الحروف على وجهين:  
وجه اختاره ابن عباس و عكرمه، بأن هذا القسم بأسمائه لأنها أسماؤه.  
و وجه: أن هذا الكتاب الذي يقرؤه محمد صلى الله عليه و آله و سلم، هو الكتاب المنزل لا شك فيه، و ذلك يدل على جلالته قدر هذه الحروف إذ كانت مادة البيان، و قد أقسم الله ب (الفجر) (و الطور) و غيرهما، فكذاك شأن هذه الحروف في القسم بها (٣).

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ٣١٢.

(٢) ظ: في التوفيق بين هذه الآراء و تفاصيلها الأخرى كلا من: الطبري، جامع البيان+ الطوسي، التبيان: ١/ ٤٧+ الطبرسي: مجمع البيان: ١/ ٣٣+ الزمخشري، الكشاف: ١/ ٧٦+ الرازي، مفاتيح الغيب+ ابن الزمكاني، البرهان: ١/ ١٧٣- ١٧٤+ الزركشي البرهان+ السيوطي الاتقان: ٣/ ٢١- ٢٨.

(٣) ظ: الطوسي، التبيان: ١/ ٤٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦١

و هذا احتمال جائز يشكل علينا الخوض فيه، و إن كنا لا نميل إليه.

٣- إنها أسماء لسور القرآن، و روى ذلك عن زيد بن أسلم و الحسن البصري (١).

و ذلك أن الأسماء وضعت للتمييز ف (الم) اسم لهذه السورة، و (حم) اسم لتلك، و قد وضعت هذه الحروف لتمييز هذه السور عن غيرها، و قد نص على ذلك سيويه (٢)، و نقله الزمخشري عن الأ-كثرين (٣)، و قال فخر الدين الرازي (ت: ٥٦٠٦هـ) بأنه قول أكثر المتكلمين (٤).

و هذا الوجه يؤيده كثير من السيرة الاستقرائية، ففي تعارف الناس بعامة، و أهل العلم بخاصة، على تسمية هذه السور بهذه الاسماء حتى عصرنا الحاضر، و إذا أطلقت دلت على مسمياتها بحدود، و قد اختار ذلك الطوسي فقال: و أحسن الوجوه التي قيلت قول من قال أنها أسماء للسور (٥). و أيده الطبرسي (٦).

و إذا كانت هذه الحروف أسماء لسورها فلا كبير أمر من بحث وجوه تسميتها، ثم الا تلتبس هذه السور بعضها ببعض لا سيما في المكرر منها، كما هو الحال في (حم)، و الله العالم.

٤- إنها فواتح يفتح بها القرآن، و قد روى ذلك عن مجاهد بن جبر، و مقاتل بن سليمان البلخي (٧).

و فائدة هذه الفواتح على وجهين:

الأول: أن يعلم ابتداء السورة و انقضاء ما قبلها.

(١) ظ: الطوسى، التبيان فى تفسير القرآن: ١ / ٤٧.

(٢) ظ: سيويه، الكتاب: ٢ / ٣٠.

(٣) ظ: الزمخشري، الكشاف: ١ / ٧٩.

(٤) الرازى، مفاتيح الغيب نقله عنه الزركشى، البرهان: ١ / ١٧٤.

(٥) ظ: الطوسى، التبيان: ١ / ٤٧.

(٦) ظ: الطبرسى، مجمع البيان: ١ / ٣٣.

(٧) ظ: الطوسى، التبيان: ١ / ٤٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٢

الثانى: انها تنبيهات كما فى النداء، وقد اختار ذلك الخويى فرأى بأن القول بأنها تنبيهات جيد، لأن القرآن كلام عزيز، و فوائده عزيزة، فينبغى أن يرد على سمع متنبه ... و إنما لم تستعمل الكلمات المشهورة فى التنبيه كالألا- و أما لأنها من الألفاظ التى يتعارفها الناس فى كلامهم، و القرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يؤتى فيه بألفاظ تنبيه لم تعهد. لتكون أبلغ فى قرع سمعه «١».

و يميل إلى هذا رأى كثير من المعاصرين، و يقطع بعضهم بأن المراد من هذه الحروف دون شك هو الافتتاح، كما استفتحت العرب بالألا الاستفتاحية و أضرابها «٢».

و يقصد هذا القول روايتان أوردهما السيد هاشم البحرانى فى تفسيره، أسند أحدهما إلى الامام على عليه السلام، و الأخرى إلى الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام «٣».

و إذا ثبتت هاتان الروايتان فالأخذ بهما أولى الوجوه.

٥- إن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، و يكون تعجبهم سبباً لاستماعهم، و استماعهم سبباً لاستماع ما بعده، فترق القلوب و تلين الأفتدة «٤».

و هذا القول يجوز أن يكون أحد الفوائد المترتبة على هذه الحروف فهى من قبيل الملازمة لها، و إن كان المراد غيرها، و قد ترجم هذا رأى بمنظور عصرى و أضاف إليه السيد محمد جمال الهاشمى فقال: «إن القرآن فى أسلوبه البيانى الفذ أراد أن يجذب الأنظار و الأفكار فافتتح بعض سوره المباركة بهذه الحروف المقطعة فهى أشبه ما تكون بإشارات المحطات العالمية فى الراديو حيث تتخذ كل دولة لها رمزا خاصا يدل على محطة إذاعتها، و غير بينها و بين غيرها من المحطات، و هكذا القرآن كان يتخذ من

(١) السيوطى، الاتقان فى علوم القرآن: ٣ / ٢٧.

(٢) عبد الجبار حمد شرارة، الحروف المقطعة فى القرآن الكريم: ٥٨ - ٦٨.

(٣) هاشم البحرانى، البرهان فى تفسير القرآن: ١ / ٣٤.

(٤) الزركشى، البرهان فى علوم القرآن: ١ / ١٧٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٣

هذه الحروف رمزا مخصوصا لوحيه يستلقت بها الأذهان لتستمع إلى آياته المنزل بوعى و انتباه، و لا زالت هذه الهزة الوجدانية تعترى النابهيين من المؤمنين كلما طرقت أسماعهم هذه الحروف الساحرة فى تقاطيعها المطربة، و إنما كان يستعمل هذه الإشارة الحروفية فى الحالات الخاصة التى تستدعى الاهتمام، كما أنه ربما ييادئ الانسانى بموضوعه من دون تقدمه و تمهيد حتى بما التزم به من الاستهلال كجمله: بسم الله الرحمن الرحيم، لأن الموضوع نفسه يستدعى المبادأة و المفاجئة كسورة براءة، فالقرآن إنما يجرى فى مفاتيح سوره مع الظروف المحيطة بتلك السور المباركة، و إن للحروف المقطعة من التأثير ما لا يخفى على السامع الواعى «١».



و هناك كثير من الآراء أعرضنا عن سردها، و تطلب في مظانها، لأن بعضها خرافي كإرادة الحساب الابددي منها، و الآخر باطني كالإشارة إلى الحوادث، و القسم الآخر قد يتداخل بعضه في بعض، لنقف على الرأي الأخير.

٦- إن هذه الحروف تدعو العرب و تناديهم إشارة إلى إعجاز القرآن، بأن هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه و آله و سلم هو من جنس كلامكم و سنخ حروفكم، و مما يتكون منه معجمكم، فأتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين.

و قبل أن نعقب على هذا الرأي يجب أن نشير بإعجاب إلى أن الاستاذ عبد الجبار محمد حسين شرارة قد بحث هذه الحروف بجهد قيم متميز بعنوان (الحروف المقطعة في القرآن الكريم) «٢»، و سرد أغلب الآراء فيها، و استقر عنده الرأي:

«إن الحروف المقطعة، ما هي إلا فواتح افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم مباينة للعرب في المألوف من ابتداءات كلامها، على سبيل

(١) محمد جمال الهاشمي، من تفسير القرآن الكريم، بحث في مجله الايمان النجفية، السنة الأولى، العدد الخامس و السادس: ص ٣٨٥، النجف، مطبعة القضاء ١٩٦٤.

(٢) مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٨٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٤

التمييز و التفرد، و كصيغة من صيغ البيان «١».

و هذا الرأي يضاف إلى فريق القسم الرابع المتقدم، و مع وجاهة ما ذهب إليه، إلا أن هذا لا يمانع من أن نضيف إليه و نأنس بما ذهب إليه أبو مسلم، محمد بن بحر الأصبهاني (ت: ٣٧٠ هـ) في قوله: «إن المراد بذلك بأن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته، و لم تقدروا على الاتيان بمثله، هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في كلامكم و خطابكم، فحيث لم تقدروا عليه فأعلموا أنه من فعل الله» «٢».

و مما يؤيده ما حكى عن الأخفش: إن الحروف مباني كتب الله المتزلة بالألسنة المختلفة، و أصول كلام الأمم «٣».

فهى أصل الكلام العربي في هذا الكتاب العربي المبين الذي عجزتم عن الاتيان بمثله، على أنه متركب من جنس حروف العرب، و هذا أدل على الاعجاز القرآني باعتباره مشاكل لكلامهم، فعلم بالضرورة أنه كلام الله تعالى، و لا يمنع الاعتداد بهذا القول أن ندع مضامين الأقوال الأخرى، و قيمتها الفنية، لا سيما القول بالمتشابه فهو أسلم الوجوه عند الله تعالى، و لكنه الاجتهاد في الموضوع على أسس من القواعد، و رأينا فيما نرجحه يتلخص فيما يلي:

١- إن القول بأن هذه الحروف إشارات إعجازية ليست من ابتكارنا، و لا هي أمر نحن ابتدعناه، و إنما سبق إليه جمع من الاعلام نورد جملة منهم:

أ- أبو مسلم، محمد بن بحر الأصبهاني (ت: ٣٧٠ هـ) «٤».

ب- القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت: ٤١٥ هـ) «٥».

(١) عبد الجبار حمد شرارة، الحروف المقطعة في القرآن الكريم: ٦٧.

(٢) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٤٨.

(٣) ظ: الطبرسي، مجمع البيان: ١ / ٣٣.

(٤) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٤٨.

(٥) القاضي عبد الجبار، متشابه القرآن: ١ / ١٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٥

ج- تتبعه الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) «١».

د- تتبعه الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) «٢».

هـ- أبو الفضل الحسن بن الفضل الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) «٣».

و- فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦ هـ) وقد نسبته إلى المبرد (ت:

٢٠٧ هـ) «٤».

ز- وأورده ابن الزمكاني (ت: ٦٥١ هـ) واعتبر الحروف كالمهيجة لمن سمعها من الفصحاء، و الموقظة للهمم الراقدة من البلغاء «٥».

ح- وذكره ابن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤ هـ) «٦».

ط- و تابعه على ذلك الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) «٧».

و يذهب إلى هذا القول من المحدثين جملة أعلام منهم:

أ- الاستاذ السيد محمد رشيد رضا «٨».

ب- الاستاذ السيد قطب «٩».

ج- الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) «١٠».

إن هذا الحشد الهائل من الاعلام يجب أن لا يذهب ما رجحوه و توصلوا إليه بذائقتهم الفنية أدراج الرياح.

٢- إن ما أبداه الزمخشري، و عدده من فضائل هذه الحروف

(١) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٤٨.

(٢) الزمخشري، الكشاف: ١ / ٩٣ و ما بعدها.

(٣) الطبرسي، مجمع البيان: ١ / ٣٣.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب: ٢ / ٦.

(٥) ابن الزمكاني، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٥٧.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١ / ٦٧.

(٧) الزركشي، البرهان: في علوم القرآن: ١ / ١٧٥.

(٨) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١ / ١٢٢.

(٩) سيد قطب في ظلال القرآن: ١ / ٣٨.

(١٠) بنت الشاطي، الاعجاز البياني للقرآن الكريم: ١٢٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٦

و تقسيمها و ترتيبها و تعقيبه على ما ألغى منها، و ما ذكر بحسب حروف المعجم بقوله:

«إذا استقرت الكلم و تراكيبيها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها، و قد علمت أن معظم الشيء و جله ينتزل منزله كله و هو المطابق للطائف التنزيل و اختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم...» «١».

لدليل على سر الاعجاز القرآني، المرتبط بدقائق هذه الحروف بجزئياتها التي تتركب منها كليات القرآن العظيم، و التنبيه على ضرورة الأخذ بهذا الملحظ عند سماع هذا البيان الجديد، و التحدي السافر بهذه الحروف.

٣- إن هذه الحروف طالما ورد بعدها ذكر القرآن أو الكتاب معظماً مفخماً، يتلوه الدليل على إعجازه، و الحديث عن الانتصار له، مما يؤكد كون هذه الحروف إشارات إلى إعجازه و كما له و تحديه، كما لحظ هذا الرازي و ابن كثير، و أشارت له بنت الشاطي «٢».

٤- إن المتتبع لأسباب النزول يجد هذه السور المفتحة بهذه الحروف، قد نزلت بأشد الظروف قسوة على الرسالة الإسلامية، فكان التحدي على أشده قائماً بمثل هذه الحروف أيضاً، و جميع ذلك كان في السور المكية، و هي الحقبه التي واجهت بها الرسالة عنفا و خطرسةً و تكديبا، فجاءت هذه الحروف رداً مفحماً في التحدي و الدليل على صدق المعجزة.

و ما جاء منها في السور المدنية، فقد كان تحدياً لأهل الكتاب فيما نصبوه من العداة للدين الجديد، و إنذاراً للمنافقين فيما كادوا به الدين الجديد لا سيما في سورتي البقرة و آل عمران.

و لا ندعي أن هذا هو المراد من هذه الحروف، و هو السر في سردها بشكلها في القرآن، و لكنها نظرة من النظرات قد تصيب و قد تخطئ،

(١) الزمخشري الكشاف: ١/١٠٣.

(٢) الدكتور بنت الشاطي، الاعجاز البياني للقرآن: ١٢٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٧

و لكنها على الأقل من الوجوه المحتملة في الموضوع، و نقول بكل تواضع:

الله أعلم، كما قال مالك بن نبي: «لقد حاول معظم المفسرين أن يصلوا إلى موضوع الآيات المغلقة إلى تفاسير مختلفة مبهمه، أقل أو أكثر إسهاماً للقيمة السحرية التي تخص بها الشعوب البدائية: الكواكب، و الأرقام و الحروف، و لكن أكثر المفسرين تعقلاً و اعتدالاً، هم أولئك الذين يقولون في حال كهذه بكل تواضع: الله أعلم» «١».

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية: ٣٣٣ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٨

### «القرآن الكريم»

بسم الله الرحمن الرحيم حم (١) و الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (٤) أَفَتَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥).

في هذه الآيات الخمس، تقرير لأهمية القرآن الكريم، و عرض لعربيته، و وصف لمنزلته، و إحياء بما يواجهه من معارضة و جدل، و ما يصك به الاسماع من عظة و ردع و تحذير.

السورة تبدأ بعد البسملة ب (حم) رسماً لا نطقاً، و تعطف على ذلك القسم العظيم بالكتاب المبين، فهما من جنس واحد، و من لغة واحدة، و سياق واحد، هذا الكتاب من جنس هذين الحرفين، و هما من جنسه، فالصورة في الشكل اللفظي متجانسة، و الهيئة متناسقة، «و هذان الحرفان- كبقية الأحرف في لسان البشر- آية من آيات الخالق الذي صنع البشر هذا الصنع، و جعل لهم هذه الأصوات، فهناك أكثر من معنى و أكثر من دلالة في ذكر هذه الاحرف عند الحديث عن القرآن» «١».

و قد أقسم الله تعالى بالكتاب المبين، لأنه به إبانة لما تحتاجه الأمة في شئونها العامة، و أحوالها الشخصية، و حياتها الاجتماعية و الفرديّة، و محياها في الدنيا و منقلبها في الآخرة، كلا في حدوده المنضبطة.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢٥ / ٦٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٦٩

«وقيل تقديره: و رب الكتاب» (١).

و إذا كان ذلك كذلك، فقد أقسم الله بنفسه، و هو أمر محتمل، إلا أن السياق يدل دلالة كاشفة أنه أقسم بكتابه في صورته هذه بكونه مينا و مفصلا لكل شيء، «و هو من الأيمان الحسنه البديعة لتناسب القسم و المقسم عليه، و كونهما من واد واحد» (٢) و ذلك قوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) و هذا هو المقسم عليه فكان جواب القسم مصححا للقسم، لهذا أورد الرازي (ت: ٦٠٦هـ) لفلسفة القسم وجهين هما:

الأول: أن يكون التقدير هذه حم و الكتاب المبين فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم، و يكون قوله إنا جعلناه قرآنا عربيا ابتداء لكلام آخر.

الثاني: أن يكون التقدير: هذه حم، ثم قال: و الكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا فيكون المقسم عليه هو قوله: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (٣).

و الوجه الثاني مما نأنس له في أن القسم منصب على القرآن بكونه عربيا، أما كون القرآن مينا فهو إشعار بعظيم الهبة التي تكرم بها البارى على الأمة العربية، فقد أنزل بلغة العرب و لسانهم، فبعد طرق الهداية، و كشف مسالك العمى و الضلال، و أبان معالم النور و الحكمة. و البيان هو الدليل الدال على صحة الشيء أو فساده.

«وقيل هو ما يظهر به المعنى للنفس عند الإدراك بالبصر و السمع، و هو على خمسة أوجه: باللفظ، و الخط، و العقد بالاصابع، و الإشارة إليه، و الهيئة الظاهرة للحاسة، كالإعراض عن الشيء و الاقبال عليه، و التقطيب و ضده و غير ذلك. و أما ما يوجد في النفس من العلم فلا يسمى بيانا على

(١) الطوسى، التبيان في تفسير القرآن: ٩ / ١٨٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف: ٤ / ١٨٥.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب: ٧ / ٢٩٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٠

الحقيقة، و كل ما هو بمنزلة الناطق بالمعنى المفهوم فهو مبين» (١).

و القرآن مبين لأنه ناطق بوضوح، و صاعد بتدبر، و هما روح البيان، و آية إبانة أجدر من جعله قرآنا عربيا في لغته، واضحا للمتدبر، و منارا للمسترشد، و هذا الجعل تصيير برحاء أن يتعقله العرب فهو بلغتهم و من سنخ كلامهم، و العربية لغة البيان، و فى ذلك اخبار منه تعالى بأنه صيره «على طريقة العرب فى مذاهبها فى الحروف و المفهوم. و مع ذلك فإنه لا يتمكن أحد منهم من إنشاء مثله، و الا تيان بما يقاربه فى علو طبقتة فى البلاغة و الفصاحة، إما لعدم علمهم بذلك أو صرفهم على حسب اختلاف الناس فيه. و هذا يدل على جلاله موقع التسمية فى التمكّن به و التّعذر مع فقده» (٢).

و فى الجعل استفاضة حديث للمتكلمين من المعتزلة و الامامية و الاشاعرة لما فى الآية من دلالة على حدود القرآن، لأن المجعول هو المحدث بعينه عند الطبرسى (٣). و لأن ما يكون عربيا لا يكون قديما لحدوث العربية عند الطوسى (٤)، و قد ردّ ذلك الفخر الرازى و دفعه فيما يرى (٥).

و فى كتب المقالات غنى عن هذا الموضوع، و طرحه فى الساحة القرآنية مما لا ضرورة فيه، فهو ليس من جنس أصول العقائد.

و فى لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ إشارة بل إحياء إن لم نقل تصريح و دلالة أن القرآن معلوم، لأن جعله على هذه الصفة المراد بها التعقل و التفكير

و التدبر تقتضى بالضرورة أنه معلوم، و المجهول لا يتحقق معه التدبر و التعقل.

وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمَدِينًا لَعَلِّي حَكِيمٌ (٤) فالضمير عاد على القرآن، و أم الكتاب قد يراد بها اللوح المحفوظ «و هو الكتاب الذى كتب

(١) الطوسى، التبيان: ٩ / ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه: الجزء و الصفحة.

(٣) الطبرسى، مجمع البيان: ٩ / ٣٩.

(٤) الطوسى، التبيان: ٩ / ١٨٠.

(٥) الرازى، مفاتيح الغيب: ٧ / ٢٩٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧١

اللّه فيه ما يكون إلى يوم القيامة لما رأى فى ذلك من صلاح ملائكته بالنظر فيه، و علم من لطف المكلفين بالأخبار عنه» (١).

و قد يراد بأُم الكتاب الآيات المحكمة لقوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ (٢) و معناه أن سورة (حم) واقعة فى الآيات المحكمة التى هى الأصل و الأم (٣).

و أيا كان المعنى، فإن الصفة الأصيلة المتميزة لهذا القرآن عند الله تعالى أنه (على حكيم) فهو يعلو على كل كتاب فصاحة و بلاغة، و هو ينسخ كل كتاب حكما و تشريعا «مظهر ما بالعباد إليه من الحاجة مما لا شىء منه إلا يحسن طريقه، و لا شىء أحسن منه ... مظهر للحكمة البالغة لمن تدبره و أدركه» (٤).

و هو بعيد عن وجوه البطلان لبقائه معجزة خالدة لا ينطق إلا بالحق فهو على حكيم «و هما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة، و إنه كذلك، و كأنما فيه روح. روح ذات سمات و خصائص، تتجاوز مع الأرواح التى تلامسها. و هو فى علوه و فى حكمته يشرف على البشرية و يهديها و يقودها وفق طبيعته و خصائصه. و ينشئ فى مداركها و فى حياتها تلك القيم و التصورات و الحقائق التى تنطبق عليها هاتان الصفتان: على حكيم» (٥).

و من ثم صاحب هاتين الصفتين تفرغ و تويخ فى خطاب من لم يعتبر بهذا القرآن، و من يعرض عنه، و تهديد بالاضراب صفحا، و الاهمال إعراضا، لمن أسرف فى الابتعاد عن الذكر، و تخويف بالاسقاط من الرعاية و الحساب لمن تمادى فى غيه، فقال تعالى: أَمْ فَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥).

(١) الطبرسى، مجمع البيان: ٩ / ٣٩.

(٢) آل عمران: ٧.

(٣) الرازى، مفاتيح الغيب: ٧ / ٢٩١.

(٤) الطوسى، التبيان: ٩ / ١٨١.

(٥) سيد قطب، فى ظلال القرآن: ٢٥ / ٦٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٢

يا له من إنذار و تحذير يسوقه الاستفهام الانكارى، فهو لا يترك الاعذار لهم بسبب تماديهم فى الاسراف، فلا يأمرهم و لا ينههم، و لا يرهبهم و لا يرغبهم، فهو تعالى هنا يترصد هؤلاء و يترقبهم بين عاملين متقابلين: عامل يتفتح بالرحمة فهو لا يتركهم هملا مع سوء تصرفهم، و عامل فيه التكرير: أ فتمسك عن إنزال القرآن فلا- نعرفكم بما يجب عليكم، و ما يراد منكم، فتركوا على رسلكم، لا بل

نلزمكم العمل، و ندعوكم إلى الحق، فتواخذكم بمخالفتكم للكتاب الكريم.

و في الآية دلالة على عناية الله بعباده، و إشارة بأن لا يتركوا في غفلة دون تهديد و وعيد، و فيه تلويح بالانتقام و العقوبة كما يدل سياق الآيات التالية تذكيرا بما جرى على الأمم السالفة.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٣

### «إرسال الأنبياء»

وَ كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨).

هذه الآيات الثلاث تتحدث في ملحظين: ملحظ التعريض بقريش من جهة، و ملحظ تسليط النبي صلى الله عليه و آله و سلم من جهة أخرى، و تخلص إلى فلسفة رصد الذكر للمسرفين بتعليل عدم صرفه عنهم إجراء للسنن الكونية التي لطف بها الله في هداية البشر و مواطن ارشادهم، بهذا السيل الجارف من الرسل تجاه الأمم السالفة و الشعوب المختلفة، فأبان تعالى إن ديدن هذه الامم هو تكذيب أولئك الرسل، و الاستهزاء بهم، فينبغي و الحالة هذه أن يتعزى الرسول الأعظم بمن سبقوه من أولى العزم و أن يصبر على قومه كما صبروا من ذي قبل، فكفرة قريش و مردتها و إن سلكوا مسلك السابقين من المستهزئين، و نهجوا نهجهم في التكذيب و السخرية إلا أن بانتظارهم مصيرا كمصير سلفهم من الجاهلين، فالاستهزاء و التكذيب و العناد عادة قديمة جارية اقترفت أمم قد خلت استصغارا لشأن الأنبياء، و هذا لا يوهن العزيمة، و لا يلوي بالعنان فقد حاق بالمستهزئين ما كانوا به يستهزئون.

و قد سبق لهذا القرآن أن أخبر بشبه هذه المفارقات فيما مضى من الآيات البيئات المتحدثة عن عقلية هذه الأمم، و اللامحة لموقف أولئك الرسل، و التأريخ يعيد نفسه: تكذيب لكل نبي، و استهزاء بكل رسالة، و المواجهة نفس المواجهة: عذاب لكل مكذب، عذاب أرضى أو سماوى، دنيوى أو أخروى، كلى أو جزئى، استئصالي أو انفرادى، ذاتى أو جماعى. إلا- أن السنة الدارجة تقتضى نصر الرسل، و انبعاث الرسالات رغم كل العقبات و العراقيل، فقد وعد هؤلاء الأنبياء بالنصر و قد تم لهم، و استدرج المكذبون المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٤

بالنعمه حتى انتقم منهم، فمكث ما وعد الله، و تلاشى ما جمع الناس، و في هذا إنذار لمشركى مكة، بما سيحل بهم لو استمروا على تكذيبهم، و تطمين للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بما سيؤول إليه أمره، و عرض لتأريخ الشعوب فيما مضى.

«فإن قيل: لم بعث الله الأنبياء مع علمه بأنهم يستهزئون بهم و لا يؤمنون عنده؟ قيل: يجوز أن يكون قوم آمنوا و إن قلوبا. و إنما أخبر بالاستهزاء عن الأكثر، و لذلك قال في موضع ما آمن معه إلا قليلا» (١)، و أيضا فكان يجوز أن يكون لولا إرسالهم لوقع منهم من المعاصى أضعاف ما وقع عند إرسالهم، فصار إرسالهم لطفا في كثير من القبائح، فلذلك وجب و حسن، على أن في إرسالهم تمكينهم مما كلفوه، لأنه إذا كان هناك مصالح لا يمكنهم معرفتها إلا من جهة الرسل وجب على الله أن يبعث إليهم الرسل ليعرفوهم تلك المصالح، فإذا لم يؤمنوا بهم و بما معهم من المصالح أتوا بالقبائح من قبل نفوسهم، و الحجج قائم عليهم» (٢).

و إذا كان الأمر كذلك فقد استحقوا العقاب بعد قيام الحجج عليهم لذلك عقبها تعالى بقوله: فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) و هذا اخبار منه تعالى بما نزل من الهلاك بمن هم أشد فتكا و بطشا و قوة و صولة من هؤلاء المشركين، و الدلالة الايحائية في الآية تجسيد هذا الاخبار لهم بأنهم اتخذوا المنهج نفسه في التكذيب للرسل، فليتوقعوا أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بالسابقين، فكثيرا ما أرسل الله رسله إلى الأمم الغابرة كما أرسل محمدا صلى الله عليه و آله و سلم إلى العالم. و كلما شق نبي طريقه في الدعوة إلى الهدى جعلوه غرضا لسهام الاستهزاء. و هؤلاء القوم كأولئك الاقوام فما ذا يتوقعون إذن؟ إنه الإنذار الصارم بالافناء و تعجيل النقمه و عذاب الاستئصال (٣).

(١) هود: ٤٠.

(٢) الطوسي، التبيان: ١٨٣/٩.

(٣) ظ: المؤلف، الصورة الفنية في المثل القرآني: ٢٧٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٥

## «آلاء الرحمن»

وَلَيْسَ سَيِّئَاتِهِمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لَتَسْتَبْتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤).

الآيات الكريمة تأخذ بعين الاعتبار لمح العقيدة الوثنية بتناقضاتها المسرفة، فتشير بأنها ترجع عملية الخلق و الابداع و التكوين في السماوات و الأرض إلى الله تعالى، و مع هذا فهي تدعى أمر التدبير لغيره، متناسية أن الخالق هو المدبر، و تتراصف براهين الاثبات لتؤكد هذه الحقيقة، و لابطال الدعوى المتلاشية، فتمهد لذلك باللام الموطئه للقسم و لئِنْ سَأَلْتَهُمْ لِيَكُونَ الْجَوَابَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ.

قال أحمد بن المنير الاسكندري «الذي يظهر أن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، و بعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم [حكاية بالطبع] خَلَقَهُنَّ و ما بعده من قول الله عز و جل، و أصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله ... و لما سيق الكلام كله سياقه و أخذه، حذف الموصوف من كلامهم و أقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى كأنه كلام واحد» (١).

بينما حمل الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) ذلك كله على قول الله تعالى

(١) ابن المنير، الانتصاف، ذيل الكشف: ١٨٧/٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٦

و استدل عليه بلاغيا بقوله: «فإن قلت قوله: لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ و ما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم فما تصنع بقوله فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا و إن كان من قول الله فما وجهه؟ قلت: هو من قول الله لا- من قولهم، و معنى قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الذي من صفته كيت و كيت، لينسب خلقها إلى الذي هذه أوصافه و ليسندنه إليه» (١).

ورد ابن المنير بأنه انتقل من كلامهم إلى كلام الله فجري كلامه على ما عرف من الافتنان في البلاغة فجاء أوله على لفظ الغيبة و آخره على الانتقال منها إلى التكلم فَأَنْشَرْنَا كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة (٢).

و الحق أن في الآيات التفاتا بلاغيا إلى خطاب المشركين أو كفار مكة بعد صرفه عنهم إلى الرسول الأعظم لإرادة الاعتراف و الاقرار منهم بأن الخلق و التدبير مختص معا بالله تعالى لا يشاركه فيه أحد، و حكمة قرعهم بهذا الخطاب إثبات تهافت الأقوال الباطلة، بدليل الاستدلال على ذلك بهذا السيل من الدلالات البرهانية القاطعة على الوجه التالي:

١- إنه الخالق و الصانع لهذه الكائنات و الموجودات المرئية و غير المرئية، و في ذلك إحباط لبقايا العقائد المتخلفة عند قريش بخاصة و المشركين عامة القائلة بإنكار المقتضيات الطبيعية لحقيقة اليجاد الالهي، فالفطرة تحقق أن لا بد من خالق، و الاساطير البالية المتركة في أذهان المشركين تنكر ما يدور حول هذه الفطرة من لوازم و حيثيات، فهم يتأرجحون بين بدهاه لا تجحد، و بين عقلية لا تتحرر.

٢- إنه هو العزيز الذي لا يقهر، و العليم الذي لا يحاول، و هنا ملحظ خفي بكونهم أذلاء باعترافهم بعزته تعالى، و جهلاء باقرارهم

بعلمه الذى لا- يتناهى، ومع ذلك فقد أنكروا قدرته على البعث والنشور، لذلك وصف نفسه بخصائص أخرى مضافا إلى ما سبق ذكره.

٣- إيجادها للأرض مهذا بحيث تصلح للتربية و النفع و الاستثمار، و ذلك بايجاد مسببات الانتفاع من شق السبل، و سن المسالك فى التنقل

(١) الزمخشري، الكشاف: ١٨٧ / ٤.

(٢) ابن المنير، الانتصاف، ذيل الكشاف: ١٨٧ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٧

و الترحل، و باهتدائكم لذلك رجاء للاهتمام فى معرفة الله و توحيدِهِ. و ما تذليل هذه الأرض، و تذليل منافعها، و كشف مجاهلها إلا نعمة من نعمه التى يجب أن تبصر عن طريقها إلى عظيم قدرته، و دقة تدبيره، لنخلص من وراء ذلك إلى الانابة لأننا ندرك إدراكا جيدا بأن تمهيد الأرض للبشر و الكائنات الحية لم يكن أمرا فجائيا وليد فكرة عاجلة مضطربة، و إنما جاء نتيجة لقدرة إبداعية أزرية مدركة، فقد رتب فيها كل شىء ترتيبا دقيقا متناهما فى الدقة، فالأرض مرت بأطوار بعد أطوار حتى عادت صالحة للاستعمال و الاستقرار، و قد أودعها الله من عناصر التأقلم على الحياة ما أودعها، و ما الجاذبية إلا مظهر من مظاهر ذلك، و إلا لتساوت الأرض مع أى كوكب من الكواكب الثابتة أو السيارة التى لا تصلح لحياة الانسان «و هذه الجاذبية ذاتها قد جعلها الخالق متعادلة مع عوامل الدفع الناشئ من حركة الأرض فأمكن أن تحفظ الأشياء و الاحياء من التطاير و التناثر و فى الوقت نفسه تسمح بحركة الانسان و الاحياء على سطح الأرض و لو زادت الجاذبية عن القدر المناسب للصقت الأشياء و الاحياء بالأرض و تعذرت حركتها أو تعسرت من ناحية، و لزداد ضغط الهواء عليها من ناحية أخرى فألصقتها بالأرض إصاقا، أو سحقتها كما نسحق نحن البعوض و الذباب بضربة تركز الضغط عليها دون أن تمسها أيدينا، و لو خف هذا الضغط عما هو عليه لانفجر الصدر و الشرايين انفجارا» (١).

و فى هذا التخطيط تتجلى العظمة الالهية فى تمهيد الأرض فى ملحظ واحد، فإذا أضفت إليه إنارتها بالكواكب و هديها بالنجوم، و حفظ توازنها بالجبال، و إحاطة غلافها بالهواء، و تهيئة ترتيبها للزدرع، و شق أنهارها بالمياه، و تلوين مناخها بين الدفء و البرد خرجنا بدقة تدبير الذات المبدعة لهذا الكون.

٤- إنزاله الماء من السماء بقدر، للإشارة بل التصريح أنه لو أنزله دون نظام و دقة و ميزان لفاضت الأرض و لغاضت البركات، و فيه لمح الارادة لسلامة التدبير عند الغاية المتوخاه و هى إحياء الأرض بعد موتها،

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن: ٦٦ / ٢٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٨

أى بالقدر الذى تحتاج إليه تلك الأراضى و البلدان، لا على النحو الذى يكون وبالا و دمارا كما أنزل ذلك على قوم نوح فيما اقتص سبحانه من خبر الطوفان، لأن فى الأخير الإفناء و الإغراق، و المراد بالانزال الأحياء و الأرواء، و هنا تنطلق الحقيقة الكبرى التى تصك الاسماع و تهز القلوب (كذلك تخرجون) فكما دل ما تقدم على قدرة الله و إبداعه فى كمال تدبيره و خلقه، فكذلك يدل على قدرته فى الخلق و النشور بعد الموت و عند القيامة، و فى هذا الاستدلال إثبات لاعادة البشر و غير البشر و ذلك يجعلهم احياء بعد الإماتة، كما أحييت الأرض بعد موتها و هو وجه التشبيه، أى تبعثون من قبوركم أحياء كما أحيانا الله بالماء البلد الميت.

و هنا نكتة بلاغية تتعلق بلفظى الإنشار و الإخراج يشرها صاحب الميزان:

«قيل: فى التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذى هو احياء الموتى، و عن إحيائهم بالإخراج، تفخيم لشأن الانبات، و تهوين لأمر البعث



لتقويم سنن الاستدلال و توضيح منهاج القياس « ١ ».

٥- و زوجية الكائنات من أعظم البراهين القاطعة على دقة المبدع الحكيم، و البحث في دقائقها قد يخرج بالموضوع من دائرة الموضوعية، و لكننا نشير إليه لماما:

الزوجية تشمل الكائنات جميعا من الانسان و الحيوان و النبات و الجماد و الكائنات الروحية و الاقدار و الموازين و الاشكال و النجوم و الكواكب و المتقابلات، المرئية المحسوسة و المتصورة. و هذا دليل على دقة الخلق و عظم الابداع و دلائل الاعجاز فيه.

«قال ابن عباس: الأزواج الضروب و الانواع كالحلو و الحامض و الأبيض و الاسود و الذكر و الانثى، و قال بعض المحققين: كل ما سوى الله فهو زوج كالفوق و التحت، و اليمين و اليسار، و القدام و الخلف، و الماضي و المستقبل، و الذوات و الصفات، و الشتاء و الصيف، و الربيع و الخريف، و كونها أزواجا يدل على كونها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقه»

(١) الطبائبي، الميزان في تفسير القرآن: ٨٧ / ١٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٧٩

بالعدم، فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد و الند و المقابل و المعاضد، فلماذا قال سبحانه وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا أَى كل ما هو زوج فهو مخلوق فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية « ١ ».

و القرآن يشير في أكثر من موضع إلى حقيقة الزوجية في الكائنات، و من أبرز الآيات شمولاً في الموضوع قوله تعالى: شَيْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) « ٢ ».

و قد حقق في هذا الموضوع الاستاذ أحمد أمين رحمه الله في مبحث (الزوجية في الكون) فتحدث عن زوجية الذرة في تركيبها، و البعد بين جزئي الذرة الالكترون و البروتون و بين مسافته النسبية كالبعد بين الأرض و الشمس، فكل ذرة من حيث التشكيلات و الأبعاد و المسافات كالمنظومة الشمسية مع حفظ النسبة، ثم تكلم عن تركيب الذرة الزوجي في جميع أبعاده و اشعاعاته بما يعتبر بحثاً نفيساً في الموضوع، و قد خلص من وراء ذلك إلى أن النظرية المادية قد فندت من أساسها بعد تحول المادة إلى طاقات هائلة، فيحكم العقل بصورة فطرية: أن الله تبارك و تعالى قد خلق طاقات هائلة في بادئ ذي بدء بقوله كُنْ ثم أمرها أن تتكدس تحت ترتيب خاص و نظام دقيق فتكون بإذنه تعالى سداً فهذه العناصر، فالأجسام فالمجرات، فالاجرام، فالشموس، فالكواكب، فالاقمار ... الخ.

و قد اكتشف حديثاً أن الزوجية متأصلة بأمر من الله تعالى حتى في الذرة التي لا ترى بالعين. و تحدث عن زوجية الانسان فاستشهد بقول الفيلسوف الفرنسي (مونتني): إن أعظم دليل على وجود الله هو وجود المرأة للرجل، فهل يعقل أن الرجل خلق لنفسه أنثى لإدامة النسل البشري؟

و إن الله تعالى تحقيقاً للزوجية و هذا الانجذاب الجنسي جعل تردد صوت المرأة (٢٢٠) في الثانية كما هو معروف في الفيزياء و جعل تردد صوت الرجل (١١٠) في الثانية، ليكون صوت المرأة أرق و أجمل من

(١) الرازي، مفاتيح الغيب: ٢٩٣ / ٧.

(٢) يس: ٣٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٠

صوت الرجل، فيتحقق الانجذاب الجنسي لإدامة النسل البشري.

و قد علم أن الزوجية تتحكم حتى في النجوم فهناك تزواج ظاهري في النجوم، و مع كثرة النجوم في هذه السماء الواسعة غاية الوسع

فان الفواصل بين النجوم فواصل هائلة و أبعاد شاسعة جدا، و إن أقرب نجم إلى شمسنا هذه يبعد عنها ٢٦ مليون مليون ميل. إذن يحق لنا أن نقول: ما أفرغ هذه السماء و ما أشد و حشّة النجم الواحد في هذا الفراغ الهائل؟ و لكن شاء الله تعالى، أن يجعل الأشياء كلها حتى النجوم مزدوجة، تتحكم فيها الزوجية ليكون التفرد و الوحدانية خاصة به تعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

فإذا نظرت إلى السماء بالمنظار لرأيت نقطتين مضيتين مقتربتين في السماء أشد الاقتراب، واحدة زرقاء و الأخرى برتقالية أو حمراء، إنهما نجمان يشد بعضهما بعضا، و يدور أحدهما على الآخر. أى ينجذب أحدهما من قبل الآخر تحقيقا للتراجح، و لو وجهنا إليها المنظار لوجدنا أزواجا من النجوم إنها ألوف ألوف. إنها الثنائيات النجمية.

و نرى الله تعالى قد أودع الزوجية في (العناصر) أيضا، فهناك نوعان من العناصر: النوع الأول هو العناصر التي نراها في أرضنا هذه: كالإيدروجين و الحديد و الأورانيوم .. الخ. فكل ذرة منها مؤلفة من الكترونات سالبة تدور حول بروتونات موجبة في النواة.

و في الوجود نوعان مختلفان من العناصر تبني منهما النجوم و الشمس و الكواكب و سائر الأجسام.

و يرى المتتبع في أحوال الكون أن الله قد أودع الزوجية في كل شيء كى يعتبر الانسان بهذه الزوجية و يعلم أن الله لا يشبه ما خلق من جماد و نبات و حيوان و انسان و قوى و طاقات في شيء، هو الله الذى لا إله إلا هو «١».

٦- و عرج أخيرا على ما تيسر به الحياة في الانتقال، و تتكامل في الحل و الترحال فقال وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ و فيه إشارة

(١) ظ: أحمد أمين، التكامل في الاسلام: ٤/ ٤٩- ٦١ بتصرف.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨١

دقيقة إلى قسيمى السفر المتعارف آنذاك، و هو إما سفر البحر فوسيلته السفن، و إما سفر البر و وسيلته الأنعام، و قد غلب في الركوب المتعدى على غير المتعدى لقوة المتعدى، إذ يقال: ركبوا الأنعام و ركبوا في الفلك.

و هاتان نعمتان جليلتان يستحق معهما الشكر، فالذى خلق البحر خلق قابلية حملة للسفن، على أن الأجرام الحديدية الثقيلة ترسب في الماء، و استقرار السفن على سطح الماء نظرا لتجويها الذى ألهمه للصناعيين لطف منه تعالى فى دقة تدبيره لدى تسخير الأشياء للانسان، حتى تتمكن منها تمكن المستعمل و الاستفادة استواء فيها و استقرارا بمرافقها، تيسيرا للانتقال من بحر إلى بحر و من قطر إلى قطر، و تمهيدا للسبيل فى السفر و الرحيل، و لو لا هذا اللطف الدقيق لبقى الانسان جامدا لا يتحرك، و خاملا لا ينبض بالحياة، متوقفا على نفسه و فى زاويته متأقلا بمحيطه و مجتمعه، لا- يبتغى للحيلة وسيلة فى التكسب البعيد، و لا يتاح له الاختلاط بالشعوب بوعى المستطلع الخبير، و لا يعاوده الامل فى العودة إلى وطن، و لا يداعبه الشوق فى البلوغ إلى هدف، و ما هذه النعم الظاهرة و الباطنة فى تسخير الجماد من السفن، و الحيوان من الأنعام، هذه السفن الحديدية الضخمة التى تجوب البحار و المحيطات، و هذه الأنعام الفتية التى تقطع البيد و القفار، أفلا يجب الشكر بملحظ أن هذه الأنعام على الاقل أكثر قوة من هذا الانسان فهى تحمله و تحمل متاعه و أكثر جلدا و صبرا على احتمال الاهوال، و انتظار الرى، و معالجة الجوع، و ما هى هذه الهداية التى جعلت من هذا الحيوان الا بكم مسخرا بين يدي هذا الانسان الضعيف الذى لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة.

يقول فخر الدين الرازى «١»: فإذا تأمل الانسان هذه العجائب و غاص بعقله فى بحار هذه الاسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة و الحكمة غير المتناهية فلا بد و أن يقول: سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ روى عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه كان إذا وضع رجله فى الركاب، قال: بسم

(١) الرازى، مفاتيح الغيب: ٧/ ٢٩٤. المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٢

اللَّهِ، فَإِذَا اسْتَوَى عَلَى الدَّابَّةِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)،  
و كبر ثلاثا، و هلل ثلاثا. و قالوا إذا ركب في السفينة، قال: بسم الله مجراها و مرساها إن ربي لغفور رحيم.

و

عن الحسن بن علي عليه السلام: أنه رأى رجلا يركب دابة، فقال:  
سبحان الذي سخر لنا هذا ... فقال أ بهذا أمرتم؟ فقال و بم أمرنا؟ قال:  
أن تذكروا نعمة ربكم، و كان هذا الرجل قد أغفل التحميد فنبهه عليه.  
و هذا من حسن مراعاتهم لآداب الله، و محافظتهم على دقيقتها و جليلها «١».

و

روى العياشي بإسناده عن أبي عبد الله الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: ذكر النعمة أن تقول: الحمد لله الذي هدانا  
للإسلام و علمنا القرآن، و من علينا بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم، و تقول بعده: سبحان الذي سخر لنا هذا و ما كنا له مقرنين  
«٢».

و مقرنين بمعنى مطيقين، يقال: أنا لفلان مقرن أى مطيق، و قيل مقرنين: أى مطيقين أى يقرن بعضها ببعض حتى يسيرها إلى حيث  
يشاء، قال ابن هرمة «٣»:

و أقرنت ما حملتني و لقلما يطاق احتمال الصد يا دعد و الهجر و ينتهي هذا المطاف الرائع بقوله تعالى: وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) و  
تتراصف في تفسيره أقوال المفسرين و تتقارب، فالناس جميعا صائرون إلى الله يوم القيامة، فهي شهادة منهم بالمعاد، و إقرار بانتهاء  
الحياة الدنيا، و أن النهاية هي الموت، و غير خاف وجه اتصال الآية بما قبلها، إذ المعتاد من الركوب المخاطرة، و قد يكون سببا من  
أسباب الهلاك، فليتأس إذن و ليقطع يقينا بأنه منقلب إلى الله بعد هذه الحياة المرتبطة بهذا الحل و الترحال و التنقل و التجوال، و قد  
أشار كثير من المفسرين إلى هذه النكتة، و قد عرضها الزمخشري على طريقتيه في (الفنقلة) فقال:  
«فإن قلت: كيف اتصل بمقرنين قوله وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (١٤)»

(١) الزمخشري، الكشاف: ١٨٨ / ٤.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ٤١ / ٥.

(٣) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١٨٦ / ٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٣

قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت أو طاح من ظهرها فهلك، و كم من راكبين، في سفينة انكسرت بهم فغرقوا،  
فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر، و اتصالا بسبب من أسباب التلف: كان من حق الراكب و قد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا  
ينسى عند اتصاله به يومه، و أنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه، و لا يدع ذكر ذلك بقلبه و لسانه حتى يكون  
مستعدا للقاء الله باصلاحه من نفسه، و الحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله و هو غافل عنه، و يستعيز بالله  
من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا ننتزه على الخيل أو في بعض الزوارق، فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر و المعازف، فلا  
يزالون يسقون حتى تميل طلاهم و هم على ظهور الدواب، أو في بطون السفن، و هي تجرى بهم لا يذكرون إلا الشيطان، و لا يمثلون  
إلا أوامره «١».

و يشدنا هذا السياق الفريد إلى محاجة المشركين و تقرير أخطائهم بعد ما تبين من آلاء الرحمن، و ثبت من بديع قدرته، و تدبيره  
لحياة الناس، فيرتبط الموضوع بما قبله نظما و سياقاً و وحدة، فهنا يقرر فضل الله، و عظيم تصرفه، و فيما يلي يقرر وحدانيته و تفرد

بتصريف الأمور، بعد أخذ ورد، و صد و مناقشة، و جدال و حجاج، ينتهى بضرورة التفكير بعاقبة المكذبين، و الدعوة إلى النظر فى ذلك بعد الانتقام منهم، و القضاء عليهم، و كما ما ستراه فى الآيات التالية:

(١) الزمخشري الكشاف: ١٨٩ / ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٤

### «محاكمة المشركين و تقرير أخطائهم»

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) \* قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْكُذِّيبَ (٢٥).

هذه الآيات الكريمة تعالج ظاهرة شائعة فى العصر الجاهلى، هذه الظاهرة على أساس أسطورة لا أصل لها من الصحة، و لا نصيب لها من الواقع، و تلتخص باتخاذ الملائكة آلهة أو أنصاف آلهة من قبل المشركين بزعم أنهم بنات الله تعالى الله عما يصفون.

و يتفرغ القرآن بأسلوبه الرائع الشيق لتفنيد هذه الأسطورة أو شبه الأسطورة، حتى يغلق منافذها، و يعرى زيفها بطريقته الخاصة المتميزة فى الجدل و المجاورة و النقاش، فيثير التساؤلات، و يقرر الحقائق، و يدفع الشبه، و إذا بهذه الأسطورة تلاشى، و إذا بمنطقها يفلج، و إذا بمصيرها يتهافت، فالقرآن يواجه لغة القوم بمنطقهم، و واقع دعوهم بحججهم، فيضع أمام كل قضية ردها الموضوعى السليم، متمسكا الذائقة الفطرية بين يدي براهينه عند الحسم، فبعد أن أخذ عليهم فيما سبق اعترافهم الصريح

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٥

بأن الله تعالى هو خالق كل شىء و مبدعه، بدا التناقض عندهم حينما وضعوا له صفات المخلوقين بجعل الملائكة و هم عباده جزءا منه على ما يزعمون، و الحقيقة البادئة تصكهم فى هذا التناقض، فالملائكة و هم عباد الله المقربون، لا تفصلهم عن سائر العباد و المخلوقات المتعددة أية فواصل ترتقى بهم إلى غير هذا المنطلق، و ليست لهم مميزة خاصة تتعدى حدود العبودية المطلقة، و ادعاء خلاف ذلك عودة بالانسان إلى الوثنية و إيغال فى الكفر من جهة و دليل على طرح الفطرة جانبا من جهة أخرى للحجج التالية:

١- الاستنكار و التعجب على وجه كشف المفارقة فى هذا الادعاء الهزيل، فإن كان الله لا بد له أن يتخذ أبناء- فيما يزعمون باطلا- فما له يختار أدنى القسيمين لنفسه و يصفهم بالبنين، و هم يأنفون من ذلك لأنفسهم، و لا يأنفون منه لربهم، و قد جاء التنكير فى «بنات» و التعريف فى «البنين» إشارة إلى تحقير الأول، و تفخيم الثانى جريا على أسلوبهم فى توهين شأن البنات و تكريم البنين، فكان أن خصوا مما يوهنون بالله، و ما يكرمون بهم، و ذلك عين المفارقة.

٢- تصوير التفكير الهمجى عند المشركين، و رسم سماتهم الظاهرية، و حالتهم النفسية بما إذا بشر به أحدهم اغتم، و إذا نبئ به اهتم، فملاح الغيظ و الغضب تبدو على الوجوه، و آثارها تحتدم فى النفوس، فيمتقع اللون، و يتأثر المحيا، و يتزعزع الضمير، فيتجاوزون بذلك حدود الاعتدال و القصد، و معالم الصفح و السلوان، إلى ما يصبحون به بين حدين ظالمين، الكظم على ما يغيظ، و قد اربد الوجه و اسود، أو الانفجار بما يسىء فقد طفح الكأس و امتلأ.

٣- تكرير الاستفهام الانكارى بل و تجديد النكير الهائل، بالعطف على ما سبق مع تغاير فى العنوان، و تمثيل لصفات جديدة، لتقرير

غبن الادعاء بل قبحه و التعبير عن التأثر من الإصرار على الجهل و العناد بمقارنته من ينشأ في النعمة و الدعة، و الحلل و الحلبي، فلا يبين في مخاصمة، و لا يفصح في جدال، و لا يركن إلى تعقل، و لا يجيب إلى سؤال، و تلك معالم عدم الإبانة، مستبدلا بها التقلب في الزينة، و الترهل في الملدات، و هو

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٦

أقصى ما يمكن أن يشغل تفكير الأعم الأغلب من النساء باستثناء الطبقة المثقفة ثقافة موضوعية، إذ تنقلب معها مقاييس الاغلبية التي يرمى إليها القرآن، إذ الشاذ عند ذلك مستثنى بالدليل، إذن: فهلا استبدلوا بربات الحجال، المغاوير من الرجال شدة و صرامة و فتوة، و هلا اختاروا ذلك فنبوه لربهم إن كان لا بد من النسبة المفتراة.

٤- و تتلاحق الدعاوى المبطنه من قبل المشركين، فيحاولون تصيير الملائكة بالاعتقاد أو بالتسمية إناثا، بقصد الاستخفاف بهم تارة، و إيغالا بتحقيق شأنهم تارة أخرى، و لا حجة لهم بذلك، و لا دليل عليه، و إنما يراد من صاحب الدعوى البيئه، فهل يدعون أنهم شهدوا النشأة الأولى، في خلقهم، و ستدون هذه الشهادة، و سيسألون عن ذلك بالتفصيل «و فيه تجهيل لهم و تهكم بهم، و إنما لم يتعرض لنفى الدلائل العقلية لأنها في مثل هذا المطلب مفرعة على القول بالنبوة، و هم الكفرة الذين لا يقولون بها، و لنفى الدلائل العقلية لظهور انتفائها، و النفي المذكور أظهر في التهكم» (١).

و في الآية وعيد صارم بالعقاب و المجازاة، فالشهادة سكتب، و هم سيسألون عما قالوا بكل جزئياته، فلن يتركوا هملا.

٥- و تتدافع الافتراعات بما يحاك حولها من محاوره حينما تدفعهم الحجج، و تغلجهم البراهين، فهم يزعمون أن الله راض عن جنس عبادتهم هذه للملائكة، و إلا لصرفهم منها، و دفعهم عنها، و في ذلك إفتئات على الحقيقة. فالله عز و جل قد جعل العقل ميزانا فيما يتخذ العباد من قرار في الشئون العبادية، و الانسان في ضوء هذا مختار بنهج أى السبيلين، و إلا لكان الحساب عبثا و العقاب و الثواب لهوا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، إذ لا يمكن أن يفرض الاشراك على أحد ثم يعاقبه عليه، و ما ذاك إلا لأنه قد أودع قوة التقرير و الاختيار للمنهج الارشد، و إن كان ذلك بتوفيق منه، فأثاب على ما أمر و شرع، و عاقب على ما نهى وضع «فهو سبحانه لما لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالارادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك، فأراد منهم بالارادة التشريعية أن يوحده و لا يصدوا

(١) الألوسى، روح المعانى: ٢٥ / ٧٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٧

الشركاء، و الارادة التشريعية لا- يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتبارية غير حقيقية، و إنما تستعمل في الشرائع و القوانين و التكاليف المولوية، و الحقيقة التي تبتنى عليها هي اشتمال الفعل على مصلحة أو مفسدة» (١).

و هم حينما يلصقون عبادتهم للملائكة بمشيئة الله تعالى فإنما يعتمدون بذلك على الكذب و الوهم، و يتعلقون بالظن و التخمين، لهذا و صفوا بما يتناسب مع هذا الزعم الباطل (إن هم إلا يخرصون).

٦- و يضرب الله تعالى عن نفى أن يكون لهم بذلك علم عن طريق العقل، أو دراية في أثر عن نقل، فيأخذ عليهم الطريق من كل الجهات و التشعبات أم آتيناهم كتاباً من قبلة فهم به مستمسكون (٢١) و تتلاشى الاحلام إذ لا كتاب قبل القرآن به يدينون و عليه يتوكلون، فعبادتهم للآلهة المزعومة لا تستند إلى حقيقة، و لما لم يكن لهم حجة من نقل، أو دليل من غفل، فقد بطلت الدعوى و كذب الادعاء، و قد كان الاجدر بهم أن يسلموا إلى الحقيقة و يدعوا لجلالها، و لكنهم بدلا عن ذلك فقد لجأوا إلى الحجة الباهتة الوحيدة:

إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ.

إنها الحججة الأخيرة المتهافة لهم، الاقتداء بمن سلف من الآباء، و هو تقليد أعمى، و مجاراة هو جاء، فهل عمل السابقين حجة على اللاحقين؟ و العقل السليم يتنافى و المحاكاة الكيفية دون إعمال للفكر، و استناد إلى التدبر، فوجدان الآباء على دين أو طريقة أو قصد أو حال، لا يغنى عن الحق شيئاً، ما لم يصاحب ذلك معرفة ما هم عليه، إن رشدًا اتبع، و إن غيا اجتنب، ذلك أن معالم العقيدة يجب أن تكون واضحة لا لبس فيها، و أعلام العبادة يقتضى أن تكون بينة لا تنطمس آثارها، أما الثقل ذات اليمين و ذات الشمال بلا قبس من هدى، و لا شعله من صواب، فمما لا يقره المنطق لأنه لا يوصل إلى يقين و اطمئنان.

لهذا تأتي الآيات الثلاث بعد هذه المحاججة مقررّة لحقيقة التقليد

(١) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ٩٢ / ١٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٨

الضال، و ما يصاحبها من وجل و تحوير و تحويل، و ما يكتنفها من غموض و إبهام و إيهام، و ما فيها من لف و دوران و اضطراب، تأبى كل ذلك و لا تسيغه العقول و الأذهان، رغم كل الدلائل القائمة على بطلانها، و الآيات التالية تحرر طبيعة الغابرين من الأمم، لمقايتها بطبيعة التالين لهم بمقتضى العرض البياني لواقع الحال:

وَ كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَوْمِهِ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٢٥).

و الأمور تقاس بنظائرها، فكما كان الأقدمون يهرفون بما لا يعرفون، دون روية و دراية و تمييز فكذلك قومك يا محمد، فما إن يتقدم النذير من الله بحجته حتى يصكك بدعاوى المترهلين من أهل البذخ و السرف، و المتذبذبين من دعاة العبث و اللهو، بأنهم قد اقتدوا بمن سبقهم من الآباء، و هو تكرار مقيت لما يتذرعون به من تقليد الآباء، و الجمود في الآراء «و التقليد قبيح بموجب العقل لأنه لو كان جائزاً للزم فيه أن يكون الحق في الشيء و نقيضه، فيكون عابد الوثن يقلد أسلافه، و كذلك يقلد أسلافه اليهودى و النصراني و المجوسى، و كل فريق يعتقد أن الآخر على خطأ و ضلال ... فإذن لا بد من الرجوع إلى حجة عقل أو كتاب منزل من قبل الله».

و لقد كانت الحججة البرهانية أقوى دليلاً، و أكثر شمولاً، و أطف استدعاء، بل و أحق أن تتبع.

إنه الغرور المتناهى و الصلف الوقح، أن يقابل هذا الحجاج المنطقي الرصين بالجمود و الكفران نتيجة جهل و إصرار و عناد، لذلك فقد قابل الله ذلك بالوعيد المرعب فانتقمنا منهم فأنظر كيف كان عاقبة المكذبين (٢٥).

إنه لقول فصل، و حكم عدل، أن يتلقفهم الانتقام بشتى مراحل:

الجوع، الفقر، القتل، السبى، الإبادة، الطوفان، الجلاء، عذاب الاستئصال، القضاء المبرم، و لا نافخ نار.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٨٩

و قد كان للمعاصرين عبرة بالانتقام من الماضين، و فيه تسلية و تعزية للرسول الاعظم صلى الله عليه و آله و سلم، بأنه المنتصر و العاقبة للمتقين، و يلوح في الآية الدعم المعنوى بالدليل الاستقرائى لموقف النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى سبيل الله جهادا أو تضحية، فعاقبة المكذبين إلى الانتقام، و أى انتقام، و أى انتقام أشد من انتقام الله، و فى ذلك عبرة لمن اعتبر.

و يعود السياق مرة أخرى ليلتقى فيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم بأبيه إبراهيم فى رصد قومه، و كيف اصطفى منه محمدا صلى الله عليه و آله و سلم، فيرتبط النظم القرآنى جملةً و تفصيلاً، فالقوم أبناء القوم فى الاشراك و الوثنية و عدم الانصياع، لنجد شأن إبراهيم لا يختلف عن شأن محمد فى جميع هذه الملابس.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٠

## «إبراهيم وقومه والتوحيد»

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ (٢٨).

الآيات الثلاث تتحدث عن صلابة العقيدة، ورسوخ أصالتها في نفس إبراهيم عليه السلام فيما اقتض الله من خبره مع أبيه وقومه، و فيها لمح إشارى إلى أن قريش و هى من ذرية إبراهيم عليه السلام قد كان من الأولى لها أن تتبع مله إبراهيم حنيفا مسلما و ما كان من المشركين، ففي الوقت الذى تدعى قريش محاكاة الآباء، و تقليد الاسلاف، فلما ذا تنحرف عن مله أبيها ذى الحنيفية الغراء، هذا الأب الذى أعلن عن عقيدته جهارا فى التوحيد، و قاسى من أجلها محاولة القتل و التحريق، و قام بسبيلها بالهجرة و السياحة فى الأرض، حتى هجر أباه، و نبذ قومه، و صك الجميع بالبراءة من الوثنية و عبادتها، و جابهم صراحةً إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ. فالعقيدة الاشرائية عند قريش يبرأ منها أبوه، و لم يقلد أباه و لا قومه فيما يعتقدون، فلما ذا يقلدون هم إذن، إنها حجة بالغة، و بحاجة بلسان القوم و لغتهم فى نسف العبادة التقليدية الموروثة، فإيا لها من صرخة تهز كيان المشركين و هم فى ذروة الاحكام، و نشوة الاعتداد بالآباء، إذ يتبرأ من فوقهم الابن الضعيف فى ظل الاب القوى، و العشيرة المتطاولة المتكاثرة من عقيدة الجميع، و يعلنها حقيقة بديهية فى جموع الوثنيين و الثنوين: إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) إنه الاقرار المطلق بالعبودية لله ابتداء، و بالعبادة له خالصه، و بالتفويض إليه هداية، بسبب فطرى يفرضه الدليل الاستقرائى لمسيرته فى الحياة و بعد الممات، إنه أبدعه و خلقه و أنشأه، ثم إذا شاء أنشره، فهو المنفرد بالعبادة و الألوهية، و هو

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩١

الكفيل - وحده - بالهداية و سنن الرشد، بحكم أنه الخالق المبدع المصور.

أما التمكين من هذه الهداية فيما أبان من دلائل وحدانية و علائم ربوبيته، و هما إشارتان فى تقويم الخلفية الداخلية عند الانسان. و بتقويم هذه الخلفية يتبلور الدين الحق، و إذا وصل الانسان إلى الدين الحق لم تتحقق الهداية فحسب بل الهداية و لازمها من الخشوع و الخشية و الانابة. و يبدو أن أصل ذلك عند إبراهيم كلمة التوحيد التى فاه بها لسانا و اعتقدها جنانا، فكانت الثبات و اليقين و المبدأ، لأنها لغة الأعماق فى ذاته، و سنه الكون بمتطلباته، و قد أثابه الله على ذلك أن جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه رغم تعاقب الأجيال و الأزمنة تكريما له، و استجابة لدعائه فيما اقتضه الله تعالى من قوله: وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) «١». فالنبوة و الولاية و الامامة فى ذريته، فموسى و عيسى و نبينا محمد صلوات الله عليهم أجمعين من ذريته، و هم عقبه و أبناؤه الحقيقيون يؤمنون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم، و يالها من منزلة رفيعة: أن تبقى هذه الكلمة متوارثة فى ذرية هذا الأب الموحد، معينا من الهداية لا ينضب، و شعله من الحق لا تخبو، يرجع فيها إلى الطريق من ضل، و إلى التوحيد من أشرك، و إلى اليقين من شك، يبشرون بها حتى يرث الله الأرض و من عليها، و لقد كان التوحيد معروفا قبل إبراهيم، و لكنه تأصل و تأطر و استقر بعد إبراهيم، كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين. و وصلت هذه الكلمة إلى الابناء، فكيف كان استقبال الابناء لرسالة الآباء؟ هذا ما تجيب عنه حقائق الأعمال.

(١) البقرة: ١٢٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٢

## «مقارنة بين القيم المقابلة»

بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ (٣١) أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا- أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُفْهًا مِنْ فَضْلِهِ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَّكَبُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥).

لما أنهت الآيات السابقة الحديث عن أهمية التوحيد وأصالته، تحدثت هذه الآيات في ملحظ جديد عن حياة الجاحدين لدعوة التوحيد، فارتبطت النظم والسياق بمدرجة واحدة، ولكنها الآيات تبدو أنها قد أضربت عن حديث إبراهيم إذ لا صلة لهم به بعد ثبوت توحيدهم و جلاء عقيدته، إلا أن إضرابها جاء متناسقا مع ما سبق، إذ قد يكون برجاه رجوع المشركين عن الشرك بعد انشغالهم بالملاهي، وبدأت تمهد للحديث عما أولاهم الله من نعمه، وآباءهم من قبلهم، فقد بسط الله متطلبات الحياة و مرافقها، فبدلا من الشرك الذي يفترض أن يقدموه، فإنهم لجوا في طغيانهم، واستمروا في حجاب كثيف من الغفلة، تجحد معه الدلائل، وها هو القرآن بين الآيات يعرض عليهم الحق تارة، و يذكرهم به تارة أخرى، و الحق لا يختلط بالسحر، و هم أنفسهم يدركون حقيقة ذلك، حقيقة السحر من حقيقة البلاغة القرآنية، فهما لا يلتبان، و هما لا يتجانسان، و لكنهم بهذا يخادعون أنفسهم و قومهم من ورائهم، بادعاء أنه سحر، و يؤكدون رفضهم له بإعلان

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٣

كفرهم به، و هم بذلك يجانبون الصواب إذ يسرون الاعتراف بجلالة القرآن و عظمة بيانه نظما و تأليفا، و يظهرون الادعاء الكاذب بأنه سحر تغريرا بالآخرين، إبقاء على سيطرتهم و نفوذهم، فمتى ما استبصرت الناس بالهدى، أفلتت من قبضة قريش و حلفائها و اتجهت نحو القرآن و هدايته، و في ذلك توجه لجماهير الناس باتجاه مغاير لاتجاه المشركين، و هذا ما يحذبون مكافحته و مناهضته، فيحكي القرآن فحوى اعتراضهم الهزيل الذي نادوا به و هو إنزال القرآن على رجل من القريرتين عظيم، و القريرتان مكة و الطائف فيما يقال، و أحد العظيمين عروة بن مسعود الثقفي، و كان عظيم أهل الطائف في أشهر الأقوال، و من أهل مكة الوليد بن المغيرة المخزومي، و قيل غير ذلك «١».

و لم يذكر القرآن صفة أحدهم، و لا- نص على اسم واحد منهم، ليتعدى القرآن بذلك الحدود الشخصية إلى الحكم الكلي، و الدلائل الافراضية إلى المعنى العام، فالقرآن في أغلب أحاديثه يسرد القضية و يريد لازمها، و يذكر الحادثة و يقصد دلالتها، لا يهمله تحديد الأشخاص و الأعيان، لأنه يتجاوز حدودهم إلى حدود المثل و العظة و العبرة، فالقضية المجردة عن التشخيص ذات دلالة شاملة، و القرآن يريد الشمولية لنصوصه، و هو ما يمتاز به عن أى نص أدبي.

و لنأت على العظمة المدعاة، إنه لتناقض عجيب بين عقلية هؤلاء و قيم هذه الرسالة، فهم يتطلعون إلى العظمة بمنظار ضيق ساذج لا يتعدى حدود المال و الجاه و الثروة، و لا يتجاوز مقاييس الدماء و التفاضل القبلي، بينما ينظر القرآن لها بمنظار آخر، فكل عظيم- بادئ ذى بدء- يتلاشى بالقياس إلى عظمة الله تعالى، و لا مقياسة متوازنة في ذلك لأنه مبدع العظماء بحدودهم المعينة، و منشئ العظمة بأبعادها البشرية، و العظمة لا تتحقق بقيم عشائرية، يغلب عليها التعصب حينا، و يواكبها شبح الأثرة و التسلط حينا آخر.

العظمة تنطلق بصفات لا تدرك، و مزايا من الخلق لا تطاول

(١) ظ: الطبري، التفسير: ٢٥ / ٤٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٤

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) «١» و الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم من قريش في ذروتها، و من العرب في صميمها، و من



الشرف الباذخ في أرومته،

فهو القائل «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قريش»

. و قريش صاحبة السقاية و الوفادة و رعاية الحجيج، و هى قيم عند الجاهليين جدّ باهره، و هو نبعه من هذه الدوحة، و لم يكن زعيمها، و لكنه ابن زعمائها، و أحد أفرادها على الأقل، ذو خلق أصيل، و صنو أمانة متاهية، و هما من الشرف حيث هما حتى فى المقياس الجاهلى. و هو بعد اليوم حامل رساله، و صاحب دعوة، و كان لذلك أهلا، و هنا تتجلى العظمة بارزة مجردة، تجرى عى سجيته، و تناسب مع طبيعتها، و لكن الاسماع سدت عن استيعاب نداء السماء فى الاختيار لرسالته فصكهم بالاستفهام الانكارى، و جبههم بما هو خارج عن مقدورهم أ هم يُقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢).

و أنى ذلك، و رحمة الله بيده، و مقاليد الأمور بتصرفه، يشرف من يشاء بالنبوة، و يصطفى أى عباده شاء للرسالة، فهو أعلن بالحكمة و المصلحة، و ليس عبء النبوة مقياسا من مقياس الحياة الدنيا، فيتم وفق رغباتهم، و ينزل به على مفاهيمهم، و هم عاجزون حتى عن إدراك هذه الموازين و تسخيرها، فكان المسخر لمقتضياتها المناسبة من بيده الحكم و إليه المصير. فتكفل بالقسمة الحقة العادلة فى المعاش، و نظر فى المصالح عند تولى الأرزاق، فقوم الحياة بمعادلات متكافئة و أسس دقيقة، ترصد عوامل الانتاج و وسائل التوزيع و تعدد الأولاع، و لم يفوض أمر ذلك إلى العباد فيختلط الحابل بالنابل، و تتحكم الأهواء و الرغبات فيضيع الحق و تتأزم الحياة، و إذا كان ذلك كذلك، فكيف بهم لو أنيطت بهم القضايا الروحية.

إن هذا التفاوت فى الأرزاق، و التقابل فى المعيشة تقويم للظروف الحيوية، فلو تساوى الناس فى الإيراد و الاصدار و الواجبات لتعطلت

(١) القلم: ٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٥

الأعمال، و تقوضت الحرف، و لا- تكل البعض على البعض الآخر، بينما يحقق هذا التفاوت باختلاف الموارد توافقا فى نسب التوزيع بين الفئات المتعايشة فى البيئة الواحدة لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وفق ما يقدم هذا الانسان، أو ذاك من خدمات تنبض بالحياة، فرب العمل فى عمله، و الفلاح فى مزرعته، و المهندس فى مشاريعه، و الطبيب فى عيادته، و التاجر فى بضاعته .. الخ. كل أولئك عائلة متكافئة تتكون عادة من صنوف المهن لتتم خلافة الله فى الأرض.

يريد الله تعالى إعمار الأرض و استثمارها، و ذلك بتوفير المناخ المناسب لها، و لو لا اختلاف الحرف، و تعدد المواهب، و تفاوت الكفايات، و تنقل الأعداد الشخصى، لأصيبت الحياة بالقحط و البوار، و لعادت عبثا لا يطاق فى كثير من الأبعاد.

إن تضامن البنية الانسانية فى إدارة الأعمال المتراكمة يولد لها شكلا صالحا من الاستقرار، و يحقق لها فريدا من الاطمئنان فى سيادة النظام و تجنب الفوضى، و بذلك تعود الحياة مؤهلة للإدارة فى كل زمان و مكان.

و هكذا تضمحل الدعاوى التى تتخذ من مبادئ هذه الآية ذريعة لاتهام القرآن بايجاد التمايز الطبقي، و بث روح الاستعلاء عند طائفة من الناس، و هو فهم ساذج لا يكون مادة لهذا الاتهام المصطنع، ذلك أن سنن الكون تقتضى تنظيم الحياة، و تنظيم الحياة يقتضى تسخير الافراد بعضهم لبعض، و فى ضوء ذلك تتقوم المرافق، و تتاح فرص العمل، فتتضافر الخبرات المختلفة لاشاعة روح الحياة، فالمبدع و المفكر و المهندس و العامل و الفلاح، و الكاتب و الأمر و المنفذ و القاضى- و إن لم يتساووا بامتيازاتهم- فكل منهم يقدم خبرة فى مجال تخصصه، و لو تساوى الجميع باختلاف ما يقدمون- لأمكن إيقاع الظلم بجهة، و إسداء الافاضة و العطاء على جهة أخرى، دون مبرر لذلك المنع أو هذا الاسداء، و هو أمر يخالف الطبيعة العادلة فى إعطاء كل ذى حق حقه، و بذلك يدفع الاتهام لنظام القرآن، بل نجد فيه تطويرا لنظام الحياة.

و ما هذا و ذاك إلا عرض زائل من متاع الحياة الدنيا، و هناك الجوهر

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٦

الغد الخالد و هو رحمة الله، في نبوة، أو هداية، أو إيمان، أو حكمه، و تلك هي القيم الراسخة:

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فضةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَ لِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَ سُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ (٣٤) وَ زُخْرُفًا وَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥).

فلو لا حذر الفتنة، و خوف تزلزل الضعفاء من الناس، و كراهه أن يجتمع الخلق و يتألفون على الكفر، لفتح الرحمن على من يكذبه من المردة و العتاة، جمهرة من الملاذ البراقة، و الهبات المتكاثرة، حتى تمثل الابهة و الفخامة في قصورهم و دورهم، فالسقف من فضة، و المصاعد من ذهب، و الأبواب فارهة كبيرة مزخرفة، و الاثاث ثمين متنوع، سرر و أرائك، و معدات و مدخرات، تناسب هذه الأبهة و تلك الفخامة، رخيصة مبدولة متوافرة، و في هذا إحياء بتوهين تلك المقتنيات و ضآلتها، لأنها من النعيم الفاني، ذلك لاعتبار راسخ الاصل هو أن الآخرة عند الله بمن اتقاه، و بذلك ينثر هباء كل زائل من مال و جاه و زينة و ثروة، قد يتمتع بها الفاجر، و لا يتصدى لها المؤمن، تزهيدا في قدرها من جهة، و إعلاء لمقام المتقين من جهة أخرى، لما أعد لهم الله تعالى من نفائس الذخائر و خلودها، و من هنا تجد القرآن الكريم يحقق لنا الموازين الصارمة التي لا تتعرض لشطحات النظم المعقدة، و يؤكد القيم الثابتة التي لا تتزلزل بالنظريات المتغيرة، فينفى التفاوت المصطنع، و يحارب الأثرة المتسلطة، و يحرم التسخير اللامشروع، و يوهن المتاع المؤقت المتداعي، و ينظر للحياة الابدية في ظل التقوى، و هو حقيقة إيجابية تدعو إلى التحفز و التيقظ و التحفظ، لا إلى العزلة و المنع و التقوقع كما يتوهم ذلك جمهرة من البسطاء.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٧

### «عاقبة المعرضين و وظيفة الرسول الأعظم»

وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَ إِنَّهُمْ لَيُصَدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَ بَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرِينُ (٣٨) وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَ مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (٤٤) وَ سَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥).

لما انتهت الآيات السابقة من المقارنه بين المثل المتقابلة و تصورات الجاهليين العقيمة اتجهت في هذا المقطع الهادف من السورة إلى تقرير عاقبة المعرضين عن ذكر الله تعالى، و تحديد لمصيرهم المرتقب، كما رصدت وظيفة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم و تسليته عما هم عليه، إذ ليس من القدرة أن يشيع الروح في الجماد، فهو لا يسمع الصم، و لا يهدى العمى، و لا ينقذ من أغرق في الضلال المبين، و بذلك نتساق الآيات السابقة مع اللاحقة في النظم القرآني و السياق. و ترسم آية و مَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦)، صورة بانسة لحاله الغافل عن ذكر الله، بهيئة الأعمى المتعثر، أو المتعمى المتكبر، فهو أعشى يصاب بضعف البصر حينما تواجهه الأضواء المتتابعة فيتعرض للتعامى و الكلال و انعدام الرؤية.

و في استعمال يَعِشْ دلالة مركزية لا تغنى عنها كلمة أخرى، فكما يفاجىء الأعشى بالأنوار المتلاثلة يفاجىء المعرض عن ذكره بآياته ساطعة

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٨

بينه، و كما لا يطبق الأعشى مقابلة تلك الأنوار، فكذلك لا يطبق المعرض متابعة هذه الآيات، فكما عطلت الجوارح عطلت الأفئدة،

فالعمى هنا كناية عن الأعراض فهو بالقلب ألق، و إلى البصيرة أقرب، و ذلك من دقائق الفن القولى فى الاستعمال القرآنى، و هو يؤكد هذه الحقيقة بتكثيف هذه الحالة الفريدة التى يعايشها الضال فى ضلالته، إذ يخلى بينه و بين الشيطان فىمسك به، و يجد السبيل إليه مفتوحا، فيلازمه ملازمة الظل للشاخص، يوسوس به تارة، و يزين له عمله تارة أخرى، فيريه و يهوى به إلى الحضيض، صدرا عن سبيل الله، و إرصادا للذين آمنوا و للايمان نفسه، و يبقى فى سكرته لا يفيق حتى يفاجأ بالنهاية المرعبة، و قد كان من قبل سادرا فى غيه، موعلا بالعمائة، و الأنكى من ذلك أن يوهمه هذا القرين بأنه على قصد الطريق، و لا يثوب إلى رشده إلا و هو فى حمأة العذاب، فيعمل نفسه بالمنى يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعِدَ الْمَشْرِقَيْنِ. و هو بذلك «يريد بعد المشرق و المغرب فغلب كما قيل: العمران و القمران. فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت تباعدهما، و الأصل بعد المشرق من المغرب، و المغرب من المشرق، فلما غلب و جمع المفترقين بالثنية أضاف البعد إليهما» (١).

و لكن بعد المفاجأة الكبرى التى تنتظره، و هى لقاء الله تعالى فى ومضة من الزمن، و لمحظة من انتهاء الحياة، و إذا بالمنى كاذبة جملة و تفصيلا، و إذا بالارتباك و الحيرة و الاضطراب محيطه به من كل مكان، فالشيطان قرين له و بس القرين، لقاء معه فلا بعد، و اجتماع به فلا افتراق، فهما قرينا سوء، و لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٩)، فلا تخفيف فى المشاركة، و لا تبعه فى التحمل، العذاب متساو لا يتقاسمه شركاء النار، و فى هذا إيحاء بمخالفة القاعدة السائدة: أن المصيبة إذا عمت هانت، و مع ذلك فإن التيسير يصكهم برهته و شدته، فالكل فى كارثة لا يلتفت معها أحد إلى أحد، فلا مواساة و لا ترويح. و يتجه الخطاب إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم تسلياً له على ما أصاب القوم، إذ ليس بمقدوره أن ينقذ من كتب له الضلال بعد إزمه بالحجة:

(١) الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٤٨٨ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ١٩٩

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٠) فمهمة الرسول مهمة تبشيرية و تحذيرية، و وظيفته تمهد سبل الهداية و الرشاد، فإذا أدى ما عليه سقط الواجب عنه، و بقى واجب من بلغ، و هو مخير فى مثل هذه الحال، و يبدو أن القوم فى غفلة من الأمر، لما أشعر به القرآن عن مبلغ عتوهم و جبروتهم حتى عادوا كالصم و العمى بعدم استفادتهم بما أفاء الله عليهم من جوارح و حواس كان عليهم أن يتلمسوا بها مواطن الرشاد، فهم صم عن سماع دعوة الحق، و هم عمى عن إبصار موقع الهدى، أغلقوا منافذ الوعى، و عطلوا مسالك البصيرة، فهم كالحجارة أو أشد قسوة، و الرسول قد تدرج بواجباته حتى أتمها، و لكن لا سبيل إلى هدايتهم، فليقفوا- إذن- بين محذورين: فإِذَا نَذَبْتَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢).

هم الآن أمام تحد شامل لكل الاحلام، إنه لتحديد بليغ و حصر بين حالتين، فإن قبض الله نبيه إليه، فهو يتولى الانتقام من أعدائه، و يشفى بذلك صدور المؤمنين، و إذا قدر له البقاء فسوف يتحقق الانذار بكل قوة و اقتدار، فهم لا يعجزون الله، أما فى الآخرة فيحيط بهم إحاطة شاملة ينفذ بها شدة و عيده، فهو لا يفلتون منها كما لا يفلت المحاط به من المحيط، و أما فى الدنيا فقد قدر لطفاتهم أن يلاقوا مصارعهم فى بدر و غير بدر، و أن ينكبوا ماديا و معنويا و عسكريا بنكبات ارتفعت بوقعها عليهم إلى مستوى الكوارث الساحقة.

أما الرسول الأعظم فوظيفته أداء رسالته بكل أمانة و دقة و إخلاص، ضلوا عنها أو هدوا إليها: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣).

و إذا كان الأمر كما قدر الله، و هو كما قدر الله تعالى من نصر نبيه لا محالة، و من الانتقام من المكذبين غير معجزين، فالتمسك بالذى أوحى إليه من الآيات البينات، أمر طبيعى الصدور، و كأن الآية تقول: سر بطريقك يا محمد لا يضيرك شىء ما، فإنك بكل

تأكيد على الجادة و الصراط الواضح الذي لا- ينحرف بك يمينا و لا- شمالا. و في ذلك تثبيت للرسول على طريقته، و تبشير له باستقامة أمره، و بعد ذلك فالقرآن شرف عظيم لمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و مجد أثيل لقريش، و رمز شامخ للعرب، و عز لكل المسلمين

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٠

في كل أرض، و هو تذكير له و لقومه، و سوف يسأل الجميع عنه يوم القيامة، هل طبقت حدوده؟ و هو و فئى بحقوقه؟ و هل أقيم قاعدة أساسية للتشريع؟ أما الرسول فقد طبقه تطبيقا شاملا، ناظرا فيه يومه و غده، و قد جعله قبلة في هداة و مناظراته و تطلعاته، فكان المنظر الأكبر، و المبشر الأعظم، يقود القافلة، و يشرف على المسيرة، و أما قومه فقد فتحوا به شرق الدنيا و غربها، و غنموا خير المتاع و أئمنه، ثلوا به عروش القياصرة و الأكاسرة، و ورثوا ديار الفراعنة و الجابرة، فعمروا و استثمروا و تأمروا، فأى ذكر كهذا الذكر، و أى شرف اسمى منه، و سيقى هذا الذكر مصاحبا لهم، و مقترنا بهم ما داموا متمسكين بالقرآن، عاملين بمضامينه، فإذا انتفى العمل انتفى الذكر، إذ لا تبعه في الدين، فإذا تخلت الأمة عن حمل الأمانة، و ترددت بعبء المسئولية، انحدرت هذه الكرامة الفضلى، و تلاشى هذا المجد العظيم.

و يبقى التوحيد سمة بارزة يقرها القرآن دعما للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تأكيدا على انتصاره في النهاية و سئل من أرسينا من قبلك من رسلنا أ جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥).

و كانت فطرة كل الرسل في مختلف العصور و تطاول الفترات ناطقة بتوحيد الله، و الدعوة إلى ذلك. كان ذلك في زخم حافل مما مر في التاريخ من قتل و تشريد و إفناء و عذاب استئصال، و هى ظواهر مشتركة ألفت حياة المؤمنين و الكافرين على حد سواء، شاهدها هؤلاء و هؤلاء مع تفاوت في طبيعتها في الكثرة و القلة أو الشمول و الاقتصار، لذلك فهى لا تأتلف مع ظواهرنا اليومية الرتيبة، و همومنا الجزئية الصغيرة، و لكنها كانت حقيقة ألفتها قرون، و عركتها أجيال، و خبرتها أمم، انطوت و بادت و تفرقت، فبقيت للذكرى عظة و عبرة، و ظل الحق هادرا من وراء الغيب في التقدير الكائن الأزلى الأبدى السرمدي: أن لا إله إلا الله، و كفى.

و مع هذا الملحظ الدقيق، يبقى أن كيف يتم لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم سؤال من تقدمه من الرسل، و هو لم يعاصرهم و لم يدر كههم؟ و الإجابة عن هذا السؤال يضع ابن جزى ثلاثة وجوه:

الأول: أنه رآهم ليلة الاسراء.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠١

الثاني: أن المعنى اسأل أمه من أرسلنا قبلك.

الثالث: أنه لم يرد سؤالهم حقيقة، و إنما المعنى أن شرائعهم متفقة على توحيد الله بحيث لو سئلوا: أهل مع الله آلهة يعبدون؟ لانكروا ذلك و دانوا بالتوحيد «١».

و كل هذه الوجوه محتملة، إلا أننا نميل إلى الوجه الأخير و نأنس به لأمرين.

الأول: أنه متساق مع البلاغة القرآنية في إرادة حقائق الأشياء، فقد يشير القرآن- أحيانا- للشىء و يريد لازمه، و يطرح القضية و يهدف إلى متعلقها.

الثاني: أنه مواكب لدعوة الرسل الفطرية في توحيد الله تعالى، فكأن طرح السؤال حصيلة مؤكدة لا جدل فيها في إيجابية الجواب. فلا معبود سواه، و لا إله إلاه.

و يرى أبو على الطبرسى (ت: ٥٤٨هـ) في ذلك: سل قومي أهل الكتاب الذين أرسلنا إليهم الرسل هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد، و هو قول أكثر المفسرين، و قيل أن المراد سل أهل الكتابين التوراة و الانجيل و إن كانوا كفارا فإن الحججة تقوم بتواتر خبرهم، و الخطاب و إن توجه إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم فالمراد به الأمة، أى سلوا من ذكرنا «٢».

(١) ظ: ابن جزى، التسهيل لعلوم التنزيل: ٣٠ / ٤.

(٢) ظ: الطبرسى، مجمع البيان: ٥٠ / ٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٢

### «موسى و فرعون و قومه»

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الْعَذَابَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا- أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦).

لما دعى سبحانه فيما مضى من الآيات إلى مسألة الرسل أو أمهم بصورة عامة، خص هنا بالحديث موسى وقومه، و فرعون و الملأ من حوله بإحاطة موجزة، تعيد التاريخ مناسبا لواقع المشركين، فيتصل ما سبق من النظم بما لحق، بمنظور واحد يرعى قضية مشتركة، فهؤلاء الذين استنكروا نزول القرآن على محمد صلى الله عليه و آله و سلم و قالوا: لو لا- نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، يمثلون حالة سبقت قد ادعاها فرعون في طغيان و جبروت و مباهاة، فأعيد للأذهان التفكير البشرى المحموم القائم على أساس التفاضل بالأثر و السلطان (أ ليس لى ملك مصر؟ و هذه الانهار تجرى من تحتى ...) فوجه المقارنة بين الموضوعين بينة فى إرادة التفاضل بالملك و الجاه و الذخائر و المقتنيات، كما أن دلالتها بارزة فى تأكيد الانتقام من هؤلاء كما تم الانتقام من أولئك، و فى هذا الملحظ لم يذكر السياق الفنى للآيات الكريمة من قصة موسى مع فرعون إلا موضع المشابهة فى هذا

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٣

الوجه من الاعتراضات التى أثرت فيما مضى، بالقياس لما يثار من قبل المشركين.

لقد صرع موسى عليه السلام أنفا بما صرع به محمد اليوم: فقال: إني رسول رب العالمين. و إذا بالقوم يستقبلون ذلك بما استقبل به المشركون محمدا فلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧)، يمثلكم الضحك فجأة، و يحدوهم الاستهزاء دون روية أو تنبه لآيات موسى، فصب عليهم ربك سوط عذاب، فى تفصيل من الآيات المتتابعة التى تميّزت بكمالها و تمامها، فكل آية منها مستقلة بدلالاتها المتكاملة: وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الْعَذَابَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨). و قد تمثل هذا العذاب بما أصابهم من آيات موسى الينيات فى السنين و الدم و القمل و الجراد و أضراب ذلك، عسى أن يعودوا إلى الحق، أو يثوبوا إلى الرشد، و لكنهم مع هذه الامارات الناطقة بأصناف العقوبات- تأديبا لهم- قد لجوا بقولهم المحكى يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ.

و قد يراد بهذا الخطاب التعظيم من جهة، و السخرية من جهة أخرى، و قد يتداخل الأمران فهم قد يصفون العلم و المعرفة بالسحر، و هم قد يحاولون الغص من منزلة موسى بتسميته ساحرا دلالة على الغى و التمدادى، و قد يسرون حسدا فى ارتضاء فيتشابه المراد، و إن كان المعنى الأول مما تطمئن إليه النفس لأنهم فى مقام الاستكانة و السؤال و الطلب، و هو مما يتناسب معه تعظيم المخاطب و الله أعلم.

و مع هذه الاستغائة الملحة فى درء البلاء و دفع العذاب الذى يفترض بعد تحقيقه أن يكون إمارة من أمارات النبوة، و معلما من معالم

التصديق والاذعان والإنبأ، ولكنهم مع دعوى الالتزام بالثبات و تأكيد الهداية و الايمان، ينكثون العهد: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠)، و في ذلك صورة هزيلة بائسة للخداع و النفاق و الرياء.

و بآزاء أن لا يصدق الناس معجزات موسى عليه السلام يقف فرعون- ببلاهة و خبث بوقت واحد- ليثير شبهة في نفوس العامة من الناس قال يا قوم أليس لى مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرى مِنْ تَحْتى أَفَلَا تُبْصِرُونَ.

فموسى الذى يعد المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار، انطلقا

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٤

من واقع الغيب فى الجزاء، يحاول فرعون مجازاة ذلك الوعد بما هو واقع فعلا، فيصور لرعاى الناس أنها تجرى من تحته الآن إن تكلم بها موسى آجلا. و النفوس الضعيفة تستهويها المظاهر المصطنعة فى عرض حاضر ملموس، فملك مصر بأنهارها و كيفية جريانها، و إن كان محدودا إلا أن الدهماء تغرى بهذا اللون من البهرجة، أما ملكوت السموات و الأرض و الموت و الحياة فتطلب قلوبا ثابتة و أحلاما راسخة تتعد بمناخها الروحى عن تفكير المغفلين و سطحية آرائهم، و القوم كذلك فى الغفلة، و دليلها استغفال فرعون لهم بما أثاره حول موسى محكيا: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذى هُوَ مَهينٌ وَ لَا يَكادُ يُبينُ (٥٢).

و كأن فرعون قد أوحى لقومه بأنه خير من موسى، فلم يكن موسى صاحب سلطان أو ثروة أو تمكن فى الأرض، و لا بد فى الموازنة بينه و بين من له ملك مصر بأنهارها و ديارها، أن يكون فرعون بحسب منطقهم أعلى شأنًا و أفضل مكانا، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه من شعب مستعبد مستباح يتمثل بنى إسرائيل، و هو- فيما يزعم لا يفصح فى كلامه لعقدة فى لسانه، ثم لفرعون ما أراد من صحة الاستدلال، بيد أن ذلك فى المنطق المقابل مردود بوجه:

الأول: إن الملك و السلطان و الأثرة فى حياة متقلبة أعراض قابلة للزوال و الاضطراب و الفناء فى أية لحظة من اللحظات، فكأنها لم تكن، و فرعون نفسه متعرض لذلك فى جميع مدخراته و مقتنياته و ذاته، أما النبوة و منزلة الرسالة التى حازها موسى و التى تقود إلى حياة متميزة تتسم بالأبدية عند الله تعالى، فهى الملك الحقيقى الثابت مع الاطمئنان و الاستقرار، و إذا حصل الاطمئنان حصل الرضى، و إذا استقرت الحياة تحققت الغبطة.

و ذلك متوافر لموسى، متباعد عن فرعون.

الثانى: إن الصاق الازدراء من جهة، و التهكم من جهة أخرى بموسى عليه السلام مدرك لا يقوم على أساس من قبل فرعون، فما هو إلا اللهو و العبث و الاستعلاء، لأن الطغاة يلصقون بأعدائهم من المؤمنين و الصالحين ما شاءوا من نعوت و صفات، و لا منكر لذلك و لا مغير، فمن ذا الذى يتفوه عنده، و من ذا الذى يحاججه فيما يدعى، و مقاليد الأمور بيده، و هو الحاكم المطلق المتسلط.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٥

الثالث: إن ادعاء فرعون بأن موسى لا يبين و لا يفصح، لا يتم له من ناحيتين: فنية و تاريخية.

الناحية الفنية: أن يكاد إذا سبقت بنفى كانت أداة للثبات لا للنفى كما يتخيل فرعون، فموسى يبين و يفصح مع هذا الملحظ النحوى الدقيق.

الناحية التاريخية: إن هذا الحديث عن موسى عليه السلام إنما يصح فيما مضى من تأريخ حياته قبل بعثته و قبل خروجه من مصر لا بعد عودته إليها، و ما إثارة هذه الشبهة من قبل فرعون إلا للتغريب بالجهلة، و ذلك أن موسى عليه السلام عند بعثته نبيا، و إرساله إلى فرعون من قبل الله تعالى، طلب من الله بصريح العبارة فك حبسة لسانه، و قد استجاب الله له ذلك، فحينما دعا ربه فيما حكاه تعالى عنه: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لى صَدْرى (٢٥) وَ يسِّرْ لى أمرى (٢٦) وَ اخْلُ لى عُقدَةً مِنْ لِسَانى (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلى (٢٨) «١».

و إذا بالاستجابة تفتح أبوابها من لدن سميع الدعاء فيما حكاه: قَالَ قَدْ أُوتيتَ سُؤلكَ يا موسى (٣٦) «٢».

فهى شبهة مفندة تاريخيا، إذ حلت العقدة من لسان موسى قبل مقابلة فرعون، و حديثه مع فرعون بعد عودته إلى مصر رسولا.

و مع دفع ما تقدم، يبقى فرعون ملقنا قومه بأنه خير من موسى، فيثنى عليه بشبهة أخرى، و اعتراض رجراج جديد: فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ  
أَسْوَرَةً مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣).

و الشبهة أنهم كانوا إذا سودوا رجلا سوروه بسوارين و طوقوه بطوق من ذهب لسؤدده «٣».

و فرعون بهذا يكتنى عن طريقة تملكه إن كان صادقا فيما يدعيه، بينما لم يدع موسى الملك و لا السلطة، بل ادعى النبوة و الرسالة، و  
إذا كان الملك يتطلب أسورة من ذهب، فإن النبوة لا تتطلب ذلك، بل تتطلب

(١) طه: ٢٥-٢٨.

(٢) طه: ٣٦.

(٣) الألوسى، روح المعاني: ٢٥/٩٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٦

المعاجز و البراهين، و كان حق فرعون و الملائكة المطالبة بالبراهين، و قد جاء موسى بالآيات البيّنات دليلا على صدق دعواه،  
فردت هذه الشبهة.

و أما الاعتراض فلاغواء، الآخرين، إذ قد يتنبهون أن الشبهة المتقدمة التي أثارها فرعون لا تنسجم مع طبيعة النبوة، إذ لم يكن موسى  
طالب ملك و لا مدعى رئاسة، و إنما هو صاحب رسالة، فجدد في هذا الضوء اعتراضه الجديد الذي قد يجد آذانا صاغية أو جاء معه  
الملائكة مُقْتَرِنِينَ يعينونه في رسالته، أو يتابعونه على دعواه، أو يكثرون قلته و يجتمعون عليه، و هو اعتراض لا يقوم على أساس، إذ لم  
يسبق لنبي أن هبطت معه الملائكة لدعم رسالته في الأرض، لأن ذلك مخالف لطبيعة الفطرة الانسانية، فالمرسل إليهم بشر، و الرسول  
بشر، من سنخ جنسهم، أما قتال الملائكة في بدر مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم فليس من هذا الباب، إذ لم يكن موسى في  
حرب مع فرعون حتى يرد طلب نصرته بملائكة مردفين كما حصل ذلك لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في قتاله مع  
المشركين، و الميدان ميدان دعوة لا ميدان حرب.

و مع هذا المنطق الذي يفلج فرعون، و يفند شبهه كافة، نجده يستحث قومه و يستخفهم بالاطاعة له، و نجدهم يسرعون إلى ذلك  
مستجيبين، غير متكلفين عناء البحث و الاستقصاء فيما أثاره فرعون من شبهة تختلف مع وقائع الأمور، و ذلك قوله تعالى: فَاسْتَجَبْ  
قَوْمُهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤).

و هذه الاستجابة في الاطاعة على الضلال تنبئ عن مدى فسقهم و فجورهم و عدم تثبتهم من حقائق الأشياء، فلما تأكدت سحتهم و  
لم ينفع معهم الانذار، و استغواهم فرعون بفتنته حق عليهم العذاب: فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَ  
مَثَلًا لِلآخِرِينَ (٥٦).

لقد قوبل جبروت فرعون المتلاشى بجبروت الله المتعالي، فعند الغضب كل الغضب، انتقم الله من الجميع بعذاب الاستئصال عن  
طريق الاغراق، فاخفى فرعون و جنوده في لحظة زمنية، و تلاشى في فجأة تاريخية، و إذا به و الملائكة من حوله، عبرة لمن اعتبر، و عظة  
لمن اتعظ، المبادئ العامة لتفسير القرآن ٢٠٧ «موسى و فرعون و قومه» ..... ص: ٢٠٢

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٧

فيرتدح حيناً، و يعتبر حيناً آخر، و في ذلك مجال لتسيير الأمثال، على مدى الأجيال، فيبقى ذلك و سما لمن غضب الله عليهم، فذاقوا  
عاقبة أمرهم، وبال و أى وبال، و خزي و أى خزي، مرتسما مع الدهر في كتاب يقرأ ليل نهار، و يتداول في بقاع الأرض. أعادنا الله  
من غضبه، و وفقنا لما يرضيه إنه سميع مجيب.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٨

## «عيسى و ضرب المثل و البينات»

\* وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُون (٥٧) وَقَالُوا أَاٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْآرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعَلَّمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَ اتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَ لا- يَصِيءُ دَنُوكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥).

حينما انتهت الآيات السابقة بتيسير الأمثال، بدأ هنا السياق بضرب الأمثال، فاتحدت الموضوعية في النظم، و هذه الآيات تفتح عمقا جديدا في التأكيد على حقيقة التوحيد، تناسبها مع السياق العام، فبعد أن تقدمت قصة موسى مع فرعون و قومه، و خلصت بالزبدة بانتصار الايمان، و خذلان فرعون و جنوده، تجيء قصة عيسى، و قد ضرب به المثل، لتربط بين جدل المشركين في الباطل، و التواء قوم عيسى عن الحق، و كلاهما فرعان لأصل واحد، و هو الاصرار دون بينة، و الإعراض دون دراية. و الأمور تقاس بأمثالها، فلقد تهافت المشركون أمام الزحف القرآني المقدس، و تهرأت أحلامهم فبدءوا يجادلون مجادلة المحموم، و يخاصمون مخاصمة المغلوب، دفاعا عن مجموعة العقائد الفاسدة، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم على قريش قوله تعالى إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (١).

(١) الأنبياء: ٩٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٠٩

امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا، و حاولوا الايهام و الايفال في التفسير «فقال عبد الله بن الزبير: يا محمد أ خاصة لنا و لآلهتنا أم لجميع الأمم، فقال عليه السلام: هو لكم و لآلهتكم و لجميع الأمم، فقال خصمتك و رب الكعبة، أ لست تزعم أن عيسى بن مريم نبي، و تشنى عليه خيرا و على أمه، و قد علمت أن النصرارى يعبدونهما، و عزيز يعبد، و الملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن و آلهتنا معهم، ففرحوا و ضحكوا ... و نزلت هذه الآيات «١»: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (٥٧) وَ قَالَوا أَاٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَ جَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩). و لكنهم تجاهلوا عامدين أن المراد هو أصنامهم و أوثانهم التي صوروها و صنعوها بأيديهم ثم عبدوها عبادة خالصة و إنما تذرعوا بشبهة تكشف عن طبيعة القوم في المراء الظاهر و الاحتجاج المرير اليائس، و لم يعقلوا أن (ما) في قوله تعالى: وَ مَا يَعْبُدُونَ لغير العاقل في أصل الاستعمال عند العرب، و قد أستشى بها عيسى و عزيز و الملائكة بالدليل اللفظي كما يقولون، فضلا عن الدليل العقلي القاضى بتنزيه الأنبياء، إلا أنهم- تمسكا بالجدل و المخاصمة- لجوا في مهاترات جانبية، لأن ضربهم المثل بعيسى باطل من أساسه، إذ ليس عمل النصرارى حجة، و لا تعبدهم إماره على الصحة، بدليل الانحراف العقائدى و التخليط في الوجدانية الذى يمارسها بعضهم بمحض الغلو و الافتراء. و الانحراف و إن تعددت جهاته فهو واحد: ضلال في ضلال. و أما عيسى بن مريم فهو عبد من عبيد الله لم يأنف عن عبادته، و قد ضل من عبده من دون الله أنى كانت هويته. و قد أنعم الله على عيسى بشرف النبوة و الرسالة و الولادة دون أب، ليظل دليلا شاخصا نحو الحق، و آية يقتدى بها من يريد الوصول إلى استكناه بعض اللمحات من قدرة الله تعالى «٢».

(١) الزمخشري، الكشاف: ٢٥٩ / ٤.

(٢) المؤلف، الصورة الفنية في المثل القرآنى: ٢٧٧ و ما بعدها.



المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٠

و بناء على ما تقدم فقد كانت عبادة بعض النصارى لعيسى باطلة لا يصح معها ضرب المثل من قبل قريش، و لا وجه للمقايضة بين ما عبده من الملائكة، و ما ضربوا هذا المثل إلا حبا في الجدل و المراء الظاهر، بيد أن الطبيعة الجدلية عند قريش قد تفرض هذا المنطق في المخاصمة، فإضافة إلى تعنتهم بأساليب الجدل و الحوار نجدهم يتبعون كل عبارة بل كل إشارة قد تعنى شيئا يتشبثون به أنى اتفق، و يتصيدون أى لفظ يمكن من خلاله إثارة شبهة أو قضية، حتى و إن لم تجد فيه إلى الاستقامة سيلا، و لكنه اصطرع من أجل البقاء فيما يتصورون، فلقد أذبيوا و انتهت دولتهم، فلا النزاع ينقذهم، و لا المراء يحقق لهم الغلب.

و فى إشارة إلى نوعية ضلال المشركين بإشراك الملائكة فى العبادة يتناسق السياق القرآنى بقوله تعالى: **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠).**

فالملائكة من عباد الله المقربين، لا تربطهم بالله إلا صلة العبد بخالقه، يأتمرون بأمره، و لا شاء لاستخلفهم فى الأرض بدلا من البشر، أو خلفا لهم، أو اشتقاقا منهم، أو بصورة ذات كيفية جديدة و هو المبدع المصور، و فيه إنكار ضمنى غير خاف على من اتخذ الملائكة آلهة من دون الله.

و تعود الآيات إلى عيسى عليه السلام لتقرر أنه من أشراط الساعة، و دليل وقوعها يعلم به قربها، و يكون إماره على مجيئها، عسى أن يتذكر المشركون الساعة، و هم فى ريب منها و شك فى أمرها، فى محاولة لانقاذهم لو تصوروا هولها، و تحسسوا وقعها: **وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١).**

و قد تضافرت الروايات كثرة و شيوعا فى نزول عيسى إلى الأرض قبيل الساعة،

فعن جابر بن عبد الله الانصارى (رض) «سمعت النبى صلى الله عليه و آله و سلم يقول ينزل عيسى بن مريم، فيقول: أميرهم تعال صل بنا فيقول: لا. إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه من الله لهذه الأمة (أورده مسلم فى الصحيح) «١».

(١) الطبرسى، مجمع البيان: ٥/ ٥٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١١

و فى حديث آخر: كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم «١».

و قيل: إن الهاء فى قوله (و أنه) يعود إلى القرآن، و معناه: إن القرآن لدلالة على قيام الساعة و البعث يعلم به، و قيل معناه: إن القرآن لدليل الساعة لأنه آخر الكتب أنزل على آخر الأنبياء. و قد روى ذلك عن أبى مسلم «١».

و علم الساعة من الغيب الذى اختص به الله لنفسه - كبقية ما اختص و تفرد بعلمه - حدثنا به القرآن فآمنا به و صدقنا، و الآية تدعو إلى عدم التشكيك فيه باتباع الرسول الأعظم لأنه يوصلهم إلى صراط قيم لا لبس فيه، و نهج بين لا شبهات حوله، أما الشيطان فيقلب لهم ظهر المجن، فيبنا يدلل لهم سبل الانحراف، و إذا به يبرأ منهم، فهم و إياه فى محنة، لذا يرد النهى مرارا و تكرارا عن الائتمار بإيحاءه، و الامر بالابتعاد عن إغوائه، و التحذير العام هو طريق النهى و الأمر، باعتباره عدوا مسفرا بعدائه: **وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢).**

«و القرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الخالدة بينهم و بين الشيطان منذ أبيهم آدم، و منذ المعركة الأولى فى الجنة، و أغفل الغافلين من يعلم أن له عدوا يقف له، بالمرصاد عن عمد و قصد، و سابق إنذار و إصرار ثم لا يأخذ حذره، ثم يزيد فيصيح تابعا لهذا العدو الصريح. و قد أقام الاسلام الانسان فى هذه المعركة الدائمة بينه و بين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض، و رصد له من الغنيمه إذا هو انتصر ما لا يخطر على قلب بشر، و رصد له من الخسران إذا هو اندحر ما لا يخطر كذلك على قلب بشر، و بذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائبة التى تجعل من الانسان إنسانا، و تجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطباع و

الطباع، و التي تجعل أكبر هدف للانسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان، فينتصر على الشر و الخبث و الرجس، و يثبت في الأرض قوائم الخير و النصح و الطهر» (٣).

(١) الطبرسي، مجمع البيان: ٥/ ٥٤.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢٥/ ٩٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٢

و بعد استجلاء هذه الظاهرة تكرر الآيات بالعودة إلى عيسى في بيناته، و مدى إختلاف قومه فيما أورد من حقائق: وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ (٦٣).

و لقد جاء عيسى بالبينات من البراهين الصادقة و الدلائل الاعجازية، و الخوارق الكونية، سواء أ كان ذلك في الأفعال من إبراء الاكمه و الابرص و إحياء الموتى باذن الله، أم كان في الأقوال من التوجيه و النصح الكريم، و قد ثنى هذه البينات بالحكمة، و هي إن كانت النبوة فقد هداهم إلى التوحيد، و هو المهمة الأولى للرسالة، و إن كانت الشرائع فقد أرشدهم إلى سنن الطريق، و إن كانت العلم بهذا و ذلك، فلقد أثمرت التوحيد الخالص ردا على من عبده من دون الله، و أثمرت الشريعة التي برعمت الاطمئنان، و بشرت بنبوة محمد صلى الله عليه و آله و سلم و عدالة السماء.

و لقد أزال عيسى عليه السلام من الاختلاف جانبا فيما انقسموا فيه من شريعة موسى عليه السلام بعد أن تفرقوا شيعا و أحزابا، و أبان حقيقة التوحيد و نفى الأشباه و النظائر و الشركاء و الابناء عن الباري عز و جل، ألزم بتقوى الله نفسه و حواريه و أنصاره و قومه باجتناح معاصيه، و اكتساب مراضيه، و نطق بالحقيقة الكبرى التي تخشع لها كل الحقائق: إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤).

قضية مسلم بها، فهو عبد من عباده، و قد وثق هذه الصلة بنفسه قبلهم فقال: هو ربي، ثم هو ربكم، توييخا و استهجانا لمن ادعى في عيسى الربوبية، إذ لا إله لهم إلا الله.

و إطاعة عيسى فيما دعا إليه بالبينات و الحكمة، و درء الاختلاف و النزاع، و الدعوة إلى التقوى، واجب تقتضيه المؤشرات الخيرة، إذ فيه الألفة و المحبة و اليقين، و كل ذلك يقود في حقيقته إلى التوحيد الخالص من الشوائب، و هو يوصل إلى الصراط المستقيم بلا انحراف، و إلى الجادة دون التواء.

لقد هبط المسيح عليه السلام رحمة لقومه، إذ ألف بين طوائفهم المتناحرة، و أقام من أودهم المتداعي، فاهتدى الضال، و انظمس الضلال، و ما إن رفعه الله تعالى إليه، حتى اختلف اليهود و النصارى

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٣

فيما بينهم، فادعت اليهود صلبه، بينما جعله النصارى ثالث ثلاثة، و كل ذلك ضلال في ضلال: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥).

إنه الانذار و الوعيد، الانذار الهائل، و الوعيد الفظيح، الويل لهم كل الويل من عذاب يوم القيامة في مصاعبه و آلامه و أهواله، جزاء وفاقا، لأنهم ظالمون، ظلموا أنفسهم، و شعوبهم، و تأريخهم، خانوا الأمانة، و استهانوا بالرسالة، و مصير الأحزاب هذا بعد عيسى هو نفسه مصير المتحزبين على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من مشركي العرب، الذين جاءوا بالاختلاف - كما جاء الأوائل - يثيرون الشبه حول عيسى، و ينسجون حوله الاباطيل، ليسوق الجميع سوقا عنيفا إلى مشهد فريد من مشاهد القيامة، و بذلك يتناسق السياق القرآني تناسقا عجيبا في وحدة السورة الموضوعية، و منهجها في العرض و الأسلوب و النتائج.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٤

## «من مشاهد القيامة»

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَحَاتٍ مِنْ ذَهَبٍ وَآكَوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُنِلسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لِحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْ آفَأْنَا مُبْرَمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠).

تصور هذه الآيات بإطار موحد بعض مشاهد يوم القيامة في وقوع الساعة والوعود والايعاد والمحاسبة، فقيام الساعة بغتة، والأخلاء أعداء، والمتقون هم الفائزون يقترن فوزهم بالكريم والعطاء الجزل، والمجرمون في عذاب جهنم وأبديته، حتى يصيبهم الهلع الجزع إلى تمنى القضاء المبرم بالموت، تعبيرا عما أصابهم من الكرب الشديد الذي يطلبون معه الهلاك والفناء، فيصكون بالاستهانة بأنهم في ديمومة من الاستقراء في العذاب، فقد كرهوا الحق بعد عرفانه، واتمروا فكشف الله نياتهم، وأحصى ما عملوا وقالوا وأسروا استقصاء: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦).

استفهام تقريرى ينطوى على الوعيد المرعب في قيام الساعة وكانهم

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٥

ينظرون إليها حقيقة واقعة مذهلة، والساعة وأمرها مما انفرد الله بعلمه وتفصيلاته، وتدل الآيات القرآنية في أكثر من موضع على قيامها مقترنا بعنصر المفاجأة دون إنذار مسبق، أو وقت مبيت، وهو غيب ينطلق إيماننا به بالضرورة لأنه من أركان هذا الدين، وهو فرع من إيماننا بالقرآن والرسالة جملة وتفصيلا. وتصاحب ذلك أمارات وعلامات في التغيير الكوني لجميع مظاهر العوالم في السماوات والأرض وما فيهما حيث يتم الانقلاب الشامل المدهش إيذانا بالقيامة، وكأن الدنيا لم تكن والآخرة لم تزل، ووضعت الموازين، ورفع القلم، والظاهرة التي تثيرها الآية هنا مضافا إلى الظواهر الأخرى في آيات أخرى، إن المتحابين في الدنيا باستثناء المتقين، وقد كانوا في أمن ودعة، ومنأى عن الفرقة والخصام والبغضاء، ينقلون إلى أعداء متلاومين، ذلك أنهم كانوا متعاضدين على الكفر والضلال، مجتمعين على الباطل والفسوق، وإذا بهم أعداء في الروح والذات، وخصوم في اللقاء، يبرأ أحدهم من الآخر، ويلقى بعضهم على بعض بالتبعة، وهذا الانقلاب في السلوك جزء من الانقلاب الكوفي و كأنه يشمل النفوس المتحابة في الشر، المتعانة على العدوان، فأما المتقون فثباتهم في الحياة الدنيا عاد أداة استمرارية لثباتهم في الحياة الأخرى، فلا عداء يفهم ولا ملاحاة، بنى اتصالهم على الحق، وكان جبههم في ذات الله، بعيدا عن المظهر المادى المغلف، والحب الدنيوى الكاذب، فلقد كانوا أخلاء صدق، وبقوا أخلاء صدق، وذلك قوله تعالى: الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧).

وما زال في حديثه عن المتقين فإنه يشرفهم بالقرب منه بندائه الكريم: يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨)، إن اللذة الروحية بهذا النداء لتفوق بأحاسيسها الاحساس بأى عطاء مادي مهما كان قيما، فهو تشریف لهم بالخطاب المقترن بصفة العبودية سيماء لهم، مما يزيدهم شرفا، وباستقراء القرآن الكريم نجد هذه الصفة مطردة بأصفياء الله، فكل صدّيق عبد له، وكل نبي من عباده، وكل مرسل يشرف بهذا الوسام، ولا نريد استقراء هذه الظاهرة، واستطرداها، فقد يخرج بنا عن صميم الموضوع، بيد أن البارى فقد خاطب النفس الانسانية المتمثلة بالمتقين فقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٦

(٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) «١».

و لقد كانت هذه النفوس أكثر سرورا بادخالها في عباده و حشرها في زمرة أوليائه من ادخالها في جنته، لأن النفس الزكية تتسم بشفافية روحية تجعلها تنظر بعين الغبطة و الرضا إلى اندماجها في عباد الله، فهي بذلك أشد فرحا و تأثرا و انجذابا من اندماجها في دخول الجنة، و إن كان دخول الجنة جليلا، إلا أن مخالطتها للعباد الصالحين أمر يتصف بالروحانية المطلقة، و هذه الروحانية تحقق لهم مزيدا من الرغبة العارمة، فلقاء محمد و آل محمد، و إبراهيم و آل إبراهيم مثلا، أكثر تقبلا في نفوس الخاصة من الأولياء، و أسمى منزلة من دخول الجنة، فإذا أضيفت لهذه الروحانية البشارة بأن: لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون، تكاملت السعادة من أطرافها، إذ امتزج القرب الروحي بالاطمئنان إلى الشعور النفسي بالاستقرار و الأمن و السلامة، فلا الخوف يخشى، و لا الحزن يقترب، و هما مظهران من مظاهر القلق النفسي، و بابتعادهما يتفرغ الشعور لاستقبال الملاذ و المتع الحسية، لهذا يأتي بعد هذا النداء تحقيق الوعد بما أدر لهم الله في ذلك اليوم من نعم و متع و سرور، جزاء على إيمانهم اللامحدود، و إسلامهم المقترن بصالح الأعمال: الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠).

و تأتي سلسلة اللذائذ الحسية مسبوقة بأمر الدخول إلى الجنة غير مستوحشين و لا فرادي، بل هم و أزواجهم ليجتمع الشمل، و تعم الفرحة بما يطفح بشره، و يتجلى أثره في نضرة الوجه، و ازدهار القسيمات، و حينما يدخلون الجنة يطاف عليهم بالأواني الذهبية الثمينة، و بأكواب تتصف بالصفه ذاتها، لتتم نعمة كل من الأكل و الشرب بآنيتهما المخصصة لهما، فتلك صحاف للمأكل، و هذه أكواب للمشروب، فإذا حصل الاشباع في الأطعمة و الأشربة، و هما من مظاهر الترفه و التمتع، أضيف مختلجات النفس الانسانية فيما تتطلبه من شهوات و ملاذ و طرف، فإذا تكامل ذلك بقيت اللذة الكبرى فيما تتمتع به العيون، فأعطى ذلك لهم لتتم السعادة

(١) الفجر: ٢٧ - ٣٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٧

عندهم ماديا و نفسيا و حسيا، و لئلا يتغصص عليهم هذا المناخ في إشاعته الحبور المتواكب: كرموا بالأنباء عن إدامة ذلك و بخلودهم معه. و هنا تشریف لهم بالالتفات في الخطاب، فبعد الحديث عن نعم الجنة، أنبأهم على جهة التأكيد بأنهم خالدون في هذه الجنة خلودا لا- فناء معه، و ذلك قوله تعالى: يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوَابٍ فِيهَا مَا تَشْتَهُهِ النَّفْسُ وَ تَلْمِذُ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١).

و يستمر الحديث عن الجنة في مجالين:

الأول: مجال استحقاقها بالأعمال الصالحة و توفيق الله تعالى.

الثاني: بإيجاب أطايب الجنة بما فيها من فواكه كثيرة متنوعه، و ترغيبا فيها، و تسليه عن الحرمان الذي أصاب بعضهم في الحياة الدنيا، و تعويضا عن الفقر و الفاقة حتى مع الغنى في الدنيا، إذ جميع ما في الدنيا زائل متقلب متغير، و ذلك النعيم ثابت مستقر متجدد: وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣).

هذا مشهد من مشاهد المتقين يوم القيامة، أما المجرمون الذين تمكنوا في الاجرام فيصور حالتهم قوله تعالى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا- يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَ نَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧).

يا لها من مرارة قاتلة، و حياة مزعزعة مرعبة، خلود في العذاب بلا- انقضاء، و شدة في وقعه مع الخذلان، و ارتكاس بأعماقه إلى الحضيض، لا يقف لحظة، و لا يفتر برهه، انقطعت حجتهم فلا خلاص، و خرست ألسنتهم فلا عتبي، و قد كان ذلك نتيجة ضرورية لما قدمت أيديهم من أوزار، فهم الظلمة بكل تأكيد، و لا يلومون الظالم إلا نفسه، حتى إذا بلغ العذاب أشده، و التقت حلقتا البطان،

نادوا من الأعماق بكل خيبة و ذل و استكانة يا مالِك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ إِنَّهُ الْهُوانُ أن يتمنوا الهلاك لا النجاة، و الموت لا الغوث، و الإبادة لا العون، فلا أمل لهم في نجاة، و لا رجاء في استغاثته، و لا طمع في إعانته، و لكنه هول الصدمة، و تجاوز العذاب حدود الطاقة، و يجيء الرد مفحماً بكل استهانة، هائلاً مع الاستخفاف، مدوياً بلا رحمة: إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٨

ثم يتجه الخطاب بالتوبيخ للمعرضين و لأضرابهم ممن انتهى بهم المطاف إلى هذا المصير المؤلم نتيجة الإصرار على الخطأ، فهم يكرهون الحق عن قصد، و هم يحاربونه عن عرفان، لا يشتبهون في إدراكه، و لا يخطئون في تمييزه عن الباطل و لَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ غريزة جبلت عليها طبائعهم، لأنه يساير رغباتهم.

ثم يعصف بهم التحذير على وجه الإنكار، و التعجيز على جهة المقابلة، و التحدى بأحكام التدبير أم أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) فكيدهم و مكرهم يطوح به تدبير الله و إبرامه، لأن مكرهم عاد و بالـ عليهم بما جنوا من ثمار الخيبة و الخسران، أما كيد الله و إحكامه للأمر فقد كان صاعقه انتهت بهم إلى الإخفاق فيما أعدوه لمحاربة الله و رسوله، فقد طار هباء سرهم و نجواهم، فلا حديث النفس بخاف عليه، و لا التناجي بغائب عنه:

أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ بَلَى وَ رُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠).

فهناك رصد يتعقب دقائق الأمور و جزئياتها، يترجمه الكرام الكاتبون، بالتقاط الصور الواقعية و المتخيلة من الأحاديث و النيات و الأعمال، فتحصى بأمانة لتعرض على الله، فيتقاصر حينذاك الجهلة، لأنهم أمام السميع العليم.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢١٩

### «تنزيه الباري و مسك الختام»

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَ تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا يَبْيُنُهُمَا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ لَيْسَ سِوَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَ قِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩).

حينما انتهى موضوع الآيات السابقة برصد الله لنجوى القوم و أسرارهم، اتجهت آيات الخاتمة من السورة إلى الكرة على الموضوع من طرف آخر، و بوحى جديد، يتجه إلى تنزيه الباري و تقديسه عن الذرية و النظر، و استعملت الآيات كلمتي «سبحان» و «تبارك» في مجال تعداد مظاهر سلطانه، و معالم مختصاته، مؤكداً على السماء و الأرض في ربوبيته لهما تارة، و ألوهيته فيهما تارة أخرى، و ملكيته لهما ثالثاً، و ينتهي المطاف بالايحاء إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن يعرض و يصفح و يتركهم اتقاء شرورهم، و يعدهم بما سوف يعلمون من التهديد القاضى بصدق الوعيد.

و تتراصف هذه الآيات بيانا لتضفى اسمى صيغ التمجيد الخالص لله تعالى، فقد نفت الشريك، و أثبتت الوحداية، و أغلظت في وعيد هؤلاء اللاعيين، و باركت من له الملك و عنده علم الساعة و أمرها، و إليه مرجع العباد، و تقرير اختصاصه بكل ذلك دون سواه، فهو شفاعته إلا- بإذنه، و لا- خالق سواه، و جمعت بين الوعيد و التأجيل و الاعراض فعادت قطعة ذات بعد بلاغى متميز في العرض و الاسلوب و التصوير.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٠

و لقد أكدت هذه الآيات من الحقائق ما لا يحيط بتفصيله نسق آخر من البيان، أو نمط من فن القول، و أول هذه الحقائق إثباتا جاءت

عن طريق نقض النقيض في البرهان: قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١).

فقد ربطت الآية بين الرسول و العباد، لنفى ما يزعمون لله تعالى من ذرية، إذ لو كان لله ولد، من باب الفرضيات، لكان أحق الناس بعبادته هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم لأنه قريب من الله، و حقيق بأن يعلم من الله ما لا يعلمه غيره، و لما كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم قد تمحض بعبادته و عبوديته لله وحده لا شريك له، فقد نقض زعمهم بدليل دفع هذا الزعم من قبل المقربين إلى الله.

قال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) «و هذا الكلام وارد على سبيل الفرض و التمثيل لغرض: و هو المبالغة في نفى الولد و الاطناب فيه، و أن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، و ذلك أنه علق العبادة بكونه الولد و هي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً- مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة و العبادة و في معنى نفيها على أبلغ الوجوه و أقواها» (١).

و قد اتكأ الألوسى (ت: ١٢٧ هـ) على ما أورده الزمخشري و أضاف له: «و هو الطريق البرهاني و المذهب الكلامي فإنه في الحقيقة قياس استثنائي استدلال فيه بنفى اللازم البين انتفاؤه و هو عبادة صلى الله عليه و آله و سلم للولد على نفى الملزوم، و هو كينونة الولد له سبحانه» (٢).

و ذهب الطباطبائي (ت: ١٤٠٣ هـ) في المعنى إلى أنه: «إبطال لألوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس، و التعبير بأن الشرطية دون لو الدالة على الامتناع- و كان مقتضى المقام أن يقال: لو كان للرحمن ولد- لاستنزاهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف.

و المعنى: قل لهم: إن كان للرحمن ولد و لا كما يقولون، فأنا أول من يعبده أداء لحق بنوته و مسانخته لوالده، لكنى أعلم أنه ليس، و لذلك لا

(١) الزمخشري، الكشاف: ٣/ ٤٩٧.

(٢) الألوسى، روح المعاني: ٢٥/ ١٠٤.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢١

أعبده لا لبعض و نحوه» (١).

ثم انتقل سبحانه إلى عوالم التنزيه سبحانه ربّ السماوات و الأرض ربّ العرش عمّا يصفون (٨٢) من نسبة الولد تارة، و الشريك تارة أخرى، إذ من دبر الكائنات العلوية و السفلية و استولى على العرش، فأمسك بأمره علل الابداع، و نظام الخلق، لا ينبغي إلا أن يكون متفرداً بملكه و ربوبيته، أما الخوض بالباطل جهلاً- و لعباً و لهواً فيقابل بالأعراض حيناً و بالوعيد حيناً آخر فمذرهم يخوضوا و يلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الذى يؤعدون (٨٣). و ذلك يوم القيامة الموعود فيه لهم بالاهانة و الصغار و الإذلال و العذاب الأليم. أما الواحد القهار فهو إله واحد لا شريك له في كائناته كافة: وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤). فمن أحق منه بالعبادة- إذن- في الأرض و السماء، «و إنما كرر لفظ إليه لأمرين:

أحدهما: التأكيد ليتمكن المعنى في النفس.

الثاني: لأن المعنى هو إله في السماء يجب على الملائكة عبادته، و إله في الأرض يجب على الأنس و الجن عبادته» (٢).

هذا الإله الواحد: حكيم، في أفعاله و تقديره و تصريفه للأمر، و عليم بمصالح عباده و مخلوقاته و الكائنات جمعاء، و في لفظي: الحكيم و العليم، دلالة على وحدانيته لأن الربوبية تقتضى الحكمة المطلقة، و العلم الذى لا يحد.

و تبرز مظاهر التعظيم بالتبارك، و مظاهر التدبير بالملك، و مظاهر الاختصاص بعلم الساعة، و مظاهر الربوبية بالابداع الثاني: وَ تَبَارَكَ

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥).

وهي - جميعا مضافا للعلم والحكمة - مؤشرات بارزة تصرخ بتوحيده بالربوبية، وهو مما يناسب تنزيهه عن الأنداد. أما المعبودون سواء على وجه العموم، أصناما كانوا أو ملائكة أو

(١) الطباطبائي، الميزان: ١٢٥ / ١٨.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ٥٨ / ٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٢

بشرا أو سوى ذلك فيمثلهم قوله تعالى: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦).  
والآية مصرحة بوجود الشفاعة «١».

لأن نفيها عن آلهتهم يعني إثباتها لمن شهد بالحق، وهو توحيد الله عن إيمان و يقين بالاستثناء الوارد في الآية. «وقيل في معنى الآية وجهان:

أحدهما: أن المعبودين من عيسى و من مريم و الملائكة و عزير عليهم السلام، و لا يملك الشفاعة عند الله تعالى أحد منهم في أحد، إلا فيمن شهد بالحق، و أقر بالتوحيد، و بجميع ما يجب عليه الاقرار به.

و الوجه الآخر: أن الذين يدعون من دون الله من البشر و الاجسام و جميع المعبودات لا يملك الشفاعة عند الله إلا من شهد بالحق منهم، يعني عيسى و عزيرا و الملائكة عليهم السلام، لا يملكون الشفاعة عند الله تعالى إلا إذا كانوا على الحق شاهدين به، معترفين بجميعه، فإنهم يملكون الشفاعة عند الله، و إن كان لا يملكها ما عداهم من المعبودات.

و الفرق بين الوجهين: أن الوجه الأول يرجح الاستثناء فيه إلا من تناوله الشفاعة، و في الوجه الثاني يرجح الاستثناء إلى الشافع دون المشفوع فيه.

فإن قيل: أي الوجهين أرجح؟ قلنا: الثاني، و إنما رجحناه لأن المقصد بالكلام أن الذين يدعونهم من دون الله تعالى لا يملكون لهم نفعا كما قال تعالى في مواضع إنهم لا ينفعونكم، و لا يضررونكم، و لا يرزقونكم، و وضع الكلام على نفي منفعة تصل إليهم من جهتهم، و لا غرض في عموم من يشفعون فيه أو خصوصه.

و لما كان فيمن عبده من نبي أو ملك من يجوز أن يشفع فيمن تحسن الشفاعة له، و جب استثناءه حتى لا يتوهم أن حكم جميع من عبده واحد، في أنه لا تصح الشفاعة له ممن لم يكن كافرا و لا جاحدا.

و يترجح هذا الوجه من جهة أخرى، و هي أنا لو جعلنا الاستثناء

(١) الطباطبائي، الميزان: ١٢٧ / ١٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٣

يرجع إلى من يشفع فيه لكان الكلام يقتضي أن جميع من يدعون من دون الله يشفع لكل من شهد بالحق، و الأمر بخلاف ذلك، لأنه ليس كل من عبده من دون الله تعالى تصح منه الشفاعة، لأنهم عبدوا الاصنام، و بعض عبد الكواكب و الشفاعة لا تصح منها، فلا بد من أن تخصص الكلام و تقدره هكذا.

لا يملك بعض الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا فيمن شهد بالحق، فعود الاستثناء إلى الشافعين أولى حتى يتخصص «١».

ثم يبرز تقرير اعتراف المشركين بالخالق المبدع الفرد: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧).

فهم يدركون حقيقة أن الاصنام لم تخلقهم و لم تبدعهم، و إنما صورهم و خلقهم الله تعالى، لهذا عنفهم أشد التعنيف لئلا يكرههم الحق

مع عرفانه، و انقلابهم من عبادته إلى عبادة سواه وَ قِيلَهُ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)، على وجه الإنكار عليهم، و التأكيد أنهم ليسوا بمؤمنين حقا.

و قرئت (قيله) بالحركات الثلاث، و أوردوا في ذلك عدة وجوه «٢».

و اختار الزمخشري: «أن يكون الجر و النصب على إضمار حرف القسم و حذفه، و الرفع على قولهم: أيمن الله، و أمانة الله، و يمين الله، و لعمرك، و يكون إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ جواب القسم، كأنه قيل:

و أقسم بقيله: يا رب، أو قيله يا رب قسمي: إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، و الضمير في وقيله لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و إقسام الله بقيله رفع و تعظيم لدعائه و التجائه إليه» «٣».

و تختتم السورة بالدعوة السلمية مع الوعيد: فَاصْبِرْ فَمَا يَخْرُجُ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)، و هو أمر بالاعراض عنهم، إذ لا أمل بصلاحهم،

(١) المرتضى، أمالي المرتضى: ٢ / ٣٦٦ و ما بعدها.

(٢) ظ: الطوسي، التبيان: ١٩ / ٢٢٢ + الزمخشري، الكشاف: ٣ / ٤٩٨.

(٣) الزمخشري، الكشاف: ٣ / ٤٩٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٤

و سلام متاركة إذ غلبهم الجهل المركب، و وعيد بما سيلاقون يوم القيامة، و تهديد هائل بما سوف يعلمون.

و في التعبير القرآني هذا إشعار بتعزية الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم و تسليته، بما فيه الرضا و الغبطة.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٥

## الفصل الثاني «التفسير التسلسلي التفصيلي»

### تفسير فاتحة الكتاب

#### إشارة

تمهيد:

١- بغد تاريخي.

٢- عرض تفسيري.

٣- بخت لغوي.

٤- لمحات فنيّة.

٥- إشارات بلاغية.

٦- الصياغة الدلالية.

٧- من فقه القرآن.

٨- بين الزمان و المكان.

٩- إحصاء بيلغرافي.



١٠- أضواء تربوية.

١١- بحوث روائية.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٧

**تمهيد:**

أدب الخطاب، وأسلوب الثناء، وفلسفة الاتجاه، وتعليم الدعاء، سلسلة متماسكة الحلقات في آيات فاتحة الكتاب. ومظاهر الخضوع والتعبد، وقدسية العبادة النوعية، ومسالك الاستعانة الخالصة، رصد متميز في تعليمات هذه الفاتحة يتمثل هذا النحو من التعليم، وذلك الاتجاه في التدريب، بظواهر الآيات، فهي تتبدى بالثناء العظيم على الله تعالى، وتؤكد على انفراديته بصيغ الكمال المطلقة، وتحرر تنزيهه عن جميع معالم النقص، وتوحى بتملكة أزمنة الكائنات المرئية وغير المرئية، من أنس وجن وملائكة وطاقات وجمادات ونباتات وما لا نعلم به، وتحدث عن سيطرته على العوالم الثابتة والسيارة والمتحركة من كواكب ونجوم ومجرات وأفلاك ضمن نظام دقيق في الموازين، ووفق دساتير معينة هائلة في الأقيسة والمسافات، وفي أرقام محسوبة في الأوزان والكتل والمقادير، يتصل كل ذلك بالانتهاء إليه في الأمور كلها الماضية والحاضرة والمستقبل في الحياة الدنيا، وفي الآخرة الباقية الخالدة، تشير بوضوح إلى طلب الهداية الجماعية منه نحو الطريق الواضح، والنهج المعتدل دون زيغ أو انحراف، ذلك هو الصراط المستقيم، صراط من أنعم عليهم الله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، لا المتخبطين في متاهات الضلال، ولا المترددين في غياهب العمى، فمن استحق الغضب والسخط والبعد عن حضيرة القدس، إيغالا في الكفر أو إمعانا في العناد. وفي هذا الضوء نجد في نظم هذه السورة، وجمال تأليفها، و تراصف جملها، و ترابط فقراتها، و سمو أهدافها، و سماح مقاصدها، ما يضيف

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٨

عليها طابعا خاصا متميزا، يمتد بجذوره عبر الأصول الأولى للرسالة الإسلامية، فترصده زخما هائلا متلاظما من خلال العرض التفسيري الذي نحاوله على نحو من التفصيل في المباحث الشاملة، و يبيجاز لا ينبئ عن عي، فقد لمست فيها متسعا للقول في تعدد المباحث، و مجالا للاختصار في عرض عائديتها ليدل البحث عن المراد يبسر حتى نتوصل إلى الحقيقة بمرونة و سماح. و ما توفيقى إلا بالله العلي العظيم، عليه توكلت و إليه أنيب و هو حسبنا و نعم الوكيل.

**بعد تأريخي:**

فاتحة الكتاب ردّ إيجابى على ضبايئة معقدة، التهمت القرون المتطاولة في القدم، و هى تطرح إشكالية زمنية متأصلة الولوج في أعماق التأريخ السحيق، و هذا الردّ على ذلك الطرح كان معالجة بوجهة نظر إلهية تتعد عن الطرح البشرى لأنها من صنع السماء. هناك قضية ذات بال عبر الأجيال تجمعها مهزلة تعدد الآلهة في المنظور البشرى الساذج، تبتتها حضارات بائدة، و انتهجت حكومات عبيدة، تجمعها الوثنية، و تفرّقها المصلحية، إلا- أنها متحدة اتحادا عجيبا في الصنمية المتعددة الأبعاد و الظروف و المستويات و الكائنات، فالكلدانىون و الآشوريون جيل من الناس تعهدوا الأصنام منذ عهد مبكر، و الآشوريون و البابليون لجأوا للكواكب و أصناف النجوم فيما بعد، و الآراميون و الفينيقيون في خليط من أوثان و ظواهر سماوية، الكهنوت الفرعونى في آلهة معنوية و مادية تمتد في حكم السلالات، و اللاهوت الذغريقي و اليونانى و الرومانى يتقلب بين الجمال و الخمر و الخير و القمر و المطر و الزواجر و البحار و الموجودات الأرضية، و آلهة الفينيقيين و البوذيين و الهندوس و المجوس في تركيب مزدوج يحتضن النور و الظلمة و الخير و الشر، و

أعضاء الانسان، و المخلوقات حتى الكائنات، و هكذا دواليك.

بلحاظ ما تقدم تلمس مزيجا من التردد و الحيرة و الضلال يخرق الكيان الانساني فيهوى به في ظلمات عقائدية لا أول لها و لا آخر، و تفتح عيناك على طائفة كبيرة من الطقوس و الأساطير و الخرافات و الموضوعات

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٢٩

تفرضها طبيعة الجهل المطبق من جهة، و تحتمها ملامح غيبية أولية لدى الانسان من جهة أخرى.

الجهل و الحيرة يتكران هذا الخليط المتناقض، و التعلق ب حياة غيبية متصورة تستدعى تفكيراً آخر بعوالم ما بعد الموت، قد يدعو إلى أوهام لا حدود لها، و قد يقود إلى الوحدانية التي لا مفرّ منها، تكثفت تلك الخصائص بصنمية العرب و جاهليتهم، عكفا على الأوثان، و عبادة للأجرام السماوية، و رضوخا إلى الأصنام المحلية و الاقليمية، عضد ذلك عبادة المجوس للنيران، و الشرك الظاهر و الخفى لدى محرّفي الديانات الأولى في دعوى عزير ابن الله عند اليهود، و المسيح ابن لله عند النصارى، أو هو ثالث ثلاثة: الأب، الابن، روح القدس.

هذا الانقباض المرفوض في أبعاده الاشرائية، و تلك الدعوات النشاز في العبادة الواهنة، كان لا بد لها أن تتلاشى و تضمحل و لو جزئيا، في انبعاث و إحياء جديدين، لتنهار تلك الظواهر الفجة العقيمة، لتحل محلها عقيدة التوحيد، يدعها نظام مثالي يستلهم الخالق المبدع المصور الذي ليس كمثل شىء، فكان الداعي لذلك القرآن في بليغ آياته، و محكم دعواته و عظيم تليغاته، يحمله الرسول الاعظم صلى الله عليه و آله و سلمّ شعلة وهاجّة لا- تنطفئ و جاء الطرح القرآني علاجا لكل الظواهر السلبية في العالم، فاستبعد التعصب الصاحب، و رفض الزعم المتناقض، و دحض المنطق الهزيل، و حمل على القول الرخيص، و قنّد الدليل الباهت، و أوغل في حجج علمية و عقلية و عملية ثابتة، بديهية لا تحتاج إلى برهان، و منطقيّة يعضدها الدليل، و استقرائية ثبتتها التجارب، كل أولئك بما يوافق الفطرة الانسانية متجاوبا مع الغريزة الطبيعية الثاقبة، دون حاجة إلى الالتواء في الاستدلال، أو التعتت في الطرح، أو الغوغائية في الزعم، بل هو متجانس عضويا مع حقائق الأشياء، و مترابط مع صفات الذات الانسانية المجردة، فحمل على تلك المفاهيم المريضة، و جردها مما يحيطها من هالات التقديس المصطنع، ليطلّ بالحقيقة ناصعة مشرقة، لا يحجبها ستار، و لا تدبجها بهرجة أو ترويح أو أقنعة، بل هي هي كما يريد العقل السليم و الذائقة التلقائية.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٠

إن الانبثاق القرآني الهادر يوحى بأكثر من ملحظ بألويته التوحيد في تأريخ البشرية، و الدليل الاستقرائي في الآثار و الحفريات و قطع الفخار تثبت هذا التوجه في التوحيد، و القرآن يؤكده بدقّة متناهية في عالم الذرّ، قال سبحانه و تعالى: **وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) «١».** و هذا ما يقطع به القول بأن التوحيد هو الأصل المتبع، و أن الاشراك هو الظاهرة التبعية المتأخرة، و قد غدّى الرسل و الأنبياء حقيقة التوحيد بالدلائل و المعجزات، و أغنوا آفاقها بالحجج و البراهين، فنجوا من نجا عن بينة، و هلك من هلك عن بينة.

و تأبى البشرية بطغيانها أن تترك ضلالها، فابتعدت عن حضيرة التوحيد، و نأت عن مرتكزات العقل، فنشأت النزعات التائهة في عبادة ما لا يضّرّ و لا ينفع، و كان التخبط ممعنا في ظلمات العقائد الفاسدة، و الاشراك شائعا في أشتات العالم.

و من هنا نشأت الحاجة الماسية إلى برنامج إلهي متأصل، يدفع بهذا الانسان التائه إلى شاطئ الأمان، و يأخذ بيده إلى مصادر النور و الوعي، و يضع نصب عينيه الحقائق مجردة، و يعطيه الحرية في الاختيار، و يفيض عليه اللطف في التوفيق و الإنابة و الهداية، و يسبغ عليه نعمه ظاهرة و باطنة في العقل و الرشاد و الاخبات، يجمع له الافاضة الإلهية في روافدها المتجددة، و يحذره من الانحدار إلى الهلاك و التردّي، و يضمّ إليه التفكير الحرّ من أطرافه، دون إضافة من كهنوت، و لا- تحريف من حاكمين، و لا استعانة بجبروت، و إنما هو الروح الآلهي.

و كان الصراع بين القوى الايمانية الراشدة، و القوى الطاغوتية المتألهة، يوحى بحتمية المجابهة الطويل الامد، و كانت المجابهة طيلة التأريخ، و لكن الله هو المنتصر، و انتقامه هو القوى المطرد: عذاب استئصال لا يبقى و لا يذر، و هو يرى طوفان عالمى لا عاصم معه،

(١) سورة الأعراف: ١٧٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣١

و خسف و زلزلة و ريح سوداء، و طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، و كانت الحرب مع كل هذا قائمة بسفك الدماء، و انتهاك الحرمات، و ازهاق الأرواح، و استعباد الناس، و كان لا بد أن تكون كلمة الله هي العليا، و كلمة أعدائه هي السفلى، و كان القرآن الكريم بداية حياة توحيدية جديدة، و حياة عقلية متطورة، و خاتمة رسالات رائدة، تدرأ بتلك المخاريق جانباً، و تدفع بشبهات الضلال إلى مزابل التأريخ، و لم يكن ذلك بالأمر الاعتيادى الارتجالى، و إنما جاء نتيجة منطقية لكبح الضلال من جهة، و رفع شعار لا إله إلا الله من جهة أخرى، و كانت فاتحة الكتاب البرنامج العام لهذا المنظور.

### عرض تفسيري:

كان البدء بهذه السورة المباركة ب بِسْمِ اللَّهِ خَيْرِ الْأَسْمَاءِ، و الباء للاستعانة في هذه الصياغة، و في كل صيغة على هذا النحو في علم النحو، و الاسم لفظ مشتق: إما من السمو أو السمة، و الأول هو الشائع بين اللغويين بمعنى العلو و الرفعة، أو التنويه و الارتفاع. قال ابن منظور (ت: ٧١١ هـ) «سما الشيء يسمو سموا فهو سام: ارتفع» (١) و مذهبه الجوهري (ت: ٣٩٣-٣٩٨ هـ) أنه مشتق من سموت لأنه تنويه و رفعة» (١).

و يميل أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١ هـ) إلى المعنى الأول لأنه: مشتق من السمو و هو الرفعة (١).

و المعنى بملاحظة ما سبق واحد، و إن تعدد الاشتقاق أو اختلف فيه، و ذلك: أن المعنى حينما يتبادر إليه ذهن السامع لدى سماع اللفظ، فإنه يرتفع به فيخرج من الخفاء إلى الظهور، و من الابهام إلى البيان، و هذا التعبير جار على سنن العرب في استعمالها، و لما كان نزول القرآن بلغه العرب كان تعبيره من جنس ما يعرفون، فكانت الاستعانة بالباء في ضوء ما يتخذون حتى في جاهليتهم، و شأن صحيفة المقاطعة للنبي صلى الله عليه و آله و سلم مشهور، فقد بدءوها باسم الجلالة، فأكد القرآن هذه الحقيقة، قالوا «باسمك اللهم» و قال تعالى بِسْمِ اللَّهِ فكانت شعارا و جنة لدى الابتداء و الافتتاح لكل أمر

(١) ابن منظور/ لسان العرب/ مادة: سما.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٢

مهم، و لكل شأن ذى بال، لأنه جوهر البركة و الرحمة و النعمة، و بقية الغيظ الالهى و «الله» اسم لذات البارى عز و جل، لا يشاركه فيه أحد، و لا- يطلق على أحد، و لا ينطبق على أحد، لانصرافه إليه بلا قرينة، و الانصراف تبادر ذهنى عفوى يتأتى فوراً، و التبادر علامة الحقيقة عند الأصوليين و هو فيما يبدو لفظ خاص مرتجل جامد ليس بمشتق، و قيل إنه مشتق من الإلهة بمعنى العبادة، أو المتأله بمعنى التبعيد، أو من الوله لأن القلوب توله نحوه، و لا دليل على أحد منها كما سيأتى.

و الذى عليه المحققون أنه جامد لا اشتقاق به، لأنه لا يستعمل و صفاً، و لأنك تصفه و لا تصف به شيئاً، و ليس فى لغة العرب لفظ موضوع للذات المقدسة مختص به غيره، و هو لا يثنى و لا يجمع، و ليس هو اسم جنس كما ستراه فى البحث اللغوى فيما يأتى.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ و هما اسمان مشتقان من الرحمة، و هى النعمة التى يستحق بها العبادة، و هما صيغتان موضوعتان للمبالغة (١).

و ذهب أغلب المفسرين، و طائفة من اللغويين: أن صيغة الرحمن ترد للمبالغة فى الرحمة. و أكثر العلماء: أن الرحمن اسم مختص بالله

عز و جل لا يجوز أن يسمى به غيره «٢».

و الرحيم: إما صفة مشبهة، أو صيغة مبالغة، و من خصائص هذه الصيغة أنها تستعمل عادة في الغرائز و اللوازم غير المنفكة عن الذات الإلهية: كالعليم و التقدير ... و الفارق بين الصفتين: أن الرحيم تدل على لزوم الرحمة للذات، و عدم انفكاكها عنها، و أن الرحمن تدل على ثبوت الرحمة ليس غير «٣».

و يبدو اختصاصه تعالى بالرحمن دون الرحيم، للدلالة الإيحائية أن رحمته الفياضة وسعت كل شيء، لعدم تعلقها بشيء يفيدها الخصوص، فالرحمن تفيد العموم بهذا اللحاظ، بخلاف الرحيم المتمدية بالباء في

(١) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٢٨ / ١.

(٢) ظ: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٠٦ / ١.

(٣) ظ: الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٥٧.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٣

الاستعمال القرآني كقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ «١» بخلاف الرحمن التي اتخذت منزلة اللقب المختص بالله فلا تطلق إلا عليه حصراً، و تكرارها بهذا الملحظ في الاستعمال القرآني عناية بهذا المراد، ففي سورة مريم وحدها بلغ مجموع ورود لفظ: الرحمن، في ستة عشر موضعاً، و كأن ذلك إشارة موحية بالتأكيد على شمولية هذا المعنى له، و اختصاصه به وحده.

أ- قال تعالى: قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا (١٨) «٢».

ب- قال تعالى: يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) «٣».

ج- قال تعالى: إِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا «٤».

د- قال تعالى جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) «٥».

و عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فيما يروى عنه أنه قال: «و الله إله الخلق، الرحمن بجميع العالم، الرحيم بالمؤمنين خاصة» «٦».

و يبدو منه أن الرحمن صفة عامة تشمل المؤمن و الكافر، و أن الرحيم صفة خاصة تعم المؤمنين وحدهم، و ذو الصفة العامة الشاملة هو نفسه ذو الصفة الخاصة، و كلاهما ينبعان من ذلك الرافد الغزير بالانعام و الإفضال، لينعم الناس بالخير العميم في إفاضة تكوينية، و أخرى تشريعية تكوينية، يستوجبان مع الاستمرار حيناً بالفيض على الناس، و التخصيص حيناً آخر، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

و لعل ما روى عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يعود إلى هذا

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) سورة مريم: ١٩.

(٣) سورة مريم: ٤٤.

(٤) سورة مريم: ٥٨.

(٥) سورة مريم: ٦١.

(٦) العياشي: تفسير العياشي ٢٢ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٤

المعنى،

يقول الامام الصادق «الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم اسم عام بصفة خاصة» (١)

قال الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) «ووجه عموم الرحمن بجميع الخلق هو إنشاؤه إياهم، وجعلهم أحياء قادرين، وخلقهم فيهم الشهوات، وتمكينهم من المشتهيات، و تعريضهم بالتكليف لعظيم الثواب، ووجه خصوص الرحيم بالمؤمنين: ما فعل الله بهم في الدنيا من الألفاظ التي لم يفعلها بالكفار، و ما يفعله في الآخرة من عظيم الثواب، فهذا وجه الاختصاص» (٢). و هذا التعليل يتناسب مع القول بإفادته الرحمن معنى العموم و الشمول، وإفادته الرحيم معنى الخصوص و الاقتصار، و الله العالم.

٢- و تتجه السورة بعد البسملة إلى الحيثية الأولى التي تعنى بتمام الحمد، و مجموع إفاضاته الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) لا تصافه- وحده- بالربوبية المطلقة، و السيطرة على العالم، لتربيته الكائنات كلها، و من له الكمال المطلق، فله الربوبية المطلقة، و إذ اختص بها فقد اختص بالحمد المطلق أيضا، و هذا الحمد هو كلّي الثناء له في ذاته لأنه المبدع المنعم في إيجاد الخلق كله بدقه و إحكام فلا تفاوت في خلقه، و لا تأرجح في تقديره، و من أثقف هذه العوالم الهائلة بهذه الحكمة المتناهية، حقيق باتجاه العوالم إليه ربًا واحداً، لا تدرك ماهيته، و ليس كمثله شيء، و لا توزن عظمتة فهو ربّ العالمين و كفى.

و بهذا السياق التحقيقي يتجه يوسف عليه السلام فيما حكاه تعالى عنه:

يا صاحِبِ السُّجُنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) (٣).

و تتوالى معانى الرحمة فنصب انصبا، لتؤكد مرة أخرى في «الرحمن الرحيم» السمة البارزة في تلك الربوبية، و تتجدد الصلة القائمة بين العبد و ربه، صلة الرعاية المستمرة، و الرحمة المتدفقة، و الرقة المتناهية، و الرعاية من الله لطف، و الرحمة منه منّ، و الرقة إحسان و هو المراد بها عند

(١) الطبرسي: مجمع البيان: ٢١ / ١.

(٢) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن: ٢٩ / ١.

(٣) سورة يوسف: ٣٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٥

المفسرين، إذ لا- يوصف البارى برقة القلب و سواه من الجوارح، فهو رقيق بلا- جارحة، و رفته فيض إحسانه الذي لا ينضب، و هو رحيم دون ظرفية لهذه الرحمة، و يضاف ذلك كله بأصنافه الكبرى إلى تربية هذه الكائنات العملاقة لتشكيل كلا متماسكا بانبثاق عفوى، و عمق إرادى فطرى هو الربوبية فحسب، و هى المعنى البديهي و الدليل الاستقرارى، و الحكم العقلى المجرى بوقت واحد للقول بتناول و تعالى الذات المقدسة، لاحاطتها بكل شيء، و عدم إحاطة شيء بها، فلها الخشوع و التوجه، و بها الكمال وحده، قال تعالى وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) (١).

و لك أن تتصور وجودا لا- أول له، و كيانا متراميا لا آخر له، هو حقيقة ثابتة و لكنها فوق حقائق الاشياء، انفردت بالخير و المنح و العطاء، و لا يدرك شأو ذلك، و أكثر من هذا أن الاشرار بالرحمة، و الاتسام بالرأفة، يتضاعف فيشمل أهل الكبرياء و الجبروت و الطغيان كما يشمل أهل الرضا و التواضع و الاخبات، فهو متواتر متوافر منهم يتفياً ظلالة القريب و البعيد، و ينعم بهجته المؤمن و الجاحد، فهو يتقلب إغلا في المضاعفة صفوا خالصا للبشرية جمعاء، إلا أن صفوه الحقيقي الخالص إنما يكون لأهل الرضا الخالص من الصفوة المختارة.

٣- و كما امتلك البارى هذه الحياة باستيعاب شمولي، فقد امتلك السلطة من أطرافها كافة يوم الدين، فهو وحده مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

(٤) و هو اليوم الآخر، يوم الجزاء و الحساب، و هنا تتجلى الكبرياء و الآلاء، و تكمن العظمة و الجبروت، فكما تصرف سبحانه في الخلق الأول تصرف المبدع الحكيم، فهو المتصرف في اليوم الآخر تصرف المالك المقتدر الجبار، و المرء بين يومين لا ثالث لهما:

يوم العمل و يوم الجزاء، العمل في الحياة الدنيا، و الجزاء في الحياة الأخرى، و عليه يحمل قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اليوم عمل و لا حساب، و غدا حساب و لا عمل» (٢). و لا يراد بهذا اليوم العَدَّ الزمى ما بين المغرب و المشرق لدى طلوع الشمس

(١) سورة طه: ١١١.

(٢) ظ: ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة: للامام على عليه السلام.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٦

و غروبها، و لا الليل و النهار فى يوم واحد، بل المراد زمان الجزاء كله باستطالة آتاته و تعدد أوقاته، و هو يوم له مشاهدته التى لا تحد بزمن، و به مواقف يتلاشى معها الزمان، و عليه امتدادات يتسع معها الوقت، و حسابه ليس كحسابنا، و توقيته ليس كتوقيتنا، بل هو كما عتبر عنه القرآن: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ» (١). و هذا مجرد اليوم عند الله، فما قولك بيوم القيامة الذى تتواكب أزمانه لحساب الخلائق أجمعين، فلو كان يوما محدودا بالطلوع و الغروب، أو المشرق و المغرب، أو النهار فى مقابل الليل، أو الليل و النهار معا لما كان لهذا التهويل و العَدَّ و الحصر و التفاوت و التعظيم أى مدرك زمنى متطاوّل، و لكان يوما من الأيام يذهب و لا يعود كما تذهب أيامنا فى الحياة الدنيا بددا، و حسبك فى نموذج قوله تعالى «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (٤) (٢).

و هذا اليوم بشدائده و أحكامه، و كثرة غرائبه و عجائبه، و هو مطلع و رؤيته، من أركان الشريعة الغراء، فهو أصل من أصول الدين إلى جنب التوحيد و النبوة، و هو من الغيب الذى آمننا به تصديقا و إذعانا، إذ لا تستقيم العقيدة الحقّة إلا بالايان به إيماننا مطلقا، لأنه من مظاهر العدل الالهى من جهة، و مرصد من مرصداً الاعجاز الخلقى تارة أخرى، و مرقب من مراقب الملك الالهى المطلق، الدائم، الأبدى، السرمدى.

فلا غرابه أن ينظر إليه الاستفهام التعجيبى مكررا و متواترا فى قوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)» (٣). لأن ملك ذلك اليوم هو الملك الحقيقى الثابت الذى لا يحول و لا يزول، فهو ليس من سنخ ما نملك فى التصرف الضيق المحدود، فليس للخلق جميعا فى ملكهم إلا حق الاختصاص المجرّد ما داموا أحياء، فى معنى اعتبارى سخره الله تعالى لتنظيم شؤون الحياة، و استثمار الأرض، و استقرار الكون، فهو إباحة بلطفه

(١) سورة الحج: ٤٧.

(٢) المعارج: ٤.

(٣) سورة الانفطار: ١٧-١٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٧

و مَنه فى التصرف، فإذا توفانا الله عاد إرثا لسوانا، فهو ملك باعتبار وضعى لتصريف الأمر، لا بالمعنى الحقيقى بعد فناء الاشياء، أو موت الاحياء، و تلاشى الملكيات.

٤- و تنطلق مؤشرات التوحيد الخالص باختصاص الله وحده بالعبادة و الاستعانة، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) و ذلك بقصر العبادة له، و حصر الاستعانة به، و العبادة و إن كانت تمثل أقصى غاية فى الخضوع و التدلل و الاستكانة، و تعنى ذرة الطاعة و الانابة و الانقياد، إلما أنها هنا تمثل أسمى مظاهر التحرر و الانعتاق، و تعنى أنبل سبل الحرية الانسانية فى فهم مزدوج، فبعد أن كان الانسان مكبلا- بقيود العبودية التائهة بين الاصنام و الاشخاص و الخرافات و الأساطير، و إذا به يتّجه بكل حرية و انطلاق إلى القوة المهيمنة

الخلافة و هي الله، و إذا وازنا بنظره فاحصه بين الأمرين، وجدنا عبادتنا لله و عبوديتنا له، تشكّل سيماء التحرر الأبدى، فهي عبادة تناسب الفطرة، و عبودية تنطلق فيها الحرية و الإرادة، لا سبيل معهما إلى الضلال و الانحراف، و لا سبيل إلى الرزق و الازدلال، و قد كان الإنسان بكل حضاراته بدائيا تستعبده الأوهام و القيم الباطلة، و مملوكا لتخيلات من نسج تفكيره المتأرجح، و إذا به بفضل أوبته لله و عودته إليه، حرّ الضمير و الفكر، ينقاد إلى كبرى الحقائق الناصعة: عبادة الله وحده.

و في قصر الاستعانة بالله- و هي طلب العون و توحيه اختيارا- من قبل الإنسان، إيحاء بطلب استمرارية بقائه قادرا مستطيعا مستعينا به على طاعته و احتياجاته مستقبليا، و ذلك بتجديد القدرة له و شدّ العزم و الأسر لديه مدى حياته المتقلبة في أدوارها و أطوارها. على أن هذه الاستعانة لا تعنى التخلّي عن الأسباب، فالله هو مسبب الأسباب، و لا تلغى دور التسخير البشرى في فضائله المتعاونة، و لكنها تؤكد ربط الأسباب به، و تنهى العلل إليه تعالى، و هذا شيء لا اصطدام بينه و بين تعاون الناس فيما بينهم على البر و التقوى و الايثار، بل هذا من ذاك لأنه بتوفيق من الله، و بدفع تلاحمى بهدايته تعالى.

٥- و تتوأكب في خواتيم السورة المباركة متطلبات الهداية و رجاء الدلالة في الوصول إلى أسلم الطرق و أقومها، فعلا و استمرارا. المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٨

فبعد أن افتتحت السورة بتقديس الله و تعظيمه، و وصفه بأنبل صفاته و كل صفاته نبيلة، و ثنت بتملكه نواصي العالمين جملة و تفصيلا في الدنيا و الآخرة، و قصرت العبادة له و الاستعانة به، اختتمت باسترحام هدايته إلى النهج الصحيح المستقيم، و هذا مما يلائم المناخ الفنّي للسورة، و يحقق الهدف الدنيا فيها، و من دلائل الإعجاز القرآني أن يلتقى الغرض الفنّي بالغرض التشريعي في سياق واحد متجانس، و هو ما حدث بالفعل، قال تعالى: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧).

و هنا تنفرج عن الآية في دلالتها و أشعتها عدة طرق متباينة الاتجاه.

أ- الطريق الآلهي الذي لا انحراف فيه، و لا ضلال معه، و ملاكة الايمان، و العمل الصالح، و التبصير بما شرع الدين، و القصد و الاعتدال في كل شيء، و ذلك طريق الذي أنعم الله عليه من المؤمنين و الشهداء و الصالحين و الصديقين و حسن أولئك رفيقا في الدنيا و الآخرة.

ب- الطريق المنحرف الذي أوغل فيه من عرف الحق و جرده، و عند بالايمان و أنكره، و هو سبيل من باء بغضب من الله و خسران، لأنه شرح بالكفر صدرا، و أضرب عن الحق صفحا، فهو ممن استحق سخط الله و غضبه.

ج- الطريق الضال الذي تردى فيه من تنكب سنن الصواب، و حاد عن نهج السداد تقصيرا لا قصورا، و إن قصر عن المراد به فهو إلى التقصير أقرب، لأن دعاء الحق لا يخلو منهم زمان و لا مكان، فهو- إذن- بسبيل من الضلال دون الالتجاء إلى ركن و ثيق. و الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هو الأول، دين الله الحنيف بأصوله، توحيدا، و شهادة و عدلا، و ولاية، و معادا في يوم القيامة، و بفروعه أداء للواجبات، و توقفا عند الشبهات، و امتناعا عن المحرمات.

هذا هو الطريق الحق دون تخصيص، و إن ورد تخصيص في الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ فهو من باب الانطباق عليه، أو هو من قبيل تطبيق المفاهيم على المصاديق، و هذا جار في القرآن، و منه ما أورد الطوسي:

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٣٩

و قيل في معنى قوله الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وجوه:

١-

إنه كتاب الله، و روى ذلك عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و عن علي عليه السلام ، و ابن مسعود.

٢- إنه الاسلام، حكى ذلك عن جابر و ابن عباس.

٣- إنه دين الله عز و جلّ الذي لا يقبل من العباد غيره.

٤- إنه النبي صلى الله عليه و آله و سلم و الأئمة عليهم السلام القائمون مقامه صلوات الله عليهم، و هو المروى في أخبارنا. و الأولى حمل الآية على عمومها، لأننا إذا حملناها على العموم دخل جميع ذلك فيه «١». و سيمر علينا في «شذرات روائية» شيء من هذا التطبيق إن شاء الله. و لعلّ خير ما نختتم به هذا العرض التفسيري لهذه السورة المباركة ما لخصه الامام على بن موسى الرضا عليه السلام، فقد كشف مفاهيم هذه السورة ببلاغته المعهودة، و فسرها بإيجاز رائع،

فأبان عليه السلام: أن قوله الحمد لله إنما هو أداء لما أوجب عز و جل على خلقه من الشكر، و الشكر لما وفق عبده من الخير. رَبِّ الْعَالَمِينَ توحيد و تحميد له، إقرار بأنه هو الخالق المالك لا غيره. الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) استعطف، و ذكر لآلائه و نعمائه على جميع خلقه. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إقرار له بالبعث و الحساب و المجازاة، و إيجاب ملك الآخرة له كإيجاب ملك الدنيا. إِيَّاكَ نَعْبُدُ رغبة و تقرب إلى الله تعالى ذكره، و إخلاص له بالعمل دون غيره. وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ استزادة من توفيقه و عبادته، و استدامة لما أنعم عليه و نصره. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) استرشاد لدينه، و اعتصام بحبله، و استزادة في المعرفة لربه عز و جل و كبريائه و عظمته. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ تأكيد في السؤال و الرغبة، و ذكر لما تقدّم من نعمه على أوليائه، و رغبة في مثل تلك النعمة. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ استعاذة من أن

(١) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ١ / ٤٢.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٠

يكون من المعاندين الكافرين به و بأمره و نهييه.

وَ لَا الضَّالِّينَ اعتصام من أن يكون من الذين ضلوا عن سبيله من غير معرفة، و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا «١».

إن ما قدمه الامام الرضا عليه السلام من طرح موضوعي أجزه بخلاصة مركزة لمعاني السورة و أغراضها، يوحى بدلالته المركزية النافذة أن السورة بازاء مهمة إرشادية، و تعليمية، و تربوية، و تعبدية من قبل الله تعالى نحو عبادته، و ذلك بإبلاغهم الصيغ النموذجية في الحمد و الثناء و الاقرار و العبادة، و الخضوع و الاستعانة، و الاستزادة و الاستعاذة، لله و من الله و بالله، و بتعبير آخر أن هذه الافاضة تلقين من الله تعالى بالنيابة عن عباده الصالحين في الإلهام و التأدب معه في الغيبة و الخطاب، و بالتلقى التعليمي و التربوي لهم بما أرشدهم به في السورة: من حسن ابتداء، و كيفية الحمد، و التلطف بالدعاء، و سر العبادة و قصر الاستعانة، و التأسيسات الأخرى في شرف المقاصد بطلب الهداية، و الاستقامة على الجادة و المحجّة، و شدة التمسك و الاخلاص، و الاستمرارية في النهج الواضح المبين، و كان هذا الايحاء الفطري بهذه الافاضة الاعلانية جامعا في حدوده، مانعا لسواه، محققا للهدف التعبدى و الدعائى في تركيب مزدوج. و هذا أبرز ما تهدف إليه السورة المباركة، و هى بهذا تشمل على مقاصد القرآن في تعليماته، و تحدد الأولويات من أفكاره، و حسبك أنها فاتحة الكتاب.

## بحث لغوى:

١- الاسم: اسم جنس لما يسمى من أسماء شتى في مختلف الألسنة و اللهجات، لا تنهاى زمانيا و مكانيا، و فى العربية:

قال الخليل (ت: ١٧٥ هـ) «الاسم: أصل تأسيسه السمو، و ألف الاسم زائدة، و نقصانه الواو» «٢».

و قال ابن منظور (ت: ٧١١ هـ) «و الاسم ألفه ألف وصل و الدليل على



(١) هاشم البحراني، البرهان: ١ / ٥٠.

(٢) الخليل، العين: ٧ / ٣١٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤١

ذلك أنك إذا صغرت الاسم قلت: سمي، وإذا نسبت إلى الاسم قلت سموي، وإن شئت اسمي» (١).

وقال ابن سيده: «و الاسم اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لتفصل به بعضه من بعض» (٢). فهو عنده علامة تمييزية.

وقال الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) «و الاسم أحد الأسماء العشرة التي بنوا أوائلها على السكون، فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة، لثلا يقع ابتداءهم بالسكن، إذ كان دأبهم أن يبتدءوا بالمتحرك، و يقفوا على الساكن لسلامة لغتهم من كل لكنة و بشاعة، و لوضعها على غاية من الأحكام و الرصانة، و إذا وقفت في الدرج لم تفتقر إلى زيادة شيء، و أصله سمو بدليل تصريحه، كأسماء و سمي و سميت، و اشتقاقه من سمو، لأن التسمية تنويه بالمسمى و إشادة بذكره» (٣).

وقال سيويه (ت: ١٨٠ هـ) الاسم غير المسمى (٤). و هو دقيق إذ الاسم هو اللفظ الموضوع لهذا الشيء أو ذاك، و المسمى هو الذات بعينها.

و يرد عليه ما ورد في الحديث: لما نزلت «فسيح باسم ربك العظيم» قال: اجعلوها في ركوعكم، قال: الاسم هاهنا صلة و زيادة بدليل أنه كان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، فحذف الاسم، و على هذا قول من زعم أن الاسم هو المسمى (٥).

بينما أثبتت الفلسفة الإسلامية بطلان دعوى أن الاسم عين المسمى (٦).

أما الاستشهاد في الحديث فلا يساعد على هذا الفهم المشار إليه.

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: سما.

(٢) المصدر نفسه: و المادة.

(٣) الزمخشري، الكشاف: ١ / ٣٣.

(٤) ابن منظور، اللسان، مادة: سما.

(٥) ظ: ابن منظور، لسان العرب، مادة: سما.

(٦) ظ: السبزواري، مواهب الرحمن: ١ / ١٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٢

وقال ابن الأنباري: «في الاسم خمس لغات: اسم، و اسم بكسر الهمزة و ضمها، و سم، و سم بكسر السين و ضمها، و سمي على وزن هدى» (١).

والذي نميل إليه أن الاسم: علامة و سمة و وسم تميز المسمى دون غيره من الموجودات أو المماثلات لا بقصد الرفع أو التنويه، و إنما هي إشارات توضع لمعرفة هذا من هذا، و تمييز هذا عن هذا، فلا مزية لها، بدليل أن بعض الأسماء مذمومة، و الأخرى محمودة، و لو كانت للرفع لكان الجميع محمودا. و هذا لا ينافي أن يكون اشتقاق الاسم من سمو لا الوسم و لا السمة، لأن المحذوف هو الفاء منهما.

و في هذا الضوء يكون الاشتقاق أصلا، و المعنى أصلا ثانيا، و لا- ملازمة بينهما، و لا مانع من إرجاع أحد المعنيين إلى الآخر، و جمعهما في قدر مشترك بلحاظ أن الرفع سمة، و أن السمة رفع، و العلامة تعلق و تظهر، و الرفع علو و ظهور.

و قد يسر الامام الرضا صلوات الله عليه الأمر على النحو الأول

فقال لمن سأل عن ذلك: «معنى قول القائل بسم الله: أي اسم على نفسى سمة من سمات الله عز و جل و هي العبادة. قال السائل:

فقلت له: ما السمة؟

فقال العلامة «٢».

قال السيد السبزواري «و على أية حال سواء أ كان الاسم من الوسم واقعا بمعنى العلامة أم من السمو بمعنى الرفع، ففي ذكر البسملة يكون إظهار لإضافة العبد نفسه إليه تعالى إضافة تشريفية بذكر اسمه تعالى، و رفعه لمقام العبد به، و ذكر الاسم في غيره تعالى علامة للمعنى المراد، و إخراجه عن الخفاء إلى الظهور» «٣».

٢- الله لفظ الجلالة: قال الخليل (ت: ١٧٥ هـ) «إن اسم الله الأكبر هو: الله، لا إله إلا هو وحده ... و الله لا تطرح الألف من الاسم إنما هو

(١) ابن المنير الاسكندري، الانصاف ذيل الكشاف: ١/ ٣٤.

(٢) الصدوق، التوحيد: ٢٣٠.

(٣) السبزواري، مواهب الرحمن: ١/ ١٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٣

الله على التمام، و ليس (الله) من الاسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل» «١».

فهو عنده اسم جامد بسيط ليس بمشتق، إذ لا يشترط في كل لفظ كونه مشتقا عن أصل ما، و الله ذو صيغته معينة محللة بالألف و هو من لفظه، و إليه ترجع أسماء الله الحسنی بل هو أكبرها، و لا يطلق إلا عليه تخصصا و وحدانية و انفرادا. و قال سيويه (ت: ١٨٠ هـ) «إنما أدخلت عليه الألف فقد أخطأ لأن أسماء الله تعالى معارف» «٢».

و ذهب الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) أنه مشتق، أصله الإله، و منه أشتق:

تأله، و آله، و استأله «٣».

و ما ينبغي أن يقال هنا: أن اللفظ إن كان مشتقا من إله بمعنى تحير فهو أصل لغوي، و إلا فهو علم عربي موضوع للذات القدسية دون اشتقاق أو أصل، و قد يكون الدليل الأول أن (الإله) تطلق على المعبود و هو الله تعالى عند العارفين، و يطلق على ما يعبد من الأصنام و الأوثان عند المشركين و الكافرين. أما لفظ (الله) فلا يطلق إلا عليه.

و روى المنذرى عن أبي الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى في اللغة فقال: «كان حقه إله، أدخلت الألف و اللام تعريفا فقليل:

الإلاه، ثم حذفت العرب الهمزة استثقالا لها، فلما تركوا الهمزة حولوا كسرتها في اللام التي هي لام التعريف، و ذهبت الهمزة أصلا فقالوا:

أللاه، فحركوا لام التعريف التي لا تكون إلا ساكنة ثم التقى لآمان متحركتان فأدغموا الأولى في الثانية فقالوا: الله» «٤».

و ما أورده المنذرى عن أبي الهيثم دقيق في الاستخراج في تصريف الكلمة و تخريجها دون الدخول في تفصيلات المعاني المتعلقة بالاشتقاق.

(١) الخليل، العين: ٩٠ / ٤ و ما بعدها.

(٢) ظ: الطبرسي، مجمع البيان: ١/ ١٩.

(٣) الزمخشري، الكشاف: ١/ ٣٥ و ما بعدها.

(٤) ابن منظور، لسان العرب: ١٧ / ٣٥٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٤

وقد أورد ذلك الراغب (ت: ٥٠٢ هـ) على وجوه:

أ- الله: قيل أصله إله فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالبارى تعالى.

ب- وقيل: هو من أله أى تحير، وتسميته بذلك إشارة إلى

قول أمير المؤمنين: «كلّ دون صفاته تحبير الصفات، و ضل هناك تصاريف اللغات»

و ذلك أن البعد إذا تفكر فى صفاته تحير فيها، ولهذا

روى «تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله».

ج- وقيل أصله: ولاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والهنا نحوه إما بالتسخير فقط كالجمادات و

الحيوانات، وإما بالتسخير والارادة معا كبعض الناس.

د- وقيل أصله: من لاه يلوه لياها، أى احتجب، قالوا: وذلك إشارة إلى ما قال تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ (١).

وما ينبغى أن يقال فى المقام: أنه اسم مختص بذاته المقدسة، فلا يصح إطلاق اسم الجنس عليه، لأن ما يعبد سواه اعتقاد باطل، و

إطلاق إشراكي كاذب، والجنس إنما يرد فى الممكنات من المفاهيم، لا فى المختصات من الألفاظ، ولا تصح معه الوصفية، فهو

موصوف ولا- يوصف به. وقد يقال بأنه علم بالتغليب كما عليه العرب قبل الاسلام، إذ باطلاقه لا يتبادر الذهن إلا إليه، و عليه قوله

تعالى وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٢)، و دليل علميته وصفه بجميع أسماء الله الحسنى، و لا توصف به أسماؤه، و عليه قوله

تعالى: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٣).

وقد ورد عن أمير المؤمنين الامام على عليه السلام إجابة عن سؤال: «الله أعظم اسم من أسماء الله عز وجل، و هو الاسم الذى لا

ينبغى أن يسمى به غير الله، و لم يتسم به مخلوق، فقال الرجل: فما تفسير قوله (الله) قال:

(١) الراغب، المفردات: ٢١١.

(٢) الزخرف: ٨٧.

(٣) البقرة: ٢٥٥. المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٥

هو الذى يتأله إليه عند الحوائج و الشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، و تقطع الأسباب من كل من سواه»

«(١)»

وقد روى ذلك أيضا عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام (٢).

٣- الرحمن الرحيم، أنظر فيما سبق: البحث التفسيري، و فيما يأتى الشذرات الروائية، الفقرة رقم (٤).

٤- الحمد: نقيض الذم، و الحمد لله تعالى الثناء عليه بالفضيلة، و هو أخص من المدح، و أعم من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون

من الانسان باختياره، و مما يقال منه و فيه بالتسخير، فقد يمدح الانسان بطول قامته و صباحة وجهه كما يمدح ببذل ماله و سخائه و

علمه، و الحمد يكون فى الثانى دون الأول، و الشكر لا يقال إلا فى مقابلة نعمة، فكل شكر حمد، و ليس كل حمد شكرا، و كل حمد

مدح و ليس كل مدح حمدا (٣).

قال الأزهرى: الشكر لا يكون إلا ثناء ليد أوليتها، و الحمد قد يكون شكرا للصنعة، و يكون ابتداء للثناء على الرجل، فحمد الله: الثناء

عليه، و يكون شكرا لنعمه التى شملت الكل (٤).

قال الطوسى (ت: ٤٦٠ هـ) «و معنى الحمد لله الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد بما أنعم على عباده من ضروب النعم الدينية و

الدنيوية، و دخول الألف و اللام فيه لفائدة الاستيعاب، فكأنه قال: جميع الحمد لله» (٥).

أقول: الألف و اللام هنا استغرافية لمعنى إفادة عموم الحمد، فكأن بجميع أصنافه و أشكاله مختص بالله تعالى.

٥- الرب: له عدة معان في اللغة، فيسمى السيد المطاع ربا، و عليه

(١) الصدوق، التوحيد: ٢٣١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٣١.

(٣) ظ: الراغب، المفردات: ١٣١.

(٤) ظ: ابن منظور لسان العرب، مادة: حمد.

(٥) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن: ٣١ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٦

القرآن الكريم أَمَا أَخَذُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا «١».

و الرجل المصلح ربا، و منه قيل فلان رب ضيعه إذا كان يحاول إصلاحها و إتمامها، و الربانيون من حيث كانوا مدبرين لهم «٢».

قال الراغب «الرب في الأصل التربيء، و هو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام، يقال: ربه و رباه و ربه، و لا يقال الرب مطلقا إلا الله تعالى المتكفل لمصلحة الموجودات، و المتولى لمصالح العباد» «٣».

قال السيد السبزواري «الرب مجمع جميع أسماء أفعال الله المقدسة لأن جميع أفعاله تبارك و تعالى متشعبة من جهة تديره تعالى و تربيته في كل موجود بحسبه، فالرب مظهر الرحمة و الخلق و القدرة و التدبير و الحكمة فهو الشامل لما سواه تعالى، فإنهم المربوبون له تعالى على اختلاف مراتبهم، فكم من فرق بين الربوبية المتعلقة برسوله الاكرم صلى الله عليه و آله و سلم أو سائر الأنبياء العظام أو الملائكة المقربين، و ما تعلق بسائر الناس، فالربوبية لها مراتب تختلف باختلاف مراتب المربوب و المتعلق» «٤».

و إذا أطلق الرب، و حقه الأفراد لأنه واحد، فهو الله تبارك و تعالى، لهذا كان ما حكاه الله عن لسان يوسف الصديق عليه السلام في منتهى البلاغة و البيان السليم بقوله أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٥». فقد ألزمهم بالوحدانية شاءوا أم أبوا لأن الرب لا يكون إلا واحدا، فكيف جعلوا ذلك أربابا متفرقين، فألزمهم الحجج، لأن ذات الرب واحدة، و ليس هناك أرباب بحسب الواقع، و لما كان اعتقادهم مخالفا للواقع كان باطلا.

و بحق ما قاله سيدنا الأستاذ «مع أن الثابت في علم الفلسفة أن ما سواه تبارك و تعالى يحتاج إليه تعالى في البقاء كما يحتاج إليه في أصل الحدوث، ففي كل لحظة- بل أقل منها- له رحمة خالقية و ربوبية بالنسبة

(١) يوسف: ٤١.

(٢) ظ: الطوسي، التبيان: ٣٢ / ١.

(٣) الراغب، المفردات: ١٨٤.

(٤) السبزواري، مواهب الرحمن: ٢٧ / ١.

(٥) يوسف: ٣٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٧

إلى ما سواه من الموجودات، و هذا هو معنى القيمومة المطلقة التي لا يمكن إحاطة الانسان بها، و بالربوبية العظمى كعدم إمكان الإحاطة بذاته تعالى تقديس شأنه «١».

٦- العالمين: جمع واحده، عالم، و العالم جمع أيضا لا واحد له من لفظه، لأنه جمع لأشياء مختلفة، و عن الفراء: العالم يقع على الناس و الملائكة و الجن «٢».

وفي اللسان: ولا واحد للعالم من لفظه لأن عالما جمع أشياء مختلفة، فإن جعل عالم اسما لواحد منها صار جمعا لأشياء متفقتة. وفي التنزيل: الحمد لله رب العالمين، قال ابن عباس: رب الجن والانس، وقال قتادة: رب الخلق كلهم، قال الأزهرى: الدليل على صحة قول ابن عباس قوله عز وجل تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) «٣»، وليس النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذيرا للبهائم ولا-الملائكة، وهم كلهم خلق الله، وإنما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم نذيرا للأنس والجن. وقال الزجاج: معنى العالمين: كل ما خلق الله كما قال: وهو رب كل شيء «٤».

قال الراغب (ت: ٥٥٠٢هـ): والعالم اسم للفلك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو فى الأصل اسم لما يعلم به كالتابع والخاتم، وجعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالألة، والعالم آله فى الدلالة على صانعه، وأما جمعه فلأن من كل نوع من هذه قد يسمى عالما، فيقال عالم الانسان وعالم الماء وعالم النار.

وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس فى جملتهم، والانسان إذا شارك غيره فى اللفظ غلب حكمه، وقيل: إنما جمع هذا الجمع (العالمين) لأنه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والانس وغيرها. وقال جعفر بن محمد الصادق: عنى به الناس وجعل كل واحد منهم

(١) السبزواري، مواهب الرحمن: ٢٨ / ١.

(٢) ظ: ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن: الكريم: ٢٢.

(٣) الفرقان: ١.

(٤) ظ: ابن منظور، لسان العرب: ٣١٥ / ١٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٨

عالما، وقال: العالم عالمان الكبير وهو الفلك بما فيه، والصغير وهو الانسان لأنه مخلوق على هيئة العالم، وقد أوجد الله تعالى فيه كل ما هو موجود فى العالم الكبير «١».

واختار السيد السبزواري «أن معنى العالم ومدلوله وسيع جدا وغير محدود بحد، بل غير متناه، فمن أقرب العوالم إلى الانسان عالم التراب الذى يكون محسوسا له، وهو عظيم لم يتمكن الانسان من إدراك جميع خصائصه وجهاته مع أنه من أجل العوالم نفعا، وكذا بالنسبة إلى عالم الانسان الذى كل من أراد فهمه لا يزداد إلا تحيرا فيه، وهكذا غيرهما من العوالم، فليس للانسان إلا الاعتراف بالعجز والقصور أمام جلال عظمته تبارك وتعالى» «٢».

والحق أن معنى العالمين - فيما يبدو - على إطلاقه دون تقييد يشمل جميع العوالم المرئية وغير المرئية، الحية وغير الحية، المحسوسة والمتصورة، ومقتضى الاطلاق شمولها جميعا بلفظ العالمين، ولا شك بربوبيته تعالى لكل العوالم بفصائلها المتشعبة.

٧- مالك: قرأ عاصم والكسائي وخلف ويعقوب: مالك بالألف، والباقون ملك بغير ألف «٣».

وقرأ أبو هريرة «مالك يوم الدين» على النداء المضاف أى يا مالك يوم الدين. وقرأ أبو حيوة «ملك يوم الدين» وقرأ أنس بن مالك «ملك يوم الدين» جعله فعلا ماضيا «٤».

ويبدو من هذا أن فى هذه المادة عدة قراءات ولعل أحسنها ملك وملك.

ومعنى ملك يوم الدين، بإسقاط الألف أنه الملك يومئذ لا ملك غيره، وأنه لا يؤتى فى ذلك الوقت أحدا الملك كما آتاه فى الدنيا، وقوى

(١) ظ: الراغب، المفردات: ٣٤٤ و ما بعدها.

(٢) السبزواري، مواهب الرحمن: ٢٩ / ١.

(٣) ظ: الطوسي، التبيان: ٣٣ / ١.

(٤) ظ: ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن: الكريم: ٢٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٩

ذلك بقوله تعالى لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ «١».

و أنه يطابق ما تقدم من قوله: رب العالمين الرحمن الرحيم. و من قرأ مالك بألف معناه: أنه مالك يوم الدين و الحساب لا يملكه غيره، و لا يليه سواه «٢».

و رجح السيد السبزواري قراءة (مالك) لأن المالكية تشمل ملكية الأجزاء و الجزئيات بخلاف (ملك) فإن الملكية تعنى السيطرة على الكل.

و إن قراءة مالك أوفق بالعرف «٣».

و المالك هو القادر على التصرف في ماله، و أن يتصرف فيه على وجه ليس لأحد منعه منه. و الملك هو القادر الواسع القدرة الذي له السياسة و التدبير.

و في الناس من قال أن ملك أبلغ في المدح من مالك، لأن كل ملك مالك، و ليس كل مالك ملكا... و قال بعضهم: إن مالك أبلغ في المدح للخالق من ملك و ملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن مالكا من المخلوقين قد يكون غير ملك. و إذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا.

و الأقوى أن يكون مالك أبلغ في المدح فيه تعالى لأنه ينفرد بالملك، و يملك جميع الأشياء فكان أبلغ «٤».

و مع هذا الترجيح و الشائع من القراءة، فإن المادة بعامة تطلق و يراد بها الاستيلاء و استيعاب المالكية لجميع الجزئيات، و الاحاطة المطلقة الاستغرافية لجميع حيثيات الخلق و الابداع و الانشاء، و فيها دليل بالمالزمة أنه مالك الدنيا و الدين معا، لأن من ملك يوم الدين ملك الدنيا من باب أولى، و أما قوله تعالى بِيَدِهِ الْمُلْكُ «٥» و قوله تعالى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ «٦» فيشمل عموم أنواع الملك المحسوسة و الملموسة و المجردة،

(١) غافر: ٤٨.

(٢) ظ: الطوسي، التبيان: ٣٣ / ١.

(٣) ظ: السبزواري، مواهب الرحمن: ٣٢ / ١.

(٤) ظ: الطوسي، التبيان: ٣٤ / ١ و ما بعدها.

(٥) تبارك: ١.

(٦) المؤمنون: ٨٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٠

الكائنة و المتخيلة، و المدركة و غير المدركة، الدينوية و الآخروية، في العوالم كافة، بدلالة المطابقة.

٨- يوم الدين: و المراد بيوم الدين يوم القيامة لا شك في هذا عند أحد، قال أبو علي الجبائي: أراد به يوم الجزاء على الدين. و قال محمد ابن كعب أراد: يوم لا- ينفع إلا- الدين و إنما خص يوم القيامة بذكر الملك فيه تعظيما لشأنه و تفخيما لأمره، كما قال: رب العرش «١».

و يوم الدين عبارة عن زمان الجزاء كله، و ليس المراد به ما بين المشرق و المغرب، و طلوع الشمس إلى غروبها «٢».

لأن الانسان في مسيرته ما بين يومين اعتباريين هما: يوم العمل و مقرّه الحياة الدنيا، و يوم الجزاء و مقرّه الحياة الأخرى. و ليس المراد تحديد هذا و ذاك بالوقت المخصوص بالليل و النهار، و استكمال دورة الكرة الأرضية حول الشمس و ذلك و إنّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٣)، بدلالة قوله تعالى أيضا تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) «٤».

فلا وجه للتحديد بما تعارفنا عليه من أيام بل هو بجميع تقلباته و كفياته، طالت أوقاته أو قصرت، يوم للجزاء فحسب. و إنما ذكر الله تعالى «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» مع أنه مالك لجميع ما سواه، و لم يخرج عن ملكه شيء لأن يوم الدين مظهر ثبوت الوحداية المطلقة، و الربوبية العظمى عند الكل ... و هو يوم ظهور فساد الشرك الذي توهمه الناس بزعمهم و خيالهم، فيوم الدين يوم يظهر فيه التوحيد الحقيقي و العدل الآلهي «٥».

و قد مر في العرض التفسيري معنى الهداية و العبادة و الاستعانة

(١) ظ: الطبرسي، مجمع البيان: ٢٥ / ١.

(٢) ظ: الطوسي، التبيان: ٣٦ / ١.

(٣) الحج: ٤٧.

(٤) المعارج: ٤.

(٥) ظ: السبزواري، مواهب الرحمن: ٣٤ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥١

و الصراط، و يأتي ما يدل على جملة منها في المبحث التربوي بإذن الله تعالى.

٩- الغضب: الغضب نقيض الرضا، و هو إما من الناس و إما من الله، فغضب الناس شيء يداخل قلوبهم، و منه محمود و مذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، و المحمود ما كان في جانب الدين و الحق، و هو من الله سخطه على من عصاه و إعراضه عنه، و معاقبته له «١».

قال الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) «و أما غضب الله فهو إرادة العقاب المستحق بهم، و لعنهم و براءته منهم، و أصل الغضب الشدة» «٢».

و قال الراغب (ت: ٥٠٢ هـ) الغضب ثوران دم القلب إرادة الانتقام، و إذا وصف الله تعالى به فالمراد به الانتقام دون غيره «٣».

و تبعهما الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) فقال: و الغضب هو إرادة الانتقام من العصاة و إنزال العقوبة بهم، و أن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده «٤».

و قال السيد السبزواري «و غضب الله تعالى: عقابه دنويا كان أو أخرويا، أو هما معا، كما أن رضاه ثوابه، و هما من صفات الفعل لا من صفات الذات» «٥».

١٠- الضلال: الضلال و الضلالة ضد الهدى و الرشاد «٦». و هو الهلاك، و الضلال في الدين الذهاب عن الحق، و الاضلال الدعاء إلى الضلال و الحمل عليه «٧».

قال الراغب: «الضلال العدول عن الطريق المستقيم، و يصاده

(١) ظ: ابن منظور، لسان العرب: مادة: غضب.

(٢) الطوسي، التبيان: ٤٦ / ١.

(٣) الراغب، المفردات: ٣٦١.

(٤) الزمخشري، الكشاف: ١ / ٧١.

(٥) السبزواري، مواهب الرحمن: ١ / ٤٩.

(٦) ابن منظور، اللسان، مادة: ضلل.

(٧) ظ: الطوسي، التبيان: ١ / ٤٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٢

الهداية، و يقال الضلال: لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سهوا، يسيرا كان أو كثيرا، فإن الطريق المستقيم الذي هو مرتضى صعب جدا، وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدا كان أو سهوا، قليلا كان أو كثيرا، صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى الانبياء وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) «١» أي غير مهتد لما سبق إليك من أمر النبوة» (٢).

### لمحات فنية:

ذهب أبو زكريا الفراء (ت: ٢٠٧ هـ) إلى اجتماع القراء و كتاب المصاحف على حذف الألف من «بسم» من قوله تعالى بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) وإثباتهم الألف في باسم من قوله تعالى فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) «٣». وإنما حذفوها من بسم الله الرحمن الرحيم لأنها وقعت في موضع معروف لا- يجهل القارئ معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستحق طرحها، لأن من شأن العرب الإيجاز و تقليل الكثير إذا عرف معناه، وأثبت في قوله فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ لأنها لا- تلزم هذا الاسم، ولا- تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك و تعالى. ألا ترى أنك تقول: «بسم الله» عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكلا أو مشربا أو ذبيحة، فحق عليهم الحذف لمعرفةهم به. وقد رأيت بعض الكتاب تدعوه معرفته بهذا الموضع إلى أن يحذف الألف و السين من «اسم» لمعرفة بذلك، و لعلمه بأن القارئ لا يحتاج إلى علم ذلك. فلا تحذف ألف «اسم» إذا أضفته إلى غير الله تبارك و تعالى، و لا تحذفها مع غير الباء من الصفات «٤». وإن كانت تلك الصفة حرفا واحدا مثل اللام و الكاف فتقول: لاسم الله حلاوة في القلوب، و ليس اسم

(١) الضحى: ٧.

(٢) الراغب، المفردات: ٢٩٧.

(٣) الواقعة: ٧٤.

(٤) الصفة باصطلاح نحاة الكوفيين هنا حرف الجر و الظرف.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٣

كاسم الله، فتثبت الألف في اللام و في الكاف، لأنها لم يستعملا كما استعملت الباء في اسم الله. فإن قال قائل: إنما حذفنا الألف من «بسم الله» لأن الباء لا يسكت عليها، فيجوز ابتداء الاسم بعدها قيل له: فقد كتبت العرب في المصاحف وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا «١» بالألف، و الواو لا يسكت عليها في كثير من أشباهه، فهذا يبطل ما ادعى «٢».

أقول: ما أورده الفراء جائز في التأويل و حسن التعليل و هو جيد في حدود، و قد يكون ذلك اجتهادا منه في تقصيد هذا النظر عند العرب، و تيسير فهمه على سننهم، و لكن ما تقول في حذف الألف- ما دمنا ببسم الله الرحمن الرحيم- من الرحمن. الحق أن هذا و أمثاله يجب أن يحمل على ترتيب خطوط المصحف في تقسيماتها الاصطلاحية لدى كتاب القرآن الأوائل في مخالفتهم أصول الاملاء المتواضع عليه، ببدل، أو زيادة، أو نقصان، أو حذف، أو فصل، أو وصل، للدلالة على ذات الحرف، أو أصله، أو فرعه، أو أمثاله، و قد استقرينا هذا البحث في موضعه «٣».



فالقرآن ألفاظه ومعانيه، وتشريعه و مراميه، بسوره و آياته متواتره متناسقه، و شكله اصطلاحى فى صورته المصحفيه التى تواضع عليها الناس فى الرسم و الاعراب و النقط و الاعجام للدلالة على ألفاظه فى النطق، و على هيئته و تركيبه فى التلفظ، فهو تسجيل ثانوى للوحى الأولى، بما يؤدى إلى صورة حقيقته المثلى حينما يتلى بالألسن معادا كما أنزل، فأية كتابة إملائية أدت إلى ذلك أخذ بها. و صريح ما أبداه الفراء بأن هذا الامر تواضع عليه العرب و اصطلاحوا على صحته و ليس توقيفا.

و قد أشار إلى هذا الملحظ بحدود جار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) بقوله «فإن قلت: فلم حذف الألف فى الخط، و أثبتت فى قوله «باسم ربك» قلت: قد اتبعوا فى حذفها حكم الدرر دون الابتداء الذى عليه وضع

(١) الكهف: ٣٢+ يس: ١٣.

(٢) ظ: الفراء، معانى القرآن: ١/١ و ما بعدها.

(٣) ظ: المؤلف، تاريخ القرآن: الفصل الخامس، شكل القرآن: ١٢٩-١٥٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٤

الخط لكثرة الاستعمال، و قالوا: طولت الباء تعويضا من طرح الألف» (١).

و هذا مذهب تعليلي و ملحظ اعتذارى عن حذف الألف، و لعل ما أوردها من تعاقب الخطوط عند كتاب الوحي حذف هذا الحرف هنا و أثبتته هناك، و الله العالم.

و يجب أن لا ننسى أن ابن خالويه (ت: ٣٧٠هـ) قد علل ذلك بناء على كثرة استعمال بسم الله فى عدة مجالات عند العرب، فنظر إلى كمية هذا الاستعمال و عدده، فاسقطوا الألف اختصارا من الخط لأنها ألف وصل ساقطة فى اللفظ، و لم يجر إسقاطها إلا مع لفظ الجلالة، فإن ذكرت اسما من أسماء الله عز و جل و قد أضفت إليه الاسم لم تحذف الألف لقله الاستعمال.

قال ابن خالويه: «فإن قيل: لم أسقطت الألف من بسم و الأصل باسم؟ فقل: لأنها كثرت على ألسنة العرب عند الأكل و الشرب و القيام و القعود، فحذفت الألف اختصارا من الخط لأنها ألف وصل ساقطة فى اللفظ. فإن ذكرت اسما من أسماء الله عز و جل و قد أضفت إليه الاسم لم تحذف الألف لقله الاستعمال، نحو قولك باسم الرب، و باسم العزيز. فإن أتيت بحرف سوى الباء أثبت أيضا الألف نحو قولك باسم الله حلاوة فى القلوب، و ليس اسم كاسم الله، و كذلك باسم الرحمن، و باسم الجليل، و: أقرأ باسم ربك الذى خلق (١) (٢) (٣)».

و هو بهذا الملحظ يحل الاشكال فى حذف الألف من «بسم الله» و إثباته فى «باسم ربك».

و لا يبعد النظر إلى ذلك بهذا الادراك و هناك نكتة أخرى تتعلق بورود حرف الجر (الباء) مكسورا فى الاستعمالات القرآنية كلها، بلحاظ حجمها و لحاظ عملها فى مدرك واحد، ذكره ابن خالويه أيضا فقال: «إن سأل سائل فقال: لم كسرت الباء فى بسم الله؟ فالجواب فى ذلك أنهم لما

(١) الزمخشري، الكشاف: ٣٥/١.

(٢) العلق: ١.

(٣) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن: ٩-١٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٥

وجدوا الباء حرفا واحدا و عملها الجر ألزموها حركة عملها» (١).

و هذا قائم على أساس الذائفة الفطرية للأصوات عند العرب.

## إشارات بلاغية:

في هذه السورة عدة منعطفات بيانية، و جملة إشارات بلاغية، تتسم بالدقة التعبيرية حيناً، و الشمولية الاسلوبية حيناً آخر، و هي بين هذه و تلك تستوعب البعد البلاغى فى مظاهر متفاوتة:

١- هاتان الصيغتان الرَّحِيمِ يصفان الله تعالى بالرحمة و الرأفة، قال الراغب (ت: ٥٠٢ هـ) «و الرحمة رقة تقتضى الاحسان إلى المرحوم، و قد تستعمل تارة فى الرقة المجردة، و تارة فى الاحسان المجرد عن الرقة ... و إذا وصف به البارى فليس يراد به إلا الاحسان المجرد دون الرقة» (٢).

و الدلالة اللغوية لهذين اللفظين توحى بهذا المعنى الذى أشار إليه الراغب، و إذا كان الأمر كذلك فلا بد لنا من حمل الرحمة إما على سبيل المجاز، و إما على الاستعارة على سبيل التمثيل، ذلك أن البارى عز و جل لا يوصف بالرقة و الانعطاف لأنهما من صفات البشر و أعراضه النفسية تعالى عن ذلك علواً كبيراً، و الرحمة بالنسبة لذاته المقدسة من الصفات الفعلية التى يحدثها بأمره كالرزق و الایجاد و الاحياء و الإماتة، فهى حينما تطلق فإنما تطلق بالنسبة إليه بعيدة عن حقيقتها اللغوية فى الوضع الأصلى، و إذا كان الأمر هكذا فهى مجاز بهذا الاعتبار: أى أن رحمت الله على عباده تتوالى، و أنعامه تتواكب، إذن قد تكون الرحمة مجازاً يعبر بها عن إرادة الانعام و إيجادها و إحداثه كل آن من باب إطلاق السبب و إرادة المسبب، و قد يكون مجازاً عن الأنعام التام المستفيض من باب إطلاق المسبب و إرادة السبب، و قد يكون ذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية بعلاقة المشابهة، و ذلك بتمثيل رحمته برحمة الرئيس على مرءوسيه، أو

(١) المصدر نفسه: ١٦.

(٢) الراغب، المفردات فى غريب القرآن: ١٩١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٦

الملك على رعيته، فى حالة الرضا و الاغتباط، فيشملهم بإنعامه و رفته، و الحال هنا كذلك فيحمل عليه.

٢- و فى تقديم الرحمن على الرحيم نكتة بلاغية أشار إليها الشيخ الطوسى (ت: ٤٦٠ هـ) بما ذكره عن أبى الليث: «و إنما قدم الرحمن على الرحيم لأن وصفه بالرحمن بمنزلة الاسم العلم، من حيث لا يوصف به إلا الله تعالى فصار بذلك كاسم العلم فى أنه يجب تقديمه على صفته» (١).

و مراد الطوسى أن الرحمن مختص بالله تعالى دون سائر كائناته، و أن الرحيم مشترك بينه و بين البشر، فقدم ما له دلالة عامة على ما له دلالة خاصة.

و قد تعقب الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) ذلك فقال: «فإن قلت: فلم قدم هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه؟ و القياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحري، و شجاع باسل، و جواد فياض، قلت:

لما قال: الرحمن فتناول جلائل النعم و عظامتها و أصولها أردفه الرحيم كالتممة و الرديف ليتناول ما دق منها و لطف» (٢).

و مسألة الأدنى و الأرقى بالنسبة لصفات العباد جارية مطردة، أما بالنسبة للذات المقدسة فيراد هذه الاعتبارات باطل، لذا فإننا نميل إلى ما أورده الطوسى عن أبى الليث، و لا يخلو مذهب الزمخشري من وجه، و قد تكفل برده الشريف الجرجاني فى حاشية الكشاف (٣).

٣- و فى إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) يبدأ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. و هو من الموارد البلاغية التى سار عليها العرب فى سنن كلامهم، فإن هذه السورة المباركة، قد جمعت فنون الالتفات البلاغى، فأوائلها بدأ بالغيبة للدلالة عليه تعالى، ثم انتقل إلى

الحضور، فقال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ ثم التفت إلى المتكلم فقال: اهُدِنَا ثم ثنى على الغائبين فقال: اُنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. و في تقديم إياك على نعبد و نستعين،

(١) الطوسي، التبيان: ٢٩ / ١.

(٢) الزمخشري، الكشاف: ٤٥ / ١.

(٣) ظ: الشريف الجرجاني، حاشية الكشاف، الكشاف: ٤٥ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٧

ملحظ بلاغى آخر يفيد الحصر، وقصر العبادة عليه، وتخصص الاستعانة به و في ذلك مدرك بلاغى ثانوى مضاف إلى المدرك البلاغى الأولى، وذلك أن تقديم الضمير المنفصل هنا قد قصر العبادة على الله و الاستعانة به في مجال الاثبات، و أفاد عدم العبادة لغيره في مقام النفي، فكأن التوجه في جزء هذه الآية في تصور تفسيري ينطق هكذا، نعبدك و نستعينك، و لا- نعبد غيرك و لا نستعين بسواك، فأصبح هذا الحصر دالا على النفي و الاثبات في آن واحد.

و مسألة الالتفات في القرآن الكريم كان مثار استغراب و تساؤل طائفة من المستشرقين ممن لم يهتدوا إلى تفسير هذه الظاهرة البيانية. فالمستشرق الألماني الدكتور نولدكه (١٨٣٦ م - ١٩٣٠ م) في الوقت الذي يعجب فيه بسحر القرآن البلاغى و إعجازه البياني، نراه في بحثه عن القرآن و أسلوبه في دائرة المعارف البريطانية تحت مادة قرآن: يشير إلى كثرة انتقال القرآن في خطابه من صيغة إلى أخرى، و من حال إلى حال، فمن غيبة إلى خطاب، و من ظاهر إلى مضمرة و بالعكس، و أعتبر ذلك مجالا للتجريح، و أن رأى كل عالم أوروبى في القرآن بعد الإمعان و التصفح بروح الانصاف يأخذ عليه هذه الثغرات، و الحق أن نولدكه قد تطرف كثيرا في هذا الوجه، كغيره ممن يعكس وجهة نظرهم هذه، و مردّه مع حسن الظن به يعود إلى عدم تمرسه في ضروب البلاغة العربية التي لا يدرك أبعادها إلا العرب الأقحاح «١».

٤- عتبر القرآن الكريم عن الدين الحنيف ب الصُّرَاطِ المُسْتَقِيمِ و هذا التعبير هو الصميم الخالص من الاستعارة، و من أبلغ وجوها عند البلاغيين، وحده أن يكون الشبه الاستعارى مأخوذا من الصور العقلية، فهنا قد استعار الصراط و هو أمر حسى، إلى الدين و هو أمر مجرد عقلى، فعبر عن العقلى بالحسى، قال عبد القاهر (ت: ٤٧١ هـ): «و أعلم أن هذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها، و يتسع لها كيف شاءت: المجال في تفننها و تصرفها، و هاهنا تخلص لطيفة روحانية فلا

(١) ظ: المؤلف، المستشرقون و الدراسات القرآنية: ٣١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٨

يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية، و العقول النافذة، و الطباع السليمة، و النفوس المستعدة لأن تعي الحكمة، و تعرف فصل الخطاب» «١».

٥- و في نسبة الغضب إلى الله تعالى في قوله: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و هو من الصفات الفعلية التي يوجدتها الله تعالى، مجاز مرسل، و لا يحمل بالنسبة لذاته القدسية على حقيقته اللغوية عند الاطلاق، و يجرى الغضب هنا مجرى الرحمة فيما سبق من وجه، و يمكن حمل ذلك على الاستعارة التمثيلية كما يذهب إلى ذلك الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ) بقوله:

«فإن قلت: ما معنى غضب الله؟ قلت: هو إرادة الانتقام من العصاة و إنزال العقوبة بهم و إن يفعل بهم ما يفعله الملك إذا غضب على من تحت يده، نعوذ بالله من غضبه و نسأله رضاه و رحمته» «٢».

و إيضاح القول في ذلك: إن الله تعالى لما امتنع وصفه بحقيقة الغضب، وجب حمل الكلام على المجاز، و المجاز هنا مرسل من قبيل

إطلاق السبب و إرادة المسبب، و إلا- فهو استعارة تمثيلية، و الاستعارة جزء من المجاز، و كان ذلك تعبيراً عن إرادة الانتقام، و استحقاق العقاب، كما يجرى ذلك عند البشر كأمثال غضب الراعى على رعيته، و إلى هذا ذهب الشيخ الطوسى بقوله: «و أما الغضب من الله فهو إرادة العقاب المستحق بهم، و لعنهم و براءته منهم» «٣».

و للغضب إفادة شمولية أخرى تستوعب جميع من تنكب القصد، و عدل عن الجادة، ذلك لاقتترانه باستعمالات القرآن الكريم مع اللعنة، و مع الرجس، و مع العذاب العظيم. فالأول كقوله تعالى: مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ «٤».

و الثانى كقوله تعالى قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ «٥».

(١) الجرجاني، أسرار البلاغة: ٦٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف: ٧١ / ١.

(٣) الطوسى، التبيان: ٤٦ / ١.

(٤) المائدة: ٦٠.

(٥) الأعراف: ٧١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٥٩

و الثالث كقوله تعالى فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «١».

٦- و قد تجلى الايجاز القولى فى هذه السورة بقصر كل لفظ على المعنى المراد، و مطابقتها لمعناه بما لا يزيد عليه، و لا يتخلف عنه، فاستغنى بالحمد عن البيان الكثير فى إبانة الهيئات المركبة لمقتضيات الحمد، و كونه ربا للعالمين طوى صفحا عن ذكر جزئيات الخلق و شئون إدارته، و كونه الرحمن الرحيم استعاض بهما عن بيان الصفات الفعلية، و كونه ملك يوم الدين، استغناء عن ذكر آلائه فى الدنيا جميعا، و قدراته فى الآخرة كافة، و تعبيره فى كل ذلك عن الحقائق الهائلة مساو للتعبير عن الامور العقلية، فقصر العبادة عليه و الاستعانة به، يقتضى طلب الهداية منه بأبعادها المحيية المرضية، و شمول العموم بالمغضوب عليهم و بالضالين، أغنى عن التفصيل المتناول فى الاقسام و الملل و النحل و الديانات و المقصرين.

### الصياغة الدالية:

١- فى الابتداء: ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) دلالة على أمور:

أ- تعليم الانسان البدايات المتميزة، و أدب الخطاب، و حسن الابتداء، و الارتباط بالله تعالى منذ البدء بكل قول و عمل و تخطيط.

ب- إن الامر العظيم إنما يبدأ به باسم المبدع العظيم، و أن كل ذى شأن باطل إن لم يقترب بذكره تعالى، و إن مشروعية هذا الذكر دال على مشروعية ما يراد به، و إلا- فلا- يكتب له الكمال و النظام و الاستيعاب، إذ بدونه يبقى كل مشروع ناقصا، و يظل كل أمر مترزلا.

ج- فى البسمة إضافة تشريفية لهذا الانسان، بأن علمه أن يقترب بدؤه بأمر الخير و الجد بالله ليس غير فيجعله و ساما، كشأن الأمم فى ذكرها عظمائها، و تكريم رؤسائها، على أنهم فى معرض الفناء و الزوال، و هو فى ديمومة من البقاء و الخلود، و لا مجال للمقارنة بين العناية بمقام

(١) النحل: ١٠٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٠

المخلوقين و إن عظموا، و التبرك و الاعتداد بذات الخالق، إذ المفروق الكبرى تبطل المقارنة.

٢- في قوله تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) عدة دلالات إيحائية:

أ- إثبات وحدة ذاته المقدسة، لأن لفظ «الله» يدل على الكمال المطلق المنتزعة عنه جميع شوائب النواقص، و تفرد به بذلك دليل الوحداية، و لا شريك له في ذلك، فدل بهذا على نفى الشريك، و إثبات الوحداية، و هذا في غاية الكمال عند العرفانيين.

ب- في ذكره تعالى لرب العالمين، بعد البداية بالحمد، دلالة إيحائية بل و مركزية أيضا تحكم بوضوح بأن من مظاهر التوجه له بتمام الحمد، و غاية الشكر و الثناء، و مراسم اختصاصه، بالمدح المطلق، كونه ربا للعالمين باعتبار هذه الربوبية معلما بارزا من معالم الخلق و الابداع و التكوين و الحكمة و التدبير، و كونه كذلك مما يوجب خلوص الحمد له وحده لا شريك له.

ج- إن البداية بعد البسملة بالحمد لله رب العالمين في مقام أدب الخطاب عند العبد في هذه الحياة الدنيا ترتبط ارتباطا وثيقا بآخر الدعاء عند المؤمنين و هم في دار السلام و آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١». مما يشكل مظهرا إجماليا في العود على البدء، و رجوع النهاية إلى البداية، و هو يدل على استمرارية هذا النحو من التأدب في إسباغ صفة الحمد لرب العالمين أولا و آخرا مما يدل على عظم هذه الجملة و جلاله قدرها.

٣- في قوله تعالى مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) دلتان ظاهرتان:

الأولى: الدلالة على الملك العام المطلق، لا التصرف بحدود معينة و أزمنة معينة، لأن الملك بالنسبة لنا حق تخصص و اختصاص، و هذا الحق قد ينتزع في أية لحظة، و قد يبقى لينتزع حين الموت، فهو ليس ملكا

(١) يونس: ١٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤١

واقعا، أما من ملك هذه العوالم الدنيوية و الأخروية مع ديمومه هذا الملك و ذاك لذاته المقدسة فهو المالك الحقيقي، و ذكر يوم الدين من باب ذكر بعض المصاديق الجزئية و التطبيقية لهذا المفهوم العام الذي لا حصر له، و إلا فهو مالك كل شيء له المُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ «١».

الثانية: إثبات يوم القيامة في هذا السياق. قال الطبرسي «و هذه الآية دالة على إثبات المعاد و على الترغيب و التهيب لأن المطلق إذا تصور ذلك لا بد أن يرجو و يخاف» «٢».

٤- اختصاصه بالعبادة، و تفرد بالاستعانة مما يدل عليه قوله تعالى إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥).

٥- في قوله تعالى اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) دلالة على طلب الاستمرار و السيرورة في بقاء الهداية، و الاستدامة عليها في الطريق الأصح بعيدا عن الانحراف و الزيغ في كل متعلقات هذا الكلي العام في أنواعه المختلفة الوقتية و المستقبلية.

٦- في قوله تعالى غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ دلالة على تعدد الطرق و الأهواء و المعتقدات الفاسدة، و الميول و الاتجاهات الباطلة، و أن الطريق إلى الله تعالى واحدة متميزة متمثلة في الصراط المستقيم، فكما تعدد هذه الاتجاهات انفراد الصراط المستقيم، فهو واحد لا تعدد فيه كالنور بالنسبة للظلمات، فالنور واحد و الظلمات متعددة.

**من فقه القرآن:**

دأبت الكتب التي عنيت بفقه القرآن و آيات الاحكام أن تبدأ بسورة الفاتحة، و لا نعلم إدراجها في هذا الباب، إلا أنه يحتمل وجهين: الأول: التبرك بإيراد السورة باعتبارها فاتحة الكتاب الكريم، فكما ابتداء الله بها في كتابه، فقد ابتداء بها المصنفون في أحكامه، و لا اعتراض لنا على هذا الوجه لأنه مظهر من مظاهر التيمن، و إن خالف سنن المنهج الموضوعي.

(١) التغابن: ١.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ٢٥ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٢

الثاني: أن من بين آيات السورة المباركة، آيات للأحكام، ولا مجال لاعتبار ذلك، إذ لا حكم شرعيًا بها في الاصطلاح الدقيق للأحكام، شأنها بذلك شأن أية سورة أخرى لا ذكر فيها لحكم، أما الأحكام التي فرعها الفقهاء باعتبار آخر فهي لا تتعلق بالسورة ذاتها، وإنما مجالها الروايات والأحاديث والسنن وهي شيء والقرآن شيء آخر، أي إن الفاتحة بحد ذاتها ليست حكمًا في أمر أو نهى أو استحباب أو كراهة أو إباحة، أما الجزئيات في التفرع، والروايات في وجوب تلاوتها في الصلاة، وأن البسملة آية منها، أو ليست بآية على رأي آخر، وحكمها في الجهر والإخفات، وموقعها من الترك أو الإتيان: فكلها أحكام متعلقة بالسنة لا بالكتاب، فهي تستمد من أدلة خارجية وتستنبط في ضوء قواعد مستقلة، أي أن تلك الأحكام التشريعية قضايا متعلقة بالسورة، لا نابعة من صميمها.

نعم استفاد المحقق الأردبيلي (ت: ٩٥٣ هـ) من بعض آيات السورة ما يلي:

أ- الاستدلال على راجحية التسمية عند الطهارة بل عند كل فعل إلا ما أخرجه دليل «١».

ب- استظهر رجحان قول بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) عند كل فعل للخبر المشهور: كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه بالحمد فهو أبترو وأجزم «٢».

ج- في قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) يدل على وجوب تخصيصه تعالى بالعبادة، إذ حاصله قولوا: نخصك بالعبادة ولا نعبد غيرك، فيجب العبادة والاخلاص فيها حتى يحسن الأمر بالقول، ويكونوا هم الصادقين في القول وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ يدل على عدم جواز الاستعانة في العبادة بغيره تعالى «٣».

د- وفي قوله تعالى اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) يستدل على

(١) الأردبيلي، زبدة البيان: ٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤.

(٣) المصدر نفسه: ٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٣

مشروعية الدعاء بل على استحبابه مطلقا «١».

و يجاب عما تقدم: إن استفادة هذا الرجحان بالنسبة للتسمية والحمد إنما عرف من خلال الأخبار والروايات الدالة عليه لا من الآيات. و أما اختصاص العبادة بالله تعالى فلا ينافش به أحد، و تقدم في البحث البياني إيضاح ما يدل عليه، و أما الاستعانة: فهي على قسمين: ما كان منها منحصرا بالله تعالى بما هو إله في ذاته فلا يشركه بها أحد، و ما كان استعانة بين العباد بالوسائل المشروعة لتحقيق الأغراض الدنيوية أو الدنيوية، مما يعد تماسكا و اتحادا و قوة فلا مانع في ذلك بدلالة قوله تعالى: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى «٢».

أما مشروعية الدعاء و استحبابه فلا يخلو من ظهور «٣» و يدل عليه قوله تعالى وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ «٤».

و قوله تعالى أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ «٥» و غيرهما من الآيات مضافا إلى تضافر الروايات فيه.

و قد استفاد الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) من قوله تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) دلالة على وجوب الشكر على نعمه «٦». و لا مانع من

هذا بل المقتضى هو ذلك، إلا أن هذا و أمثاله ليس من الفروع المستفيضة التي استفادها الفقهاء و رتبوا عليها آثار الاحكام بل هي أحكام تشريعية و لكن لا دلالة من أصل السورة عليها، كالبحت في البسمله، و وجوب الفاتحة التعييني، أو التخيير بينها و بين سورة أخرى، في أداء الصلاة، الواجبة و المستحبة، و حكم الجهر بها و الاخفات، و ترجمة الفاتحة و الاستغناء عنها بلغة أخرى، مما هو أحكام فقهية تطول و تقصر. إن أمثال هذه المباحث

(١) المصدر نفسه: ٦.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) ظ: الطباطبائي اليزدي، تفسير آيات الاحكام: ١ / ٤٩.

(٤) البقرة: ١٨٦.

(٥) النمل: ٦٢.

(٦) الطبرسي، مجمع البيان: ١ / ٢٣.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٤

و إن كانت أحكاما إلا أنها لا تنطلق من داخل السورة، بل تتعلق بها هامشيا، فهي غيرها، و هي امتداد لها.

### بين الزمان و المكان:

نزلت هذه السورة المباركة في مكة المكرمة، و ادعى بعضهم - كما سيأتي - أنها مدنية، و يبدو أن الأول هو الصحيح لأمرين:

الأول: إن فاتحة الكتاب هي السبع المثاني على أرجح القولين لتوافر

الحديث النبوي بذلك و نصه: «فاتحة الكتاب هي السبع المثاني» (١).

و قد وردت السبع المثاني في سورة الحجر بقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) (٢)» و سورة الحجر مكية

بالاجماع، فاقضى ذلك التنبه المسبق أن نزول السبع المثاني كان متقدما على سورة الحجر، و ذلك لاقتصاصها خبرها، فهي مكية

بالأسبقية، و الغريب أن يدعى ابن جزى الكلبي أن الآية السابعة و الثمانين منها مدنية فحسب (٣) و يرى أن السبع المثاني هي السور

السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال مع براءة (٤).

الثاني: إن الصلاة شرعت في مكة، و

«لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»

كما هو متواتر، و هذا يقتضى نزول السورة قبل أو عند تشريع الصلاة، لارتباط الصلاة بالفاتحة، فالفاتحة إذن مكية.

و هذا لا يمانع من تصور نزولها مرة ثانية - كما لو قيل ذلك - في المدينة نظرا لأهميتها في التشريع على سبيل التأكيد، و بيان المنزلة،

لو دعم ذلك دليل تاريخي أو نصي دقيق، أما مع افتقارنا إلى ذلك فمكيتها فقط لا شك فيه.

(١) ظ: الطباطبائي، الميزان: ١ / ٢٢.

(٢) الحجر: ٨٧.

(٣) ابن جزى، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل: ٢ / ١٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ١٤٨.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٥

## إحصاء بيلغرافي:

أولاً: أجمع المسلمون أن عدد آياتها سبعة بنص آية سورة الحجر رقم (٨٧)، وقد اختلفوا في البسمله، أ هي آية أم لا؟ فمن عدّ البسمله آية ذهب إلى أن قوله تعالى صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧) آية واحدة، ومن لم يعدها آية ذهب إلى أن صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ آية مستقلة، وأن غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ آية مستقلة أخرى، ليتكامل لديه عدد آيات السورة «١».

ثانياً: توسع العلماء والمفسرون في إيراد عدة أسماء لهذه السورة منها ما هو مروى، ومنها ما هو مستنبط:

فقد أورد لها الطبرسي عشرة أسماء «٢». وقد أورد لها القرطبي اثني عشر اسماً «٣». وقد ذكر الألوسي: أن بعض العلماء قد أوصل أسماءها إلى نيف وعشرين اسماً «٤».

ولكن المشهور بين العلماء والمفسرين منها ثلاثة:

١- الفاتحة: وذلك لأن المصحف قد افتتح بها في ترتيب سورته، فكانت السورة الأولى فيه.

قال الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) «سميت بذلك لافتتاح المصاحف بكتابتها ولوجوب قراءتها في الصلاة فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرآن في الكتاب والقراءة» «٥».

٢- السبع المثاني: وذلك لوجوب الاتيان بها مرتين في كل صلاة، مرة في الركعة الأولى، ومرة في الركعة الثانية «٦». وقيل سميت بذلك لأنها

(١) ظ: الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٤٤.

(٢) الطبرسي، مجمع البيان: ١٧/١.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١/١١١.

(٤) الألوسي، روح المعاني: ١/٣٧.

(٥) الطبرسي، مجمع البيان: ١/١٧.

(٦) ظ: الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ٤٤٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٦

مشتقة من الثناء لأن فيها ثناء على الله «١».

ولا منافاة من الجمع بين القولين، فهي تنثى بالصلاة، وهي مشتملة على الثناء لله.

٣- أم الكتاب أو أم القرآن: قال الجصاص «إذا قيل أم الكتاب فقد علم أن المراد كتاب الله تعالى الذي هو القرآن، فقيل تارة أم القرآن، وقيل تارة أم الكتاب، وقد رويت العبارة باللفظين جميعاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم» «٢».

أما تسميتها بأم الكتاب، فلأنها اشتملت على أهم مقاصد الكتاب الكريم في موضوعاته ودلالاته وعلاماته قال ابن جزى «هذه السورة جمعت معاني القرآن العظيم كله فكانها نسخة مختصرة منه، تعلم ذلك حاصلها في الألوهية في قوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) والدار الآخرة في وقوله مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ (٤) والعبادات كلها من الاعتقادات والاحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في قوله إِيَّاكَ نَعْبُدُ والشريعة كلها في قوله: الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ والانبياء وغيرهم في قوله:

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ وذكر طوائف الكفار في قوله غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ «٣».

وما عرضه ابن جزى استفادته هو وأمثاله من الروايات الصادرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بما سبق بيانه في البحوث الروائية.



و هناك وجه آخر فى تسميتها بأى الكتاب و ذلك لأنها متقدمة على سائر سور القرآن العظيم، و العرب تسمى كل جامع أمر، أو متقدم لأمر إذا كان له توابع أما، فيقولون: أم الرأس للجلدة التى تجمع الدماغ، و أم القرى لأن الأرض دحيت من تحت مكة فصارت لجميعها أما «٤».

و أما تسميتها بأى القرآن، فلاشتمالها على المعانى التى فى القرآن من

(١) ابن جزى، كتاب التسهيل: ١٤٨ / ٢.

(٢) الجصاص، أحكام القرآن: ٢٤ / ١.

(٣) ابن جزى، كتاب التسهيل: ٣٤ / ١.

(٤) الطبرسى، مجمع البيان: ١٧ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٧

الثناء على الله تعالى بما هو أهله، و من التعبد بالأمر و النهى و من الوعد و الوعيد «١».

و قيل سميت بذلك لأنها أصل القرآن، و الأم هى الاصل، و إنما صارت أصل القرآن لأن الله تعالى أودعها مجموع ما فى السور، لأن فيها إثبات الربوبية و العبودية، و هذا هو المقصود بالقرآن «٢».

و منشأ هذا الرأى يعود لابن خالويه (ت: ٣٧٠ هـ) فهو يقول: «و سميت أم القرآن لأنها أول كل ختمه و مبتدؤها، و يسمى أصل الشىء أما «٣»».

### أضواء تربوية:

المبادئ العامة لتفسير القرآن ٢٤٧ أضواء تربوية: ..... ص : ٢٤٧

آن لهذا الانسان الطاغى أن تستيقظ مشاعره، و تنبه عواطفه، فيرعوى عما هو عليه من الغفلة و التماذى؟ أما آن لهذا العبد العاصى أن درك قيمته، و يقوم بحياته، فيستقيم كما أمر، و يتقى الله كما يراد، فلا يتجاوز قدره، و لا يتعدى طوره، أما حان لهذا المخلوق الضعيف المتلاشى، أن يشاهد هذه الملكوت الصامدة الخالدة، فيلتمس من قوتها لضعفه، و من قدرتها لقدره، و من كمالها لنقصه، و من سنائها لحياته ...

هذه حقيقة متلازمة تتطلبها صيغة الحمد مقترنة برب العالمين، رب الكائنات العلوية و السفلية، و العوالم المحسوسة و المتخيلة، الثابتة و المتغيرة، الناطقة و الصامتة، المشيرة و المومية .. حقيقة أطلقها بارئها، و فطرة أوجدها منشئها، تستوعب الحمد المختص به، و الثناء المخصص له، لا يشاركه بذلك أحد، و لا ينازعه شريك، منزها عن الأضداد و الأنداد، أخذ على نفسه الرحمة خاصة أو عامة، فهو رحيم بالمؤمنين، و رحمن بالعالمين، فى الدنيا و الآخرة، فالعوالم بقبضته، و السماوات مطويات بيمينه و سِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَا يَؤُدُّهُ حِفْظُهُمَا وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ «٤».

(١) الزمخشري، الكشاف: ٢٣ / ١.

(٢) الطبرسى، مجمع البيان: ١٧ / ١.

(٣) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ١٦.

(٤) البقرة: ٢٥٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٤٨

إلى متى ينزل العبد قضاياه وحواله بعد مثله، و يسير بركاب من لا يدفع عن نفسه ضرا، و لا يجلب لها نفعا، إلا باشاءة محيط عزيز مقتدر، فهلا- أنزل به مهماته، و توجه إليه في مشكلاته، أفعجز عن تدبير أمره، و تسخير الحياة له؟ و من ذا يطاول هذه القدرة المستفيضة، التي أدارت الشمس و القمر، و سيرت الكواكب و النجوم، و صرفت الأكوان و العوالم، و أحاطت بكل شيء، لا يعزب عنه جزئى الحياة و كليها، و لا يفلت منه دقيق الأمور و معقدها، و كيف لا يكون كذلك و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو و يعلم ما فى البر و البحر و ما تسقط من ورقه إلا يعلمها و لا حبة فى ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا فى كتاب مبين (٥٩) «١». أ فمن أحصى هذه الكائنات بدقائقها يعجز عن إدارة هذا الفرد العاجز، و من سخر هذه العوالم بأنظمتها المعقدة يعيا بهذا الخلق المحدود، و كل ما فى الوجود يتناهى إلا غير المتناهى، فمن أجدر منه بالعبادة الخالصة المطلقة، و من أحق بالاستعانة ضرورة و فطرة.

و كما جمع إلى نفسه ملكوت السماوات و الأرض، و ما فيهن و ما بينهن، و ما فوقهن و ما تحتهن، مما نعلم و مما لا نعلم، فقد ضم إلى ذلك ملكوت يوم القيامة بأهواله و عجائبه، و أحكامه و غرائبه، و حشره و نشره، و ثوابه و عقابه، و جزائه و حسابيه، ليتم الملك من جوانبه و أطرافه كافة. و هنا تتجلى العظمة القصوى، و تبدو فلسفة التربية لهذا العبد الميت العائد ترابا و عظاما نخرة بالية، و المعاد جسمانيا و روحانيا، يتطلع إلى جيله فى الحياة الدنيا، و إذا بهم أمامه و من حوله فى الحياة الأخرى، جنبا إلى جنب، و إذا بمسلسل أعماله و أفعاله و إشاراته و أقواله و خباياه و خفاياه، تنتصب ماثلة شاخصة لا يحجبها شيء، فهى عالم حسى متحرك ينبض بالحركة، و إذا بصوامت آثاره ناطقة، و قوالب أعضائه شاهدة، ذلك يوم الفصل، و الشاهد فيه هو الحاكم، فكما بدأ يعاد، و كما أميت يحيى، و وضعت الموازين و حان الجزاء، و الله سريع الحساب يوم تبدل الأرض غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار (٤٨) و ترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد (٤٩)

(١) الانعام: ٥٩.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٦٩

سراييلهم من قيران و تغشى وجوههم النار (٥٠) «١».

فلا مانع و لا دافع و لا شافع إلا من أوتى حظا عظيما، و هدى طريقا مستقيما، لم ينحرف باتجاه أعداء الله، و لم يتلوث بحياة الشك و الغواية، ذلك من فاز بنعمة الله و رحمته، فابتعد عن سبل العمى و الضلال، و اعتصم بحبل الله المتين، فرضى و اغتبط، فلا سخط و لا غضب، و لا جهد و لا نصب.

و هنا تلمس منهجا تربويا، و توجيها أخلاقيا تملية هذه السورة المباركة بهذا الملحظ الدقيق لتريك بوضوح و سماح من اختصاص بالحمد و انفراد بالعبادة، و سيطر على ملكوت العوالم كافة، له بها التصرف و الهدى، فيه الاستعانة، و له مظاهر الخشوع من العباد، و كأنه بهذا يريد أن يلهمنا أدب الدعاء مع الله، و أدب الخطاب لله، و أدب التوجه نحو الله، و أدب التعظيم الخالص لله، بكل يسر و إيجاز و موضوعية.

و يؤكد هذه الحقيقة الكبرى فى مجالاتها المتعددة، ما

ورد عن الامام الحسن العسكرى عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين الامام على عليه السلام أنه قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: الله عز و جل: قسمت فاتحة الكتاب بينى و بين عبدى، فنصفها لى و نصفها لعبدى، و لعبدى ما سأل، إذا قال العبد:

بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله جل جلاله: شهد لى عبدى باسمى و حق على أن أتم له أموره، و أبارك له فى أحواله، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين، قال الله جل جلاله: حمدنى عبدى، و علم أن النعم التى له من عبدى، و أن البلايا التى دفعت عنه بتطولى، أشهدكم أنى أضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، و أدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا، و إذا قال: الرحمن الرحيم، قال

الله جل جلاله: شهد لي عبدى أنى الرحمن الرحيم، أشهدكم لأوفرن من رحمتى حظه، ولأجزلن نصيبه، فإذا قال: مالك يوم الدين، لأسهلن يوم الحساب حسابه، ولأقبلن حسناته، ولأتجاوزن عن سيئاته، فإذا قال: إياك نعبد، قال الله عز وجل: صدق

(١) إبراهيم: ٤٨-٥٠. المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٠

عبدى، إياى يعبد، أشهدكم لأثيينه على عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه فى عبادته لى، فإذا قال: وإياك نستعين، قال الله تعالى: بى استعان عبدى، والتجأ إلى، أشهدكم لأعينته على أمره، ولأغيشته فى شدائده، ولأخذن بيده يوم نوائبه، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، قال الله عز وجل: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل، وقد استجبت لعبدى وأعطيته ما أمل، وآمنت مما منه و «جل» (١).

و هذا النص إضافة إلى ما تقدم، ترغيب أخلاقى، و حث تعبدى للتدرع بصدق التوجه نحو الله بمضامين هذه السورة، فكأن الله تعالى قد ألهم عبده مع التخطيط المسبق طريقة العبادة الخالصة بما علمه إياه بالنيابة عنه عند إنبته إلى فى أسمى مراتب العبودية المحضة، و هذا أعظم درس تربوى منظم تحققه السورة المباركة.

فإذا جئنا إلى هذه العبادة من خلال هذا الدرس، الذى تحثنا عليه السورة، فإننا نلاحظ - بعد التدبر - أن هذه العبادة منهج تربوى أصيل، لأنها تنظم حياة الفرد و الأمة، و توجه دفة الاجتماع، و تسير نظام الكون، فإذا التزمت بأصولها، و طبقت بمفاهيمها، أعطت ثمار مصداقيتها، فلا عدوان على العباد، و لا جبروت فى الأرض، و لا بخس لأشياء الناس.

العبادة بنقائها قوة مسيطرة على العالم، تمنع الظلم، و تصد الفحشاء، و تطارد البغى، لأنها تصقل الروح الانسانية، فيتجلى بها الناس فى منظور واحد، أخوة فى ذات الله، و سواسية بين يدى الله تعالى، فلا إثرة و لا اعتداء و لا تطاول، فالعبد الصالح حينما يلتقنه الله القول: إياك نعبد و إياك نستعين، فإنه لا يعبد إلا الله، و لا يستعين إلا بمولاه، و فى هذين اللحاظين مدركان: أ- انطماس آثار الصنمية المقيتة و عبادة الأوثان.

ب- اندثار الاستعانة بالطواغيت و أرباب السلطان، و إذا تم ذلك عرف الانسان ربه، و لم يخف إلا ذنبه، و احترم حقوق الجماعة الانسانية فلا قتل و لا قهر و لا اغتصاب، فهو لا يدأب إلا باتجاه يسدد خطواته من

(١) الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١/ ٣٠ و ما بعدها.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧١

الزلل، و لا يرجو إلا مزيدا من الأجر لليوم الآخر، حينذاك يزهد فى أعراض الدنيا و زخارفها، و يرغب عن مصادر الجاه و بهارجه، لأنها لا يقدمانه خطوة فى ركاب الخلد، و لا يقربانه زلفه من الله، و الملحظان الأخيران الخلد و الزلفة و حدهما يشكلان الهدف المركزى من عبادته، و إذا كان الأمر كذلك فهو مشغول بنفسه عن غيره، و بذاته عن الآخرين، يؤمل خيره، و يؤمن شره، هذه حياته حياة آمنة مطمئنة، تظللها أبراد الرحمة، و هذه سريرته نقيه صافية مشرقة تواكبها ظلال القناعة، الذات بعيدة عن الآثرة و الجاه، و الروح قريبة من الصفاء و التجلى، و البدن يرفل بذات خيرة و روح متألئة، فما أشغله عن الهنات، و ما أبعده عن النزوات، طماح إلى مدارج الكمال، و اتصال بعوالم السعادة الحققة، ذلك هو القدوة فى العبادة، و الذروة فى الاخلاص، فإذا اقتدى به غيره اهتدى، و هكذا يتكامل المجتمع ابتداء بالفرد الصالح يضم إليه أخوه الصالح فيشكلان جماعة متحابه فى ذات الله، محققين معنى العبادة فى التطبيق، و أصالتها فى المصادقية، و هكذا يكون المجتمع و يتكون كما كان من ذى قبل، فقد بدأ الاسلام بمحمد صلى الله عليه و آله و سلم و آمن معه على عليه السلام و انضم إليه المؤمنون، و إذا بهم اليوم مئات من الملايين، و لكن شتان بين هؤلاء و أولئك، فقد أضع

مجمل الناس الصلاة، و اتبعوا الشهوات، و لا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها، ألا و هو صدق العبادة. و العبادة تارة تكون لاسقاط الواجب، و تارة تكون لطلب المنزلة الرفيعة، فالأول لا مزية له، و الثاني يخلص إلى جوهر العبادة، لهذا فقد ذهب بعضهم إلى أن بين العبادة المجزية و المقبولة عموماً مطلقاً، فكل عبادة مقبولة مجزية، و لا عكس، و حاصله عدم التلازم بين القبول و الاجزاء، فالمجزي ما يخرج به المكلف من العهدة، و القبول ما يترتب على فعله الثواب، و استدلوا على ذلك بوجوه «١»: الأول: سؤال إبراهيم و إسماعيل عليه السلام التقبل مع أنهما لا يفعلان إلا صحيحاً.

(١) ظ: البهائي، الكشكول: ١ / ٩٩، دار العلم، د. ت.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٢

الثاني: قوله تعالى فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ «١».

الثالث:

في الحديث: أن من الصلاة لما يقبل ثلثها، و نصفها، و ربعها.

الرابع: أن الناس مجمعون على الدعاء بقبول الاعمال، و هو يعطى التلازم.

الخامس: قوله تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ «٢» و قد قسم أمير المؤمنين الامام على عليه السلام العبادة إلى ثلاثة أقسام فقال: «إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، و إن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، و إن قوما عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار» «٣».

و هذا التقسيم دقيق للغاية، لأن من طبيعته الصيغة التجارية طلب الربح و العوض، و لأن طبيعته التأطر بلباس العبودية الذل و الخوف، و لأن طبيعته الحرية، شكر النعم، و عرفان فضل المنعم بأداء حقوقه.

هذا ملخص إجمالي في تربوية هذه السورة، نفعنا الله به يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

«بحوث روائية»:

إشارة

الروايات الواردة بخصوص فاتحة الكتاب تنتظم عدة مجالات متناسقة، يختص قسم منها باعتبار البسملة جزءاً من السورة، و آخر بلحاظ فضل البسملة، و ثالث باعتبار الفاتحة عدلاً للقرآن، فتعمد إلى بيان أهميتها و أفضليتها، و تتحدث عن اشتمالها على جملة من المعارف الإلهية، و الآداب العامة للمسلمين بين يدي الله تعالى.

و القسم الرابع يتناول تفسير شذرات من ألفاظها، و يلتمس قبسات من أنوارها، و لا مجال لحصر هذه الروايات و استيعابها، و لكننا نختار كوكبة منها في هذه المجالات المتعددة.

(١) المائدة: ٢٧.

(٢) المائدة: ٢٧.

(٣) نهج البلاغة: ١ / ٢٠٥، شرح محمد عبده، مطبعة الاستقامة د. ت.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٣

## (١) جزئية البسملة:

- ١- قيل لأمر المؤمنين الإمام على عليه السلام: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن (بسم الله الرحمن الرحيم) أ هي من فاتحة الكتاب؟ فقال نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرؤها ويعدّها آية منها، ويقول هي السبع المثاني «١».
- وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها آية بصريح رواية الإمام على عليه السلام عنه دليل جزئيتها.
- ٢- عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، وقد بلغه أن أناسا ينزعون (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال: هي آية من كتاب الله أنساهم إياها الشيطان «٢».
- وهذا نص باعتبارها آية لا مجال معه إلى التأويل.
- ٣- عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: سرقوا أكرم آية في كتاب الله: بسم الله الرحمن الرحيم «٣».
- وقد عبر الإمام محمد الباقر عليه السلام بالكفاية عن عدم عدها آية بأن هذا الطرح سرقة، و آية سرقة؟ إنها سرقة لأكرم آية في كتاب الله، فكأن من لم يثبتها- وقد أثبتت في المصحف- كمن سرقها.
- ٤- عن الإمام الصادق عليه السلام: ما أنزل الله من السماء كتابا إلا
- 
- (١) الصدوق، عيون أخبار الرضا: ١ / ٣٠١.
- (٢) العياشي، التفسير: ١ / ٢١.
- (٣) المصدر نفسه: ١ / ١٩. المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٤
- وفاتحته: بسم الله الرحمن الرحيم، وإنما كان يعرف انقضاء السورة، بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداء للأخرى «١».
- وهذا تصريح بجزئيتها، لأنها لو لم تكن كذلك، في معنى ابتداء السور بها، وما فلسفه خلو براءة منها.
- ٥- عن الإمام الصادق عليه السلام: ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية من كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظروها، وهي بسم الله الرحمن الرحيم «٢».
- والرواية تصريح بأمرين الأول جزئيتها، والثاني الجهر بها إن كان المراد هنا من الاظهار الجهر، وقد يدل على ذلك الروايتان التاليتان:
- ٦- عن الإمام الباقر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بسم الله الرحمن الرحيم ويرفع صوته بها، فإذا سمعها المشركون ولوا مدبرين، فأنزل الله: وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أذْبَارِهِمْ نُفُورًا «٣» «٤».
- ٧- عن الإمام الصادق عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم: أحق ما أجهر به، وهي الآية التي قال الله عز وجل وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أذْبَارِهِمْ نُفُورًا «٥».

من عموم الروايات المتضافرة يبدو بما لا يقبل الشك اعتبار البسملة جزءاً من السورة، وهو المعروف و الشائع من مذهب أهل البيت عليه السلام، و مذهب الشافعي بخاصة كما سنشير إلى ذلك فيما يلي:

فقد أجمل أبو عبد الله، الحسين بن أحمد المعروف بابن خالويه (ت: ٣٧٠ هـ) مجمل الآراء في ذلك، بما يروى عن النبي سواء أ كان الاختلاف بين الائمة أم العلماء أم القراء فقال:

(١) العياشي، التفسير: ١٩ / ١.

(٢) المصدر نفسه: ٢٢ / ١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠ / ١.

(٤) سورة الاسراء: ٤٦.

(٥) على بن إبراهيم، التفسير: ٢٨ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٥

«اعلم أن بسم الله الرحمن الرحيم آية من سورة الحمد، و آية من أوائل كل سورة في مذهب الشافعي، و ليست آية في كل ذلك عند مالك، و عند الباقيين هي آية من أول أم الكتاب و ليست آية في غير ذلك «١». و قد ذكرنا الاحتجاج في ذلك في كتاب شرح أسماء الله عز و جل، فأما القراء السبعة فيثبتون بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة إلا في براءة ما خلا أبا عمرو و حمزة فإنهما كانا لا- يفصلان بين السورتين بيسم الله الرحمن الرحيم .. سمعت الشافعي يقول: أول الحمد بسم الله الرحمن الرحيم، و أول البقرة الم، و كل ما ذكرت من اختلاف العلماء و القراء فقد رويت عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. و الذي صح عندي فمذهب الشافعي و إليه أذهب «٢».

(١) في هامش إحدى نسخ الكتاب ما يلي: «قال ابن هشام غفر الله له: هذا وجه حسن، و هو أنها تثبت في أول الفاتحة فهي آية منها، و هي في أول كل سورة إعادة لها فلا تكون منها، فيقال هي آية في أول كل سورة و ليست آية من كل سورة». و هذا الوجه كما ترى، و لكنه تنصيص على جزئيتها من الفاتحة.

(٢) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة في القرآن: الكريم / ١٥.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٦

## (٢) أهمية البسملة:

هناك عدة روايات تتحدث عن أهمية البسملة و جلاله قدرها، بمختلف الاتجاهات نشير إلى بعضها:

-١-

عن إسماعيل بن مهران، عن الامام الرضا عليه السلام، قال: إن بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها «١».

-٢-

عن الامام الرضا عليه السلام، و قد سئل و أي آية أعظم في كتاب الله، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم «٢».

-٣-

عن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام (يعني الامام جعفر بن محمد الصادق): عن السبع المثاني و القرآن العظيم، أ هي الفاتحة؟ قال نعم، قلت: بسم الله الرحمن الرحيم من السبع قال: نعم هي أفضلهن «٣».

٤-

عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من أراد أن ينجي الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، فانها تسعة عشر حرفاً، ليجعل الله كل حرف عن واحد منهم «٤».

(١) العياشي، التفسير: ٢١ / ١.

(٢) المصدر نفسه: ٢١ / ١.

(٣) البحراني، تفسير البرهان: ٤١ / ١.

(٤) المصدر نفسه: ٤٣ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٧

٥-

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إذا مر المؤمن على الصراط فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم، طفيت لهب النار، تقول: جز يا مؤمن، فإن نورك قد طغى لهبي «١».

٦-

أورد الزمخشري في ربيع الأبرار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا يرد دعاء أوله: بسم الله الرحمن الرحيم «٢».

٧-

عن أمير المؤمنين: أن رسول الله حدثه عن الله عز وجل أنه قال: كل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو أبت «٣».

و يتجلى بما سبق عدّ البسملة: قريبه من اسم الله الأعظم و يوكل معرفة ذلك إلى أهله و أنها أعظم آية في كتاب الله و أنها من السبع المثاني بل هي أفضل السبع المثاني، و أنها تطفئ لهب النار، و لا يرد الدعاء إذا بدئ بها، و ان الأمر ذا البال ينبغي أن يبدأ بها.

(١) البحراني، تفسير البرهان: ٤٣ / ١.

(٢) المصدر نفسه: ٤٣ / ١.

(٣) المصدر نفسه: ٤٦ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٨

### (٣) فضل الفاتحة:

لا ريب في فضل هذه السورة لأنها جعلت عدلاً للقرآن العظيم في آية سورة الحجر، و لحتمية تلاوتها في الصلاة، و لاشتغالها على خلاصة المعارف الإلهية، و قد أورد العلماء عدة روايات في ذلك ثبت بعضها فيما يلي:

١-

روى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت ألا أعلمك أعظم سورة من القرآن؟ قال: الحمد لله»

رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) هي السبع المثاني و القرآن العظيم الذي أوتيته» (١).

-٢-

روى الصدوق باسناده عن الامام الحسن بن علي العسكري عن آبائه عليهم السّلام عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنه قال: بسم الله الرحمن الرحيم آية من فاتحه الكتاب، و هي سبع آيات، تمامها: بسم الله الرحمن الرحيم. سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم يقول:

إن الله تعالى قال لى يا محمد: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) «٢»، فأفرد الامتنان على بفاتحه الكتاب، و جعلها يزاء القرآن العظيم، و إن فاتحه الكتاب أشرف ما فى كنوز العرش» (٣).

(١) البخارى، الصحيح: ١٠٣/٦.

(٢) الحجر: ٨٧.

(٣) البحرانى، تفسير البرهان: ١/٤١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٧٩

-٣-

أورد الزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم أنه قال لأبى بن كعب: «أ لا أخبرك بسورة لم تنزل فى التوراة و الانجيل و القرآن مثلها؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فاتحه الكتاب إنها السبع المثاني و القرآن العظيم الذي أوتيته» (١).

-٤-

روى العياشى بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم أنه قال لجابر بن عبد الله الأنصارى: يا جابر، أ لا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله فى كتابه؟ قال:

بلى بأبى أنت و أمى يا رسول الله علمنيها، قال: فعلمه الحمد لله أم الكتاب، ثم قال له: يا جابر أ لا أخبرك عنها؟ قال: بلى بأبى أنت و أمى فأخبرنى، قال: هي شفاء من كل داء إلا السام، يعنى الموت» (٢).

-٥-

و روى العياشى بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم أنه قال: «إن الله منّ على بفاتحه الكتاب من كثر الجنة» (٣).

-٦-

قال الامام الصادق عليه السّلام: «اسم الله الأعظم مقطع فى أم الكتاب» (٤).

-٧-

قال الامام الصادق عليه السّلام: «من لم تبرأه الحمد لم يبرئه شيء» (٥).

-٨-

و عن الامام الصادق عليه السّلام فى سؤال و جواب قال: «السورة التى أولها تحميد، و أوسطها إخلاص، و آخرها دعاء: سورة الحمد» (٦).

و الروايات المتقدمة معلم ظاهر من معالم أهمية السورة القصوى باجماع المسلمين، تصرح بعظم قدرها من الكتاب الكريم، و تنبئ عنها بمدارك متنوعة، فهى أعظم سورة فى القرآن، و قد أفرد فيها الامتنان على رسول الله، و هى عدل القرآن العظيم، أولها تحميد، و أوسطها إخلاص، و آخرها دعاء، و هى من كنوز الجنة، و أشرف ما فى كنوز العرش شرف ما بعده شرف، و منزلة لا تعدلها منزلة.



(١) الزمخشري، الكشاف: ٧٥ / ١.

(٢) العياشي، التفسير: ٢٠ / ١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢ / ١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ٢٠ / ١.

(٦) المصدر نفسه: ١٩ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨٠

#### (٤) شذرات تفسيرية:

تدور هذه الشذرات من التفسير الروائي لأجزاء من سورة الفاتحة حول بعض المعالم اللغوية، و الظواهر العريية، و بيان معنى المفردات بمدركين: المعنى الاجمالي العام، و المعلم التطبيقي الخاص، و ذلك من قبيل انطباق المفاهيم على المصاديق، و استنباط المعاني الثانوية من المعاني الأولية، و كل ذلك لا ينافي عموم القرآن و شموليته لما هو أوسع منها، و الله العالم.

-١-

عن هشام بن الحكم أنه سأل الامام جعفر الصادق عليه السلام عن أسماء الله و اشتقاقها، قال: الله مما هو مشتق؟ فقال: يا هشام من إله، و أله تقتضى مألوها، و الاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر و لم يعبد شيئاً، و من عبد الاسم و المعنى فقد أشرك و عبد اثنين، و من عبد المعنى دون الاسم فذلك التوحيد» «١».

و يلاحظ فيما نسب إلى الامام جعفر الصادق ثلاثة أمور:

أ- اشتقاق لفظ الجلالة، و قد تقدم بعض الحديث عنه و يأتي بالمبحث اللغوي.

ب- ان الاسم غير المسمى بخلاف من قال أن الاسم عين المسمى.

ج- أن العبادة الحققة هي عبادة الذات المقدسة توحيداً.

(١) البحراني، تفسير البرهان: ٤٤ / ١.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨١

-٢-

عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام و قد سأل عن معنى الله، فقال: «استولى على ما دق و جل» «١».

-٣-

عن الامام الحسن بن علي العسكري عليه السلام في معنى بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: «هو الله الذي يتأله إليه عند الحوائج و الشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء عن كل من هو دونه، و تقطع الاسباب من جميع من سواه، تقول: باسم الله، أي: أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلا له، و المغيث إذ استغيث، و المجيب إذا دعي» «٢».

أقول: و هذا المعنى نفسه روى عن أمير المؤمنين عليه السلام «٣».

-٤-

عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «و الله إله الخلق، الرحمن بجميع العالم، الرحيم بالمؤمنين خاصة» «٤».

-٥-

عن الامام الصادق عليه السّلام: فى الحمد لله، قال: الشكر لله، و فى قوله: رب العالمين، قال: خالق الخلق، الرحمن بجميع، خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصة، مالك يوم الدين، قال: يوم الحساب، و الدليل على ذلك قوله وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) «٥» يعنى يوم الحساب، إياك نعبد:

مخاطبة لله عز و جل، و إياك نستعين: مثله، اهدنا الصراط المستقيم، قال:

الطريق: هو أمير المؤمنين، و معرفة الامام «٦».

أقول: اشتهر عند أهل البيت عليهم السّلام التعبير عن أمير المؤمنين فى عديد من الروايات بأنه الصراط المستقيم، و ذلك من قبيل تطبيق المفهوم على المصداق كما مرّ، و مثله ما

روى عن الامام الصادق فى قوله تعالى (الصراط المستقيم) قال: هو أمير المؤمنين و معرفته «٧».

(١) الحرانى، تفسير البرهان: ١ / ٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٤٥.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٤٥.

(٥) الصافات: ٢٠.

(٦) البحرانى، تفسير البرهان: ١ / ٤٦.

(٧) المصدر نفسه: ١ / ٤٧+ العياشى، التفسير: ١ / ٢٤+ المجلسى، البحار: ١٨ / ٣٣٦.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨٢

-٦-

عن الامام الصادق عليه السّلام، قال: شكر النعمة: اجتناب المحارم، و تمام الشكر، قول الرجل: الحمد لله رب العالمين «١».

-٧-

عن الامام الصادق عليه السّلام فى قوله تعالى: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ قال: هم اليهود و النصارى «٢».

-٨-

عن الامام الصادق عليه السّلام: المغضوب عليهم: النصاب، الضالين الشكاك الذين لا يعرفون الامام «٣».

قال زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام: «ليس بين الله و بين حجته حجاب، و لا لله دون حجته ستر، نحن أبواب الله، و نحن الصراط المستقيم، و نحن عيبة علمه، و نحن تراجمه و حيه، و نحن أركان توحيده، و نحن موضع سره» «٤».

-١٠-

عن المفضل بن عمر، قال سألت أبا عبد الله الصادق عليه السّلام عن الصراط، فقال: «هو الطريق إلى معرفته عز و جل و هما صراطان: صراط فى الدنيا، و صراط فى الآخرة، فأما الصراط الذى فى الدنيا فهو الامام المفترض الطاعة، من عرفه فى الدنيا و اقتدى بهداه مرّ على الصراط الذى هو جسر جهنم فى الآخرة، و من لم يعرفه فى الدنيا زلت قدمه على الصراط فى الآخرة، فتردى نار جهنم» «٥».

و بانتهاء البحوث الروائية تنتهى جولتنا مع فاتحة الكتاب فى عرضها و تفسيرها و بحوثها و أضوائها و إشاراتنا و لمحاتها و صياغتها، و إحصائها، و فى كل ما يدور حولها، و لقد توسعت فى هذه البحوث و تشعباتها للايحاء بأن القرآن كالبهر لا تبنى عجايبه، و كالكون لا تنتهى ظواهره، فهذه السورة القصيرة فى تعدد آياتها، الكبيرة فى إبانة دلالتها، قد استوعبت هذه النظرات المتشعبة فى إفادتها،

فكيف بهذا القرآن العظيم بكل ثقله و موازينه؟

(١) البحراني، تفسير البرهان: ١/ ٤٦.

(٢) العياشي، التفسير: ١/ ٢٤.

(٣) البحراني، تفسير البرهان: ١/ ٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ١/ ٥١.

(٥) المصدر نفسه: ١/ ٥٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨٣

و كيف بتفسيره تفسيراً شاملاً مستقصياً الجزئيات و الحثيات، و مبرمجاً للسير و الاحداث و التشريعات، إن هذا المدرك من الصعوبة بحيث قد تتعذر الاحاطة الكافية، على أنني أطمح- بحول الله و قوته- أن تكون فاتحة الكتاب فاتحة لتفسير القرآن الكريم تفسيراً منهجياً يبتعد فيه القول عن الطرح التفصيلي، و يقترب من النهج الموضوعي في اطار جديد في الاسلوب و الصياغة و العرض في محاولة للكشف عن مراد الله تعالى بحسب الطاقة الانسانية، و من الله العون و التوفيق.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨٤

### خاتمة المطاف (١) خلاصة و نتائج:

بعد هذه الجولة المضنية في معالم التفسير و ظواهره، و أصوله و مبادئه و تطبيقاته، أودّ أن أضع بين يدي القارئ الكريم كشفاً رمزياً بما توصلت إليه من نتائج نلقى الضوء على الحقائق العلمية التي تبلورت من خلال البحث الموضوعي.

ففي الباب الأول «التفسير في المستوى النظري» بفصوله الخمسة تمّ ما يأتي:

أ- في الفصل الأول: معالم التفسير، تناولت علم التفسير تعريفاً في اللغة و الاصطلاح، و الفرق بينه و بين التأويل، و تحدثت عن أهمية التفسير و أقسامه، فكانت عدة آراء غربلناها، و ذهبنا إلى أن المفهوم الاصطلاحى للتفسير منحدر عن الاصل اللغوي، و أن التأويل ما لم يكن مقطوعاً به، و كان مردداً بين عدة وجوه محتملة، إلا إذا كان صادراً عن المعصوم فيعود التأويل تفسيراً بمعناه الاصطلاحى الدقيق، و قد لمسنا وجوه التفسير المحتملة و المتيقنة عند القدامى و المحدثين.

ب- في الفصل الثانى تحدثنا عن آداب التفسير الموضوعية و النفسية و الفنية، و اعتبرنا الآداب الموضوعية شرطاً أساسياً و ليس شرطاً احترازياً، فالعمق الموضوعى لا يقاربه إلا الباحث الموضوعى، و كذلك يتم اداء الامانة العلمية.

و رأينا أن الآداب النفسية ناظرة إلى الكمال الذاتى فى صحة الاعتقاد

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨٥

و الاخلاص و التفويض، و التدبر و التفكير، و علم الموهبة، و اصطلاحنا على مجموعة الفنون و العلوم و الطاقات التي يتذرع بها المفسر لخوض لجج التفسير: بالآداب الفنية، فهي أدوات التفسير و آياته، و هي قدراته و ملكاته، و قد وجدنا دور البلاغة العربية فاعلاً فى الكشف عن قدرات النصّ القرآنى، و تلقى معانيه ناصعة جلية، موافقة للوجدان الانسانى الرهيف.

ج- و كان الفصل الثالث يدور حول مصادر التفسير، و هي نقلية و عقلية و لغوية. فالمصدر النقلى يتأطر بين دراية قطعية و دلالة ظنية، و رواية تتقلب بين الظن و القطع. و المصدر العقلى يحدد مدى صلاحية العقل للاستقلال بالحكم- و هو ما رفضناه- أو باعتبار العقل طريقاً موثقاً للعلم- و هو ما رأيناه-، أو بالغاء هاتين الصلاحيتين. و المصدر اللغوي يدلنا تاريخياً على ارتباط اللغة بالقرآن و القرآن باللغة، لما وجدنا عليه المفسرين فى تعويلهم على الحجّة و الاعراب و اللغة و المجاز و التشبيه و الكناية و الاستعارة و التمثيل، و كلها

علامات تؤشر إلى أهمية المصدر اللغوي.

د- وقد تحدثنا في الفصل الرابع عن دور تعدد المناهج في إثراء عملية التفسير، و رأينا فيها طرفا و أساليب، في بعضها جدّة و تلوين، و في بعضها الآخر تجوّز و تسويغ، و هي أقسام: قسم شائع، و قسم حادث مما لا مانع فيه، و قسم منهى عنه، و لدى بحثها بعناية فائقة لخصناها: بالمنهج القرآني، و المنهج الأثرى، و منهج الرأي، و المنهج اللغوي، و المنهج البياني، و المنهج الصوفي أو الباطني، و المنهج العلمي، و المنهج التاريخي، و المنهج الموضوعي، و وجدنا بعض المناهج تتأرجح بين الاحتجاج و الأدب و الاجتماع في تفسير القرآن فأسميناها مناهج أخرى.

و لقد أغنينا هذا الفصل بالبحث و التمحيص و الاستقراء، و وضعنا أزاء كل منهج محاسنه و نقده، فعاد الفصل هيكلا مترابطا يشد بعضه بعضا.

ه- و قد خصصنا الفصل الخامس بالحديث عن مراحل التفسير فكانت.

١- مرحلة التكوين: و هي متفرعة عن التفسير بالمأثور المستند إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و آله و أصحابه و جملة من التابعين.

٢- مرحلة التأصيل: و كان قوامها ثلاث مدارس تفسيرية متنورة نشأت في كل من مكة و المدينة و العراق.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٨٦

٣- مرحلة التجديد: و قد ضببت تاريخيا بحلول القرن الرابع عشر الهجري، حينما تنادى العرب و المسلمون بطرح ما هو جديد على الساحة الثقافية و الأدبية من خلال تفسير القرآن تفسيرا حديثا، فتجاذب هذه الدعوة اتجاهان رئيسيان: الاتجاه الأول: و قد دعا إلى إخضاع التفسير للمفهوم الاجتماعي، و مواكبة العلم الحديث، و هو نهج فيه كثير من التجوز و جزاف القول.

الاتجاه الثاني: و هو الداعي لدراسة القرآن أدبيا و فنيا و تشريعا على أساس عملية التوزيع في أبحاثه و أبوابه باعتباره كتاب العربية الأكبر، فالقرآن و إن كان كتاب هداية و تشريع، و لكنه بالوقت نفسه عصاره جهد فني، و إبداعي، و لغوي في حياة العرب و المسلمين. و القرآن و إن كان عربي النص إلا أنه عالمي الدلالة، و هو و إن كان إنساني المفاهيم إلا أنه عربي العبارة، و هذا المنظور المشترك لانسانية القرآن و عربيته يشكل في نظرنا تاريخا مشتركا تتولى تقويمه عملية التفسير الموضوعي.

و إلى هنا كان هذا الكتاب في طبعاته القديمة، و قد أضفنا له في هذه الطبعة المنقحة و المزيده، الباب الثاني ليشمل التفسير تطبيقيا كما وسعه نظريا، فكان هذا الباب بعنوان «التفسير في المستوى التطبيقي». ففي الفصل الأول: تحدثنا بروح تفسيرية حرّة متطورة تستقطب نموذجا فريدا في التفسير الموضوعي، خصص لسورة الزخرف من القرآن الكريم في معطياتها كافة بنحو يمثل التفسير الحديث موضوعا موضوعا في اثني عشر بحثا جاءت تطبيقا قرآنيا للنظرية التفسيرية.

و في الفصل الثاني: عرضنا لتفسير «فاتحة الكتاب» تفسيرا تسلسليا في أبعادها كافة في أحد عشر بحثا إحصائيا بما يمكن اعتباره نموذجا للتفسير الشامل من كل الوجوه، و رأينا فيه صعوبة هذا المنهج لأنه يستوعب الحديث بالتفصيل عن الأصل و الفرع و الهامش و اللازم و المتعلقة، و هي عملية مضمينة قد لا يتسع معها المفسر لاستقراء القرآن العظيم بعامه.

و قد توسلنا إلى الله سبحانه و تعالى أن يكون تفسير فاتحة كتابه بداية لتفسير القرآن العظيم تفسيرا منهجيا حديثا يتواكب مع معطيات العصر.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩١

## أ- المصادر القديمة:

- ١- خير ما نبدأ به: القرآن الكريم.
- ٢- الآلوسى: أبو الفضل: محمود الآلوسى البغدادي (ت: ١٢٧٠ هـ) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني. إدارة الطباعة المنيرية: القاهرة: د. ت ٣- ابن الأثير: أبو السعادات: المبارك بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦ هـ) جامع الأصول في أحاديث الرسول. تصحيح: عبد المجيد سليم و محمد حامد الفقى: مطبعة السنة المحمدية: القاهرة: ١٩٤٩ م ٤- ابن الأثير (نفسه فيما سبق) النهاية في غريب الحديث و الأثر. دار إحياء التراث العربى: بيروت: د. ت.
- ٥- الأردبيلي: المولى المقدس أحمد الأردبيلي (ت: ٩٥١ هـ) زبدة البيان. مطبعة النعمان: النجف الأشرف: ١٣٨٥ هـ ٦- الأنصارى: الاستاذ الأعظم مرتضى الانصارى (ت: ١٢٨١ هـ) فرائد الأصول الرسائل. النجف الاشرف: الطبعة الحجرية: ١٣٧٤ هـ.
- ٧- البحرانى: الشيخ يوسف بن أحمد البحرانى (ت: ١١٨٦ هـ) الحدائق الناضرة فى فقه العترة الطاهرة. تحقيق: الشيخ محمد تقى الإيروانى: مطبعة النعمان: النجف الأشرف: ١٩٨٠ م.
- ٨- البحرانى: هاشم الحسينى البحرانى (ت: ١١٠٧ هـ) البرهان فى تفسير القرآن. المطبعة العلمية: النجف الاشرف: ١٣٩٣ هـ ٩- البخارى: أبو عبد الله: محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦ هـ) الجامع المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٢ الصحيح مطبعة محمد صبيح: القاهرة: د. ت.
- ١٠- البروسى: إسماعيل حقى البروسى (ت: ١١٣٧ هـ) تفسير روح البيان المطبعة العثمانية: استانبول: ١٣٣٠ هـ.
- ١١- البلخى: مقاتل بن سليمان (ت: ١٥٠ هـ) الاشباه و النظائر فى القرآن الكريم تحقيق: د. عبد الله شحاتة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة: ١٩٧٥ م.
- ١٢- البهائى: محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثى الهمداني (ت: ١٠٣١ هـ) الكشكول مطبعة مصطفى البابى الحلبي: القاهرة: ١٩٥٧ م.
- ١٣- الترمذى: أبو عيسى: محمد بن عيسى (ت: ٢٧٩ هـ) سنن الترمذى مطبعة مصطفى البابى الحلبي: القاهرة: ١٩٣٧ م.
- ١٤- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحكيم (ت: ٧٢٨ هـ) مقدمه فى أصول التفسير تحقيق: د. عدنان زرزور: دار القرآن الكريم: الكويت: ١٩٧١ م.
- ١٥- الجاحظ: أبو عثمان: عمرو بن بحر (ت: ٢٥٥ هـ) البيان و التبيين تحقيق: حسن السندوبى: المطبعة الرحمانية: القاهرة: ١٩٣٢ م.
- ١٦- الجرجانى: أبو بكر: عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت: ٤٧١ هـ) أسرار البلاغة تحقيق: هلموت ريتز: مطبعة وزارة المعارف: استانبول: ١٩٥٤ م ١٧- ابن جزى: محمد بن أحمد الكلبي (ت: ٧٤١ هـ) التسهيل لعلوم التنزيل مطبعة مصطفى محمد: القاهرة: ١٣٥٥ هـ ١٨- حاجى خليفة: مصطفى بن عبد الله (ت: ١٠٦٨ هـ) كشف الظنون عن أسامى الكتب و الفنون مطبعة وكالة المعارف: استانبول: ١٩٣٤ م
- ١٩- ابن حجر: شهاب الدين: أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت: ٥٨٢ هـ) تهذيب التهذيب مطبعة الهند: د. ت ٢٠- أبو حيان: أثير الدين: محمد بن يوسف الاندلسى (ت: ٧٥٤ هـ) البحر المحيط نشر مكتبة النصر الحديثة: د. ت ٢١- ابن خالويه: الحسين بن أحمد (ت: ٣٧٠ هـ) إعراب ثلاثين سورة من المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٣
- القرآن الكريم مطبعة دار الكتب المصرية: القاهرة: ١٩٦٥ م.

٢٢- ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون (ت: ٨٠٨ هـ) مقدمة ابن خلدون المطبعة الشرقية: القاهرة: ١٣٢٧ هـ ٢٣- الخليل: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥ هـ) كتاب العين تحقيق: د. مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي: وزارة الاعلام: بغداد.

٢٤- الراغب الاصبهاني: الحسين بن محمد بن الفضل (ت: ٥٠٢ هـ) المفردات في غريب القرآن تحقيق: محمد سيد كيلاني: مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٦١ م ٢٥- الزركشي: بدر الدين: محمد بن عبد الله (ت: ٧٩٤ هـ) البرهان في علوم القرآن تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: دار إحياء الكتب العربية: القاهرة: ١٩٥٧ م ٢٦- الزمخشري: أبو القاسم: جار الله: محمود بن عمر (ت: ٥٣٨ هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٤٨ م ٢٧- ابن الزمكاني: كمال الدين: عبد الواحد بن عبد الكريم (ت:

١٩٧٤ هـ) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديشي: مطبعة العاني: بغداد: ١٩٧٤ م.

٢٨- سيويه: أبو بشر: عمرو بن عثمان (ت: ١٨٠ هـ) الكتاب تحقيق: عبد السلام محمد هارون: دار إحياء الكتب العربية: القاهرة: ١٩٦٦ م ٢٩- السيرافي: أبو سعيد: الحسن بن عبد الله (ت: ٣٦٨ هـ) أخبار النحويين البصريين نشر الاستاذ فرنسيس كرنكو.

٣٠- السيوطي: جلال الدين: عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١ هـ) الاتقان في علوم القرآن تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: مطبعة المشهد الحسيني: القاهرة: ١٩٦٧ م ٣١- أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت: ٦٦٥ هـ) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز تحقيق: طيار آلتى

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٤

قولاج: دار صادر: بيروت: ١٩٧٥ م ٣٢- الشريف الجرجاني حاشية الكشاف: ضمن الكشاف للزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٤٨ م ٣٣- الشريف الرضي: أبو الحسن: محمد بن الحسين الموسوي (ت:

٤٠٦ هـ) تلخيص البيان في مجازات القرآن تحقيق: د. محمد عبد الغني حسن: دار إحياء الكتب العربية: القاهرة: ١٩٥٥ م ٣٤- الشريف الرضي (نفسه فيما سبق) حقائق التأويل تحقيق: محمد رضا كاشف الغطاء: طبعة جمعية منتدى النشر و مجمعها الثقافي: النجف الأشرف: ١٣٥٥ هـ ٣٥- الشوكاني: محمد بن علي (ت: ١٢٥٠ هـ). فتح القدير الجامع بين فنى الرواية و الدراية من علم التفسير مطبعة مصطفى البابي الحلبي:

القاهرة: ١٣٤٩ هـ ٣٦- الصدوق: أبو جعفر: محمد بن علي بن الحسين القمي (ت: ٣٨١ هـ) التوحيد مؤسسه النشر الاسلامي: قم: ١٤٠٤ هـ

٣٧- الصدوق (نفسه فيما سبق) عيون أخبار الرضا ج طبعة قم: ١٣٧٧ هـ ٣٨- الطبرسي: أبو علي: الفضل بن الحسن (ت: ٥٤٨ هـ) مجمع البيان في تفسير القرآن مطبعة العرفان: صيدا: ١٣٣٣ هـ ٣٩- الطبري: أبو جعفر: محمد بن جرير (ت: ٣١٠ هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٥٤ م ٤٠- الطريحي: فخر الدين: محمد بن علي بن أحمد (ت: ١٠٨٥ هـ) تفسير غريب القرآن تحقيق: محمد كاظم الطريحي: المطبعة الحيدرية: النجف الاشرف: ١٩٥٣ م ٤١- الطوسي: أبو جعفر: محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ) التبيان في تفسير القرآن تحقيق: أحمد حبيب القصير و أحمد شوقي الأمين:

المطبعة العلمية: النجف الاشرف: ١٩٥٧ م ٤٢- أبو عبيدة: معمر بن المثنى (ت: ٢١٠ هـ) مجاز القرآن تحقيق: د.

محمد فؤاد سزكين: مطبعة السعادة: القاهرة: ١٩٧٠.

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٥

٤٣- ابن عربي: محي الدين بن عربي (ت: ٦٣٨ هـ) تفسير القرآن الكريم دار اليقظة العربية: بيروت: ١٩٦٨ م ٤٤- ابن عطية: عبد الحق بن أبي بكر بن عبد الملك الغرناطي (ت:

٩٧٢ هـ) مقدمتان في علوم القرآن تحقيق: الاستاذ آرثر جفري: مطبعة السنة المحمدية: القاهرة: ١٩٥٤ م ٤٥- العياشي: أبو نصر: محمد

بن مسعود الكوفي العياشي (ت: ٣٢٠ هـ) تفسير العياشي نشر المكتبة العلمية الاسلامية: طهران ٤٦- الغزالي: أبو حامد: محمد بن محمد بن محمد (ت: ٤٧٨ هـ) إحياء علوم الدين مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: د. ت ٤٧- الغزالي (نفسه فيما سبق) جواهر القرآن مطبعة كردستان العلمية:

القاهرة: ١٣٢٩ هـ ٤٨- الفارابي: محمد بن محمد بن طرخان (ت: ٤٢٩ هـ) فصوص الحكيم مطبعة السعادة: القاهرة: ١٩٠٧ م ٤٩- ابن فارس: أبو الحسين: أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٦٥ هـ) الصحابي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها مطبعة المؤيد: القاهرة: ١٩١٠ م ٥٠- الفراء: أبو زكريا: يحيى بن زياد (ت: ٢٠٤ هـ) معاني القرآن تحقيق: أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار: مطبعة دار الكتب المصرية:

القاهرة: ١٩٥٥ م ٥١- القرطبي: أبو عبد الله: محمد بن أحمد الانصاري (ت: ٦٧١ هـ) الجامع لأحكام القرآن دار الكتب المصرية: القاهرة: ١٩٣٥ م ٥٢- القمي: أبو الحسن: علي بن إبراهيم الأشعري الكوفي (ت: ٣٠٧ هـ) تفسير القمي طبعه بيروت: ١٣٨٧ هـ ٥٣- الكراجكي: أبو الفتح: محمد بن علي بن عثمان (ت: ٤٤٩ هـ طبعه طهران: ١٣٢٢ هـ ٥٤- الكليني: أبو جعفر: محمد بن يعقوب الكليني البغدادي (ت: ٣٢٩ هـ) الاصول من الكافي دار الكتب الاسلامية: طهران: ١٣٨٨ هـ المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٦

٥٥- المرتضى: علم الهدى: علي بن الحسين الموسوي (ت: ٤٣٦ هـ) غرر الفوائد و درر القلائد تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم: مطبعة عيسى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٥٤ م ٥٦- المنذرى: الحافظ المنذرى مختصر سنن أبي داود تحقيق: أحمد شاکر و محمد حامد الفقى: مطبعة أنصار السنة المحمدية: القاهرة: ١٣٦٧ هـ ٥٧- ابن منظور: جمال الدين: محمد بن مكرم الانصاري (ت: ٧١١ هـ) لسان العرب طبعه مصورة عن طبعه بولاق: القاهرة: د. ت ٥٨- ابن المنير: أحمد بن المنير الاسكندري الانتصاف: ذيل الكشاف مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٤٨ م ٥٩- ابن النديم: محمد بن أبي يعقوب البغدادي (ت: ٣٨٠- ٣٨٥ هـ) الفهرست تحقيق: الاستاذ فلوجل: لايزج: ١٨٧١ م- ١٨٧٢ م.

٦٠- النيسابورى: الحسن بن محمد (ت: ٦٢٨ هـ) غرائب القرآن و رغائب الفرقان تحقيق: إبراهيم عطوة عوض: مطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة: ١٩٦٤ م

## ب- المراجع الحديثة:

٦١- أحمد أحمد بدوى (الدكتور) من بلاغة القرآن مكتبة نهضة مصر: الطبعة الثالثة: القاهرة: ١٩٥٠ م ٦٢- أحمد أمين الكاظمي (أستاذ في الرياضيات و الفيزياء) التكامل في الاسلام مطبعة النعمان: النجف الاشرف: ١٣٩٠ هـ ٦٣- أحمد رضا (الشيخ) كلمة في التفسير: مقدمه لمجمع البيان للطبرسى مطبعة العرفان: صيدا: ١٣٣٣ هـ ٦٤- أمين الخولى (أستاذ الدراسات القرآنية في جامعة القاهرة) (ت: ١٩٦٦ هـ) دائرة المعارف الاسلامية مادة تفسير: أوفست: القاهرة: ١٩٣٣ م ٦٥- أمين الخولى (نفسه فيما سبق) محاضرات في أمثال القرآن ألقتها على طلبة الدراسات العليا بجامعة القاهرة: مخطوط عنه الدكتور مصطفى ناصف

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٧

٦٦- بروكلمان: البروفيسور كارل بروكلمان: مستشرق الماني (ت: ١٩٥٦ م) تاريخ الأدب العربي ترجمة: د. عبد الحليم النجار و جماعته: دار المعارف: القاهرة: ١٩٧٧ م ٦٧- بكرى الشيخ أمين

(الدكتور) التعبير الفني في القرآن دار الشروق:

بيروت: ١٩٧٢ م ٦٨- حسين الطباطبائي اليزدي (ت: ١٣٨٧ هـ) تفسير آيات الأحكام مطبعة الآداب: النجف الأشرف: ١٣٨٥ هـ ٦٩- رمزي نغاعة (الدكتور) الاسرائيليات و أثرها في التفسير دار المعارف للطباعة: دمشق: ١٩٧٠ م.  
٧٠- زهدى حسن جار الله (الدكتور) المعتزلة: مطبعة مصر: القاهرة:

١٩٣٧ م.

٧١- سيد أحمد خليل (الدكتور) دراسات في القرآن دار النهضة العربية:

بيروت: ١٩٦٩ م.

٧٢- سيد قطب في ظلال القرآن دار إحياء التراث العربي: بيروت: ١٩٦٧ م ٧٣- عائشة عبد الرحمن: الدكتور بنت الشاطي: (ت: ١٩٩٨ م) الاعجاز البياني للقرآن مسائل ابن الأزرق دار المعارف بمصر: القاهرة: ١٩٧١ م ٧٤- عبد الأعلى السبزواري (المرجع الديني المعاصر) (ت: ١٤١٤ هـ) مواهب الرحمن في تفسير القرآن مطبعة الآداب: النجف الاشرف:

١٣٨٨ هـ ٧٥- عبد الله محمود شحاتة (الدكتور) القرآن و التفسير الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة: ١٩٧٤ م ٧٦- عبد الجبار حمد شرارة (الدكتور) الحروف المقطعة في القرآن الكريم مطبعة الإرشاد: بغداد: ١٩٨٠ م.

٧٧- عبد العزيز السيد الأهل من إشارات العلوم في القرآن الكريم دار النهضة الحديثة: بيروت: ١٩٧٢ م.

٧٨- عبده الراجحي (الدكتور) دار النهضة العربية: بيروت: ١٩٧٥ م.

٧٩- علي الحسيني السيستاني (المرجع الديني الأعلى المعاصر) الرافد في

المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٨

علم الاصول تقريرات بقلم منير عدنان القطيفي: دار المؤرخ العربي:

بيروت: ١٩٩٤ م.

٨٠- فتحى أحمد عامر (الدكتور) بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ دار النهضة العربية: القاهرة: ١٩٧٤-١٩٧٥ م.

٨١- أبو القاسم الموسوى الخوئي: المرجع المعاصر: (ت: ١٤١٣ هـ) البيان في تفسير القرآن مؤسسة الاعلمي للمطبوعات: بيروت: ١٩٧٤ م.

٨٢- أبو القاسم الموسوى الخوئي (نفسه فيما سبق) معجم رجال الحديث مطبعة الآداب: النجف الاشرف: ١٩٧٣ م.

٨٣- مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ترجمة: د. عبد الصبور شاهين: دار الفكر: بيروت: ١٩٦٨ م.

٨٤- محمد تقى الحكيم (عضو المجمع العلمى العراقى) الأصول العامة للفقهاء المقارن دار الاندلس: بيروت: ١٩٦٣ م.

٨٥- مجمع اللغة العربية فى القاهرة معجم ألفاظ القرآن الكريم الهيئة المصرية العامة للتأليف و النشر: القاهرة: ١٩٧٠ م.

٨٦- محمد جمال الهاشمى (أستاذ فى الحوزة العلمية فى النجف) (ت:

١٩٨٨ م) من تفسير القرآن الكريم بحث: مجلة الايمان النجفية: عدد ٥-٦: مطبعة القضاء: النجف الاشرف: ١٩٦٤ م.

٨٧- محمد حسين على الصغير (المؤلف) تاريخ القرآن الدار العالمية للدراسات و النشر و التوزيع: بيروت: ١٩٨٣ م.

٨٨- محمد حسين على الصغير الصورة الفنية فى المثل القرآنى: دراسة نقدية و بلاغية رسالة دكتوراه فى الآداب: طبع وزارة الاعلام: بغداد:

١٩٨١ م. طبع دار الهادى: بيروت: ١٩٩٢ م.

٨٩- محمد حسين على الصغير المستشرقون و الدراسات القرآنية المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع: بيروت: ١٩٨٣ م.

٩٠- محمد حسين الذهبى (الدكتور) التفسير و المفسرون: دار الكتب الحديثة: القاهرة: ١٩٦١ م



المبادئ العامة لتفسير القرآن، ص: ٢٩٩

٩١- محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٩٨٤ م) القرآن في الاسلام دار الزهراء: بيروت: ١٩٧٨ م ٩٢- محمد حسين الطباطبائي (نفسه فيما سبق) الميزان في تفسير القرآن مؤسسة الأعلمي للطبوعات: بيروت: د. ت ٩٣- محمد رشيد رضا (الشيخ) تفسير المنار مطبعة المنار: القاهرة:

١٣٤٥ هـ ٩٤- محمد رضا المظفر: مؤسس كلية الفقه في النجف: (ت: ١٩٦٤ هـ) أصول الفقه دار النعمان: النجف الاشرف: ١٩٦٧ م ٩٥- محمد سلّام مدكور (الدكتور) مباحث الحكم عند الأصوليين مطبعة لجنة البيان العربي: القاهرة: د. ت ٩٦- مصطفى الصاوي الجويني (الدكتور) مناهج في التفسير شركة الاسكندرية للطباعة: الاسكندرية: د. ت ٩٧- مصطفى زيد (الدكتور) دراسات في التفسير ملتزم الطبع: دار الفكر العربي: القاهرة: ١٩٦٧.

٩٨- محمد عبد العظيم الزرقاني مناهل العرفان في علوم القرآن دار إحياء الكتب العربية: القاهرة: د. ت ٩٩- محمد عبده (مفتي الديار المصرية) شرح نهج البلاغة للإمام ج مطبعة الاستقامة: القاهرة: د. ت ١٠٠- محمد علي الصابوني التبيان في علوم القرآن دار الارشاد: بيروت: ١٩٧٠ م.

### تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم و أنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَأَتَّبَعُونَا... (بِنَادِرِ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقه لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشئته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأدق للمسائل الدينيّة، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

- (الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه
- (ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول
- (ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...
- (د) إبداع الموقع الانترنتي " القائميّه " www.Ghaemiyeh.com و عدّه مواقعٍ أُخرَ
- (ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية
- (و) الإطلاع و الدّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّه، الاخلاقيه و الاعتقاديّه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)
- (ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS
- (ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيّه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جَمكران و...

- (ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسه " الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشاركين في الجلسه
- (ي) إقامة دورات تعليميه عموميّه و دورات تربيّه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنّه
- المكتب الرئسي: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد / ما بين شارع " پنج رمضان " و مُفترق " وفائي / بنايه " القائميّه "
- تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجريّه الشمسيّه (= ١٤٢٧ الهجريّه القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويه الوطنيّه: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجاريّه و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظه هامه:

الميزانيه الحاليه لهذا المركز، شعبيّه، تبرعيّه، غير حكوميّه، و غير ربحيه، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنّها لا تُوافي الحجم المتزايد و المتسعّ للامور الدينيه و العلميه الحاليه و مشاريع التوسعه الثقافيّه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائميّه) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الأعظم (عجلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف) أن يُوفّق الكلّ توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حدّ التمكن لكلّ احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

